كتاب التمكين

في شرح منازل السائرين

المتن لشيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري الهروي

الشرح والتحقيق والتعليق

بقلم

الأستاذ محمود أبو الفيض المنوفي الحسيني
رئيس تحرير مجلة العالم الإسلامي وعميد السادة الفيضيين

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله الذى اتخذ من عباده صفوة لحضرته وخصهم استثناء من سائر خلقه فقال :

(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا ســـلاما والذين يبيتون لربهم سجدا و قياما . وإذا مرو باللغوا مروا كراما) .

والصلاة والسلام على صفوة المحبوبين وإمام المحبين وسيد المرسلين المبعوث للخلق أجمعين هدى ورحمة للعالمين سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . وبعد .

فلما كان كتاب منازل السائرين للشيخ الإمام الهروى المفسرغى بالمعانى ولكنه صعب المبانى ، إذا تتبعنا ما يحتويه من حقائق . بحيث ترى ألفاظه ومعانيه تبدو كالرموز لغير البصير الخبير العليم بمصطلحات القول الذين يعنيهم أمرهم من أهل التصوف ومن المسافرين إلى حضرة الحق ، فأردنا تسهيل مبانيه وإيضاح خفى حقائقه ومساتير أسراره وباطن معانيه ، لعلنا نفيد بذلك إرواء قلوب المتعطشين وأفئدة ظامئين إلى سلاف الحقائق مواجيد العارفين طالب واضح المسالك من علوم أهل الطريق ومحبى التحقيق .

وقد آن لنا أن نقبس للقارىء شـــيئا من مقدمة المؤلف حيث يقول رضى الله عنه فى مقدمة كتابه « منازل السائرين إلى الحق » بعد أن حمد الله وأثنى على رسوله الكريم مبينا المقصد فقال :

الحمد لله الواحد الأحد القيوم الصمد ، اللطيف القريب ، المهيمن السميع المجيب ، الذى أمطر سرائر العارفين كرائم الكلم ، من عماء الحكم وألاح لهم لوائح القدم فى صحائف العدم ، ودلهم على أقرب السبل إلى المنهج الأول ، وردهم من مفترق العلل ، إلى عين الأزل . وبث فيهم ذخائره وأودعهم سرائره . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأول والآخر والظاهر الباطن ، الذى مد ظل التكوين على الخليقة سيرا ظليلا ثم جعل شمس التمكين لصفوته عليه دليلا ، ثم قبض ظل التفرقة عنهم إليه قبضا يسيرا وصلوات الله وسلامه على صفيه محمد صلى الله عليه ... الخ .

ثم ذكر الشيخ الإمام رضى الله عنه أن جماعة من الراغبين فى الوقوف على منازل السائرين إلى الحق وطالت عليه مسألتهم فكان لا مندوحه له عن إجابتهم وقد سألوه أن يرتب لهم الطريق ترتيبا فى أصوله وفروعه دون أن يخلطه بكلام غيركلامه وذكر أن أحد العارفين عدألف مقام بين العبد وربه . من نور وظلمة (والقائل لهذه العبارة) (هو عبد الله البسرى الصوفى) ويقول الشيخ أن هذا قد يصد السالكين عن طريق الحق ، فضلا عن التطويل المؤدى إلى الملالة . . فجعلها الشيخ رضى الله عنه مائة مقام ، مقسومة على عشرة أقسام .

ثم قال : إن العبد لا يصح له مقام حتى يرتفع عنه إلى غيره ثم يشرف عليه (ليصححه) . واستشهد بقول الإمام الجنيد رحمه الله (قد ينقل العبد من حال إلى حال أرفع منه وقد بقيت عليه بقية من الحال التى نقل عنها فيشرف عليها فى الثانية ويصححها) ثم قال الإمام الهروى رضى الله عنه ، أن عامة علماء هذه الطائفة (أى الصوفيين) اتفقوا على أن «النهايات لا تصح إلا بتصحيح البدايات) كما أن الأبنية لا تقوم إلا على الأساسات . » وذلك لإقامة الأمر على مشاهدة الإخلاص ومتابعة السنة ، وتعظيم النهى ، ورعاية الحرمة ومجانبة كل صاحب يفسد الوقت أو يفتن القلب إلى أن قال :

إن الناس فى هذا الشأن ثلاثة نفر : رجل يعمل بين الخوف والرجاء شاخصا إلى الحب مع صحبة الحياء وهذا هو الذى يسمى « المريد » ورجل مختلف من وادى التفريق إلى وادى الجمع وهو الذى يقال له «المراد » .

والرتبة الثالثة وهى : كل ما سواهما فمدع مفتون وجميع هذه المقامات تجمعها رتب ثلاث « الرتبة الأولى : أخذ القاصد فى السير ، والثانية دخوله فى الغربة ، والثالثة : حصوله على المشاهدة الجاذبة إلى عين التوحيد .

ثم استشهد الشيخ رضى الله عنـــه على ذلك بأحاديث منها عن الرتبة الأولى : عن الحسين بن محمد بن على الفرائضى عن يحي بن أبى كثير عن أبى سلمى عن أبى هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (سيروا سبق المفردون قيل يا رسول الله ومن المفردون . قال : المهترون الذين يهترون فى ذكر الله تعالى يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافا وهو حديث حسن ومخرج فى صحيح مسلم) والمفردون . معناه المتفردون ، المتخلصون مما يعيقهم عن حب الله وطاعته من الأسباب الفانية والمظاهر الخادعة . وأما المهترون فهم المكثرون من ذكر الله . كما يقول الله تعالى « الذين يذكرون قياما وقعودا وعلى جنوبهم » ، وأما قوله صلى الله عليه وسلم . يأتون يوم القيامة خفافا — فهو واضح لأن من شأن الذكر تسبيحا أو استغفارا يحط من الذنوب والأوزار .

وفى معنى الدخول فى الغربة وهو الرتبة الثانية ما رواه حمزة بن محمد بن عبدالله الطوسى قال . سمعت من أبى عبد الله بن عبدالواحد الهاشمى الصوفى قال سمعت الأبنودى الصوفى بالبصرة قال سمعت جعفر الخالدى الصوفى يقول : قال سمعت الجنيد يقول سمعت السرى السقطى عن معروف الكرخى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن على رضى الله عنه أنه قال قال عليه الصلاة والسلام « طلب الحق غربه » .

وأخبرنا فى معنى الحصول على المشاهدة وهى الرتبة الثالثة بحسب

ترتيب الشيخ عن محمد بن على بن الحسين الباسانى عن محمد بن اسحاق القرشى عن عثمان بن سعيد الرازى عن سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن مطر الوراق عن أبي بريدة يحي بن يعمر عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما فى حديث سؤال جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما الإحسان قال : « إن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه يراك » وهذا حديث صحيح أخرجه مسلم فى الصحاح وفى هذا الحديث إشارة جامعة لمذاهب هذه الطائفة الصوفية، وإنى مفصل لك درجات كل مقام منها لتعرف درجة العامة منهم ثم درجة السالك . ثم درجة المحقق ولكل منهم شرعة ومنهاج ووجهة هو موليها . وقد نسب له علم هو إليه مبعوث وأتيحت له فى غاية هو إليها محثوث . وأنا اسأل الله تعالى أن يجعلنى فى قصده بالعناية مصحوبا وأن يجعل لى سلطانا مبينا أنه سميع قريب .

ثم قال الشيخ الإمام رضى الله عنه معدداً أقسام الأبواب فى كتابه وبين أبوابه المائه فى عشرة أقسام فقال :

إن الأقسام العشرة التى ذكرتها فى صدر الكتاب هى قسم البدايات والتى بعدها قسم الأبواب ثم قسم المعاملات ثم قسم الأخلاق ثم قسم الأصول ثم قسم الأدوية ثم قسم الأحوال ثم قسم الولايات ثم قسم الحقائق ثم قسم النهايات فتكون الأقسام مائة باب فى عشرة أقسام . ثم قسم رضى الله عنه : قسم البدايات إلى عشرة أبواب : وهى باب اليقظة وباب التوبة وباب المحاسبة وباب الإنابة وباب الفكر وباب الذكر وباب الاعتصام وباب الفرار وباب الرياضة وباب السماع .

ولنبدأ بشرح (قسم البدايات) :

باب اليقظة

قال تعالى (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله) والقومة لله تعالى هى اليقظة من سنة الغفلة والنهوض عن ورطة الفترة وهى أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه .

ثم قال واليقظة ثلاثه أشياء : لحظ القلب للنعمة مع اليأس من عدها . أو الوقوف على حدها والعلم بالتقصير فى حقها والتفرغ إلى معرفة المنة بها .

والثانى : مطالعة الجناية والوقوف على الخطة فيها ثم التشمير لتداركها والتخلص من رقها وطلب النجاة بتمحيصها والثالث : الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان مع الأيام والتنصل من تضييعها والنظر إلى الضن بها لتدارك فائتها وتعمير باقيها .

(أما قول الشيخ رضى الله عنه القومة لله هى اليقظة من سنة الغفلة والنهوض عن ورطة الفترة فهو أول مايستنير به قلب العبد إلى النعمة مع اليأس من عدها والوقوف على حدها ومعرفة المنة بها والعلم بالتقصير فى حقها ويريد أن يقول إن اليقظة الصادقة هى القومة والنهوض من حضيض الغفلة لاستنارة قلبه بهواتف الحق ونور التنبيه . وهذا يوجب له ملاحظة نعم الله عليه باطنة وظاهرة وكلما تبصر فيها يئس من عدها أو الوقوف على مدى تعدادها ، فحينئذ يشاهد منه الله عليه فيها من غير استحقاق منه لها . واستجلاب بعوض ، وحينئذ يتيقن تقصيره فى أداء واجب تلك النعم من الطاعة لمسديها والقيام بشكر المنعم بها . وهذا يقتضى ضرورة محبة المنعم واللهج بذكره ورؤية التقصير فى حقه

ثم قال : والثانى أى الأمر الثانى مطالعة الجناية والوقوف على الخطر فيها والتشمير لتداركها والتخلص من رقها وطلب النجاة بتمحيصها .

والجناية المقصود مطالعتها هنا هى التقصير فى شكر النعمة والقيام بواجب الخدمة فاذا تيقظ العبد لذلك أدرك الخطر منه أى فى جناية التقصير وهذا طبعا يدعوه للتشمير إلى تداركها وطلب النجاة من حضيضها فينظر إلى تعدد اساءاته مع تعدد أنعم الله عليه فيعلم أنه لم يشمر بالسعى فهو فى خطر عظيم حينما يحاسبه صاحب الحق عليه بموجب حقه يوم الجزاء أو فى الدنيا . وهذا يوجب عليه ما فى المرتبة الثالثة التى ذكرها الشيخ من مراتب اليقظة . وهو الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان فى عمله مع مرور الأيام والتخلص من التضييع لكى يتدارك مافاته منها ثم تعمير باقيها بالأعمال الصالحات فيتدارك ما فاته منها فيعمل على الجد فى بقية عمره ويضن بأنفاسه ولحظاته أن تضيع فى غير ما تقرب إلى ربه المنعم عليه. فكل عمل يبعد من الله حسرة على العبد وحجاب عن رؤية فضله .

ثم قال رضى الله عنه : فأما معرفة النعمة فانها تصفو بثلاثة أشياء بنور العقل أى بادمان الفكر فى ملكوت السموات والأرض وفى مواهب الله على النفس أى النعم قال « وبشيم بروق المنة » أى ملاحظة مواهب المنن الواصلة من الحق إلى العبد والاعتبار بأهل البلاء أى الذين استدرجهم الله فأولاهم من النعم الكثير فلم يقوموا ببعض شكره عليه بل انصرفوا بنعمائه عن طاعته وشكره أولئك أهل الغفلة . واما أهل اليقظة فبمشاهدة النعمة ومطالعة جناية الغفلة فانهم بذلك فى يقظة قال : وذلك لايصح إلا بثلاثة اشياء : تعظيم الحق ومعرفة النفس وتصديق الوعيد .

أما تعظيم الحق فبطاعته وشكره والانكسار لحضرته . وأما معرفة النفس فهى درس أطوارها وأول تلك الأطوار أن النفس أمارة بالسوء فاذا تيقظت لامت نفسها وهى النفس اللوامة . فاذا ما استبصرت أكثر فأكثر صارت ملهمة وأبصرت بالبصيرة الصادقة التمييز بين فجورها وتقواها . فتهرب من الفجور والتضييع وتعمر الوقت بالتقوى فاذا

جدت فى ذلك صارت نفسا مطمئنة واستحقت بذلك قوله تعالى « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية » ويؤيد ذلك ويدعو إليه تصديق الوعيد أى ماتوعد الله به . وقد استغرب القوم وهم الصوفية فقالوا (من صدق بالوعيد كيف يحيد ؟) وذلك لأن التصديق بالوعيد يحض على العزم والتشمير فى السير ويمنع من تضييع الأوقات فى الطعن والتخلف لأن من عظمت مخافة الله عنده قلت أو امتنعت مخالفته له . ثم قال الشيخ . وأما معرفة الزيادة والنقصان من الأيام فإنها تستقيم بثلاثة أشياء سماع العلم واجابة داعى الحرمة وصحبة الصالحين، وملاك هذا كله ترك العادات ومفارقة المألوفات أى مألوفات النفس من النزوات والهوى .

أما العلم فهو أساس كل طاعة وأول كل معرفة ولن يطاع الله بالجهل وإنما يطاع بالعلم ، وحسبنا فى ذلك أن أول الآيات التى أنزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم تحض على العلم وذلك فى قوله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم» ثم قول الله تعالى لرسوله الكريم بعد ذلك (وقل رب زدنى علما) .

وأما إجابة داعى الحرمة أى خشية الحق واحترام أوامره التى هى أوامر شرعه فإنها هى الطريق الوحيد إلى رضوانه والوصول إلى حضرته .

(أما صحبة الصالحين فإنها عون على مراده ومقصده بسماع أقوالهم ورؤية أحوالهم والتشبه بهم .

قال وملاك ذلك كله : ترك العادات وذلك لأن العادات الشائعة فى الناس مبعدة فتركها مقرب إلى حضرة الحق . فأول مايبدأ به صاحب اليقظة وهو المقام الذى نتكلم فيه بأن يقوم لله قومة كما يقول الشيخ . والقومة لله انخلاع عن رق العادات وقيد الشهوات والنهوض من الوقوع فيما يقع فى

مثله شرار المخلوقات فإذا تمكنت اليقظة من قلب العبد أوجبت الفرقة فى المآل والمصير والماضى والحاضر والمستقبل ضرورة .

وفى هذه المعانى كلها من باب اليقظة والانتباه أنشد منشد القوم القصيدة الآتية : مرتبة على أحرف المعجم .

انتبه من كل نوم اغفلك	واخش ربا بالعطايا جملك
بع له دنيا[١] بأخراك فمن	باع أخراه بدنياه هلك
تابع المختار واسلك نهجه	فهو نور من مشى فيه سلك
ثق بمولاك وكن عبدا له	إن عبد الله فى الدنيا ملك
جدد النوح على ماقد مضى	من زمان فى المعاصى شغلك
حاسب النفس وعلمها الرضى	بالقضاء واعص هواها ترضى لك
خذ من التقوى لباسا طاهرا	فالتقى خير لباس يمتلك
داوم الذكر لخلاق الورى	واترك الأمر لمن أجرى الفلك
ذل واخضع واستقم واعبد له	مخلصا يفتح باب الخير لك
روح القلب له والمكاف على	بابه فهو الذى قد فضلك
زين الباطن بالتقوى كما	تحسن الظاهر تعطى أملك
سلم الأمر لله تسلم فكم	من فتى قد سلم الأمر سلك
شق حجب الكون للمعبود لا	تلتفت إلا إليه يقبلك
صن عن الدنيا فؤادا ويدا	ولسانا وله أخلص عملك
ضم احشاك على توحيده	فهو نور يذهب الداجى الحلك
طب به واقتنع به عن غيره	فهو كاف فضله قد شملك
ظن خيرا تلتق ما ترتجى	من جميع الخير حتى يقبلك

(١) المراد ببيع الدنيا هنا ليس تعطيلها وانما تسليمها لله مع العمل فيها على شرط الرضى بما يجريه الله على العبد فى عمله للدنيا .

عـــد إليه كلما حل البلى | عل تسلم من رجيم سولك
غص بحار الأنس فى جنح الدجى | لكريم بالعطـــايا خولك
فارق التدبير والعـــلم له | واسأل المولى يصفى منهلك
قل بذل يارحيم الرحمـــاء | يا منج بالعطايا من هلك
كن مجيرا ونصـــيرا وحمى | لعبد مذنب قد ســـألك
لذت بالباب فحاشا أن أرى | تعبا والأمر والتدبير لك
مر عيش والخطا أبعـدنى | واعتقادى الصفح عمن عاملك
نجنـــا من كل كرب وبلى | يوم يبقى العبد مكتوب الملك
هب لنا الستر ولا تفضحنا | يا آلهى واعف عمن سألك
وإذا حاسبتنا فى الحشر قل | أن ذا عبدى وفى فضلى سلك
لا تؤاخذنى نهار الحشر إن | شهدت أعضاء بالأفعال لك
يا مجيب القصـــد يسر أمرنا | واقض عنا ما المخلوق ولك
وصـــلاة وســـلاما للذى | جاءنا نورا فنجى من هلك
أحمـد المحمود مع أصحابه | ما سرى سار فى نهار أو ولج

باب التوبة

وبعد هذا بدأ الشيخ رضى الله عنه يتكلم عن مقام التوبة ، وطبعا ليس بعد اليقظة فى عرف أهل التصوف سوى التوبة وقال الله تعالى (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) فأسقط اسم الظلم عن التائب . والتوبة لا تصح إلا بعد معرفة الذنب وهى أن تنظر فى الذنب إلى ثلاثة أشياء — إلى انخلاعك عن المعصية حين إتيانه وفرحك عند الظفر به وقعودك على الإصرار عن تداركه مع تنبوئك بنظر الحق إليك — ومعنى قوله رضى الله عنه انخلاعك عن المعصية أى بالخروج عن الطاعة إلى المعصية حين إتيان الذنب وفرحك عند الظفر به أى السرور باتيان الذنب مع أنه موبق وذلك

السرور عادة يدعوك إلى الإصرار على الذنب فلا تتداركه بالرجوع إلى الطاعة مع علمك اليقيني بأن الله ناظر إليك .

ثم قال رضى الله عنه . وشرائط التوبة ثلاثة أشياء : الندم ، والاعتذار والإقلاع — أى الندم على مامضى من وقتك فى المعصية وكان أولى به ألا ينفق إلا فى طاعه ، وهذا ما يوجب الاعتذار إلى ربك بالإقلاع عن ذنبك والاستغفار لحصوله ثم التوبة منه والإقلاع عنه — ثم قال رضى الله عنه وحقائق التوبة ثلاثة أشياء تعظيم الجناية واتهام النفس وطلب أعذار الخليقة — والتوبة لا تكون إلا بالتفكر فى عظم الذنب واتهام النفس فيما دعت إليه من المعصية دعوتها إلى المتاب مع طلب أعذار الخليقة .

وقوله وطلب أعذار الخليقة : معناه ألا يقيس نفسه بغيره من العصاة الذين كان مبلغ موضعهم من الله ما أقاموا فيه من نقص ولا تلومنهم على أن شجعوك على المعصية بل تسامحهم وتطلب العذر لهم . وذلك بألا تتهم إلا نفسك التى أنت مسئول عنها دون غيرها .

ثم قال وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء : تمييز الثقة من العزة ونسيان الجناية والتوبة من التوبة . لأن التائب داخل فى الجميع من قوله تعالى (وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون) فأمر التائب بالتوبة (فكان له الفضل وهذا يحمل التائب ينسى نفسه أنه تائب) .

ثم قال ولطائف أسرار التوبة ثلاثة أشياء : أولها — النظر إلى الجناية والمعصية فتعرف مراد الله تعالى فيها إذا أخلاه وإتيانها فان الله تعالى إنما يخلى العبد والذنب لأحد معنيين : أحدهما أن يعرف عزته فى قضائه وبره فى ستره ، وحلمه فى إمهال راكبه وكرمه فى قبول المعذرة منه ، وفضله فى معرفته .

والثانى ليقيم على العبد حجة عدله فيعاقبه على ذنبه بحجته . واللطيفة

الثانية أن يعلم أن نظر البصير الصادق فى سيئته لم يبق له حسنة بحال لأنه يسير بين مشاهدة المنة وإصلاح عيب النفس ، واللطيفة الثالثة : أن مشاهدة العبد للحكم لم تدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة لصعوده عن جميع المعانى إلى معنى الحكم — أما قوله النظر إلى الجناية والمعصية وذلك من جهة عظمها وفظاعة إتيانها لا من جهة تقديرها من الله تعالى عليه فإن الله ما أخلى العبد وإتيان المعصية إلا لأن يعرف العبد عزة ربه فى قضائه ويعرف بره فى ستره ويدرك حلمه فى إمهاله . ثم كرمه فى قبول المعذرة منه إذا اعترف العبد بذنبه وتاب منه إلى بارئه . وفى تعرف فضله فى معرفة أن له ربا غفورا للذنب وشكورا للعمل الصالح . هذه واحدة ، والثانية أن يقيم الرب على العبد حجة عدله إن عاقبه على ذنبه وحينئذ يتحقق العبد أن نظر السالك البصير فى سيئته وفضل ربه عليه لم يبق له شخصيا حسنة يفتخر بها بحال من الأحوال لأنه يكون مشغولا حينئذ بشيئين مشاهدة منة ربه فى الطاعة وإصلاح عيب النفس بالمحاسبة وكلاهما من الله لا منه . ثم يبين وجه العمل الصالح المثبت لوجود المنة والثانى لظلمة المعصية وذلك لأن مشاهدة العبد لأصل الحكم الإلهى فى الخلق لم تدع له استحسان حسنة تأتى من قبل نفسه فيفتخر بها ولا استقباح سيئة من غيره وذلك لصعوده أى ارتفاع بصيرته عن جميع هذه المعانى العملية إلى معنى الحكم القدرى الكونى والحكم الشرعى الأمرى .

ولذلك قال رضى الله عنه فإن توبة العامة من الاستكثار للطاعة ، وقد يدعو إلى ثلاثة أشياء : جحود نعمة الستر والفرح والسرور للامهال ثم رؤية الحق على الله والاستغناء الذى هو عين الجبروت والتوثب على الله تعالى أى بالمكابرة والجحود وتوبة الأوساط من استقلال المعصية وهو عين الجرأة والمبارزة بمحض التزين والاسترسال الذى قد يؤدى إلى القطيعة وتوبة الخواص تكون من تضييع الوقت ، فانه يدعو إلى درك النقيصة ويطفىء نور المراقبة ويكدر عين الصحبة (وقوله : إن توبة العامة

من الاستكثار للطاعة يدعو إلى ثلاثة أشياء جحود نعمة الستر والإمهال ذلك لأن العبد يرى أنه مضيع ولم يعلم أن نفس الطاعة ستر وفضل من الله عليه . وكذلك قد يخطىء ولا يدرى لأن العبد خطاء وأن الكمال لله وحده فيمهله الله فى خطئه عن عقابه سترا له عسى أن يحاسب نفسه ، فان عمى العبد عن ذلك رأى أن له على الله حقا بطاعته وذلك يكون استغناء عن عفوه . وهو ضرورة كما يقول الشيخ: عين الجبروت والتوثب على الله فى حقه من حيث أن الله مطلق الثواب والعقاب والعفو والستر والمغفرة فيجب على عوام المطيعين أن يتوبوا من رؤية تلك التوبة التى تورطهم فى المعصية وهى معصية رؤية الكمال والتوثب على الله بادعاء ماله وحده من كمال . وذلك استغناء من العبد وهو عين المعصية بل إثمها ثم قال الشيخ الإمام رضى الله عنه . وتوبة الأوساط من استقلال المعصية وهو عين الجرأة والمبارزة ومحض التزين بالحمية والاستعداد للقطيعة — ومعنى قول الشيخ فى توبة الأوساط — أى أواسط الناس — يجب أن تكون من استقلال المعصـــية — أى استصغارها — مع فظاعتها بالنسبة للطاعة مهما كانت فى قلة أو فى كثرة . وقد نسوا فضل الله فى توبتهم وأنها منه ونسبوها إلى أنفسهم وذلك هو عين الجرأة على الله تعالى والمبارزة لأوامره عنها لمحض التزين بالحمية — أى أنهم فى حمية منها بطاعتهم ولو حاسبهم الله على تلك الطاعة فى حقيقتها لانقلبت ذنوبا ، لأن هذا الحال فى باطنه وظاهره يعد استعدادا للقطيعة عن الله وطاعته لا يرى فضل الله فيها فهى جديرة بأن تعد معصية لمباينتها لاسم الطاعة ومعناها .

ثم قال رضى الله عنه . وتوبة الخواص من تضييع الوقت فإنه يدعو إلى درك النقيصة ويطفىء نور المراقبة ويكدر عين الصحبة . ومعنى قوله وتوبة الخواص من تضييع الوقت أى تكون من تضييع الأوقات . فإن لكل وقت عملا . فإذا لم يقم العبد بكل عمل فى وقته فقد ضيع ذلك الوقت

وتضييع الأوقات والأنفاس يدعو ضرورة إلى درك النقيصة أى الجهة التى يأتى منها النقص وتضييع الوقت أيضاً يطفىء نور المراقبة لأن العبد لو كان مراقبا لربه فى سائر أوقاته وأنفاسه ما جنح نحو هـذا النقص الذى يكدر عين الصحبة أى مع الله تعالى — ثم قال رضى الله عنه لا يتم مقام التوبة إلا بالانتهاء إلى التوبة مما دون الحق . ثم رؤية تلك التوبة ثم التوبة من رؤية تلك العـــلة . وهى رؤية أن التوبة من نفسه حالة أنها منة من الله عليه . ويريد رضى الله عنه أن يقول . ومع هذه النقائص السالفة المناقضة للتوبة ، فلا تتم التوبة إلا بالتوبة عما دون الحق والمراد بالحق هنا الحق فى نفسه،الحق الذى ينبغى لله تعالى ، وليس هذا فقط بل يجب التوبة من رؤيه تلك العلة أى رؤية التوبة لأنها هنا علة لاستشعار التائب أنه تائب وفى ذلك من الاستعلاء مافيه من رؤية الحق على الله بتلك التوبة فانها طاعة . وربما كان ذلك التائب مستدرجا فى توبته لا تائبا . فأراد الشيخ رضى الله عنه أن ينبه عن علل التوبة وعن الأمور التى تجعلها توبة مدخولة بعدم صفاء النية فيها حاله أنه من شأن التوبة الخالصة أن تكون نصوحا كما قال الله تعالى « وتوبوا إلى الله توبة نصوحا » والنصوح هو الخلوص والصفاء ، فمن لم تكن توبته نصوحا هكذا تكون توبة مدخولة بعلة من العلل التى عددها الشيخ رضى الله عنه . ولذا فالشيخ يكاد أن يرى التوبة هى التوبة من مثل تلك التوبة المدخولة .

والتوبة أصل كل مقام فى طريق التصوف . وكمال كل حال من أحوال الصوفية وهى أيضا شرط فى الإسلام والإيمان أى فى الشريعة والحقيقة وهى أيضا أول سلوك الطالبين فى الطريقة ومفتاح الخير لكل العارفين ورأس مال الفائزين وأول أقدام المريدين ومفتاح استقامة السالكين ومطلع اصطفاء المصطفين . ولما كان الخير والشر معجونين فى طينه ابن آدم منذ جبلت طينته فاحتاجت الاستقامة إلى النية وأسست الطريق على التوبة .

(ثم اعلم أيها القارىء أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى خمسة أمور «أحدها» أن ينظر إلى الأمر والنهى فيحدث له من ذلك الاعتراف بأن الخطيئة خطيئة وهذا يوجب ضرورة الإقرار على النفس بالذنب «والثانى» أن ينظر إلى تمكين الله له منها وتخليته بينه وبينها حين تقدرها عليه ولو شاء لعصمه منها وحال بينه وبينها فيحدث له من ذلك نوع من النظر إلى تصاريف الحق وشهود إجراء معانى أسمائه وصفاته بمقتضى حكمته فيعرف مع ذلك أن لله بجانب اسمه الغفار القهار القاهر فوق عباده فيرجع إليه بحال اضطرار وانكسار فيستغفره إذا أحدث ذنبا ويكون هـذا الاستغفار نفسه منة من الله عليه فيشكره . «ثالثا» : أن الرضى عن الطاعة من رعونات النفس حيث ترى أنها صادرة عنها وسائر أرباب العزائم والبصائر ليس هذا شأنهم فإنهم أشد ما يكونون خفاء عقب الطاعات لشهودهم فيها وأنها من فضل الله عليهم .

«رابعا» رؤية الذل والإنكسار حال الطاعة دون الاعتذار أو الاحتجاج بها لأن الإنكسار هنا يعتبر شكرا لله واهب الطاعات لعباده . وهو فى نفسه عبادة وفى هذا يقول الشيخ أبو مدين رضى الله عنه «من تحقق بالعبودية نظر إلى أفعاله بعين الرياء وأحواله بعين الدعوة لوجود نفسه صيانة لها عما يكون قد حدث فيها من الاعتزاز بها أو الاعتماد عليها (أى الطاعة) .

ويحكى عن بعض العارفين أنه قال «دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام حتى جئت باب الإنكسار والاستغفار فإذا هو أقرب باب إلى الله وأوسعه ولا مزاحم فيه أو معوق .

«خامسا» عدم رؤية التائب أنه تائب فإن ذلك (أى رؤيته لنفسه فى توبته) موجب للاعتذار والمطلوب منه لزوم أعتاب العبودية والتذلل لحضرته وهو العزيز الأكبر وقد أنشد بعضهم فى هذا المعنى :

أذل لمن أهوى لأكسب عزة ... فكم عزة قد نالها العبد بالذل
وإذا كان من تهوى عزيزا ولم تكن ... ذليلا له فاقرأ السلام على الوصل

ويقول الله عز وجل (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحدا أبدا) .

فإن حدثت السيئة بعد التوبة فانبعها بحسنة مشمولة بالانكسار لتكون مقبولة ولا ترى لنفسك فى ذلك فضلا .

وكثير من الناس يفسرون التوبة بالعزم على أن لا يعود إلى الذنب وبالاقلاع فى الحال عن موجبات الذنوب ، ويرون الندم على الذنب الماضى وذلك لا يحدث إلا إذا كان الاعتصام بالله وطاعته ضعيفا (لأنه تردد) وإنما لو علت همة التائب وثبت صدقه فى توبته وأخلص النية فى تلك التوبة . كان حقا على الله تعالى أن يتقبلها إلا أن يكون الذنب فى حق آدمى مثله فلا بد له من أن يتحلل منه قبل التوبة أو بعدها ، وهذا هو الشرط الوحيد الذى يربطه بما قبل التوبة . والتوبة فى كلام الله وكلام الرسول تتجه إلى أن تكون نصوحا مشتملة على العزم لفعل المأمورات والتزامها وترك المنهيات واجتنابها وتلك هى حقيقة التوبة لأنهما تضم مجموع الأمرين معا : العزم على الترك والعزم على الفعل . وبهذا وذلك تكون التوبة مرادفة لكلمة التقوى لأنها عند إيرادها بالقول تقتضى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه وعند خاصة القوم التوبة هى الرجوع إلى الله دون تعريج على شىء والتوجه للاستعانة به على نفاذ تلك التوبة ولا بد للتائب من دوام الاستغفار بغية التقرب لا تذكرا للماضى . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستغفر الله عقب كل طاعة وكذلك الصحابة وخاصة أهل الله .

وفى الأثر الإلهى « من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن أتانى حبوا أتيته هرولة ، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به الخ . الحديث) .

وأخيرا يجب أن يكون التائب على حد قول من قال : —

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسكين فى مجموع حالاتى
أنا الظلوم لنفسى وهى ظالمتى ... والخير موهبة من عنده يأتى
لا أستطيع لنفسى جلب منفعة و ... لا عن النفس دفع المضرات
وليس دونه مولى يدبرنى ... ولا شفيع إذا حاطتنى خطيئاتى
إلا بإذن من الرحمن خالقنا ... إلى الشفيع كما جاء فى الآيات
ولست أملك شيئا دونه أبدا ... ولا شريك أنا فى بعض حالاتى
والفقر لى وصف لازم أبدا ... كما الغنى أبدا وصف له ذاتى
ومن بغى مطلبا من دون خالقه ... فهو الظلوم المشرك العاتى

باب المحاسبة

يقول الشيخ رضى الله عنه مبتدأ بكلام الله حيث يقول « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد » وهذا واضح ثم يقول : إنما يسلك طريق المحاسبة بعد العزيمة على عقد التوبة . والمحاسبة لها ثلاثة أركان أحدهما أن تقايس بين نعمته وجنايتك وهذا يشق على من ليس له ثلاثة أشياء : نور الحكمة . وســـوء الظن بالنفس ، وتمييز النعمة من الفتنة . والثانى — أن تميز ما للحق عليك مما لك أو منك فتعلم أن الجناية حجة عليك والطاعة منة منه إليك والحكم عليك حجة فما هو لك بمعذرة . والثالث — أن تعرف أن كل طاعة منك رضيتها فهى عليك . وكل معصية عيرت بها أخاك فهى إليك . فلا تضع ميزان وقتك من يدك .

أما فى قول الشيخ رضى الله عنه . إنما يسلك طريق المحاسبة بعد العزيمة على عقد التوبة فهذا أمر لا بد من وقوعه فمن اراد سلوك طريق الله إذن حدثت يقظته، وليس بعد اليقظة إلا المحاسبة أيضا المؤدية إلى التوبة . كما أن التوبة إذا حدثت فلا بد من حال حدوثها من المحاسبة . فالمحاسبة أمر يجب

أن يكون واقعا بعد التوبة وبعدها ثم رد الشيخ رضى الله عنه المحاسبة إلى ثلاثة أركان : جعل أحدها أن يقايس التائب بين جنايته ونعمة الله عليه . ثم قال : إن هذا الأمر يشق على من ليس له ثلاثة أشياء : نور الحكمة ، وسوء الظن بالنفس ، وتمييز النعمة من الفتنة ، وهذا معناه أنه يجب على المقايس بين نعم الله ومعاصيه أن ينظر بعين الحكمة والتدبر وهو حائز لمقدار كبير من سوء الظن بالنفس وليس هذا فقط ، بل إنه يد من التفكير فى التمييز بين النعمة والفتنة لتكرار طروئها عليه وأنه من ضروب الفتنة الموجبة للاستدراج أو الطرد والعياذ بالله تعالى ما يبدو لغير البصير إنه نعمة لاشك فيها وهو نقمة محققة لا يجب الارتياب فيها . وكم من ثروة مثلا أودت بصحة صاحبها بل بحياته كلها وكم من متعة أعقبتها جناية تشوش الحياة وتعكر صفوها . وكم من حبيب فى الظاهر وهو عدو فى الباطن وانظر فى قول الله تعالى فى أعز شىء على الإنسان (ياأيها الذين آمنوا إن من أموالكم وأولادكم عدوا فاحذروهم) عبرة والله أى عبرة وتذكرة للبيب وأى تذكرة وذلك مما يحتم على سالك طريق الله بالأخص أن يميز بين ما قد يكون نعمة وما قد يكون فتنة وحسبه فى ذلك قول الله تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) .

وقال الشيخ والثانى : أن تميز ما للحق عليك مما لك أو منك ومعناه أن تميز ما لله عليك من منن ضمنها الطاعات والمراضى . ومامنك له من معاص . وجنايات تكتب عليك فى صحيفتك فيطلع عليها الحق فيغفرها أو يمهلك فيها لعلك تتوب فيتوب عليك وكل هذا يقتضى أن حكمه بعدله يكون حجه عليك ولا تحتج بالقدر فى ذلك لأنك لا تعلم يقينا ما قدر عليك مما لم يقدر عليك ومن العبث أن تحتج بما لا تعلم .

وفى الأمر الثالث قال الشيخ رضى الله عنه: أن تعرف أن كل طاعة رضيتها

منك فهى عليك . وذلك لرؤيتها والاعتزاز بها وربما كانت مدخولة وأنت لاتدرى وحسبك فى ذلك أن تعتز بها فى نفسك وذلك مما يشعر بخروجك عن العبودية قليلا، وكثيرا وهذا الأدب يوجب ضرورة كما يقول الشيخ فى آخر كلامه أن كل معصية عيرت بها أخاك فهى راجعة إليك وذلك لأنك مكلف بالنظر فى عيوب نفسك دون غيرك والعالم الحق بأعذار الخليقة هو الله عز وجل العليم بالسرائر كعلمه بالظواهر . وبذا يكون تعييرك لأخيك ذنبا تعود إليك مغبته وكان الأجـــدر بك وبالأدب الصوفى أن تنظر فى سيئات نفسك ومحاسن غيرك . ولهذا وذلك يوصى الشيخ قارىء رسالته والمتابع لطريقته فى علمه أن لا يضع ميزان وقته أعنى من يده أى لا يبطل الوزن الصحيح فيضيع وقته سدى .

والمراد بهذا أن لا يخرج سالك طريق الحق عن حدود الاستقامة اللائقة بهوسلوك الطريق المستقيم أوقل (الصراط) وهو أمر دقيق دوجب لصحة النظر وحسن الاختيار والله الموفق للصواب .

باب الإنابة

قال الشيخ رضى الله عنه : يقول الله عز وجل (وأنيبوا إلى ربكم) ثم قال الإنابة تكون بثلاثة أشياء الرجوع إلى الحق إصلاحا كما رجعت إليه اعتذارا والرجوع إليه وفاء كما رجعت إليه عهدا والرجوع إلى حالا كما رجعت إليه إجابة . . وإنما يستقيم الرجوع إليه اصلاحا بثلاثة أشياء بالخروج من التبعات والتوجع للعثرات واستدراك الفائتات وإنما يستقيم الرجوع إليه وفاء بثلاثة أشياء : بالخلاص من لذة الذنب وبترك استهانة أهل الغفلة خوفا عليهم من الرجاء لنفسك أو بالاستقصاء فى رؤية علل الخدمة وإنما يستقيم الرجوع إليه حالا بثلاثة أشياء بالأياس من عملك وبمعاينة اضطرارك وبشيم برق لطفه بك .

والإنابة هي الرجوع أو قل سرعة الرجوع إلى الله فى جميع الحالات . والرجوع إلى الله فى حال المعصية خصوصا لأن العبد أحوج ما يكون لهذا الرجوع فى حال المعصية أكثر منه فى حال الطاعة .

والرجوع إلى الله أيضا فى حال الطاعة لكيلا تكون الطاعة مدخولة بالعجب أو الرياء هذا ما يسميه القوم إخلاصا . والرجوع إلى الله بالسريرة أى بما تحتويه السريرة لأن السريرة قد تحتوى على مايرضى الله وما يغضبه . وتحتوى أيضاً على ما يليق بالكمال الإنسانى أو بما يرفضه وذلك لما يعتور الإنسان فى أوقاته من حالات الرضى والغضب والسرور والكدر وكل هذه الحالات تنعكس على السريرة فتصرف من حال الإنسان فى كل وقت بلونه خيرا أو شراً .

ولذلك بدأ الشيخ رضى الله عنه كلامه بقوله تعالى (وأنيبوا إلى ربكم) أى أنيبوا إليه وارجعوا فى كل حال طاعة ومعصية ورضا وغضبا ثم قال الشيخ إن الإنابة ثلاثة أشياء : الرجوع إلى الحق إصلاحا كما رجعت إليه اعتذارا والرجوع إليه وفاء كما رجعت إليه عهدا .

قال والرجوع إليه إصلاحا بالخروج من التبعات والتوجع للعثرات واستدراك الفائتات .

والخروج من التبعات إنما يتم بالتوبة من الذنوب وقد حصلت شرائطها فى باب التوبة وكذلك الخروج بما عليه من حقوق للخلق برد المظالم والتوجع للعثرات . بأن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر لما كان رآه فى نفسه حتى يكون كأنه هو الذى عثر ويلتأم مع ذلك ويحث عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم . (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) وطبعا يكون بعيدا فى هذا الحال منه أن يشمت بأخيه .

ومعنى استدراك الفائتات : هو أن يستدرك التائب المنيب ما عسى أن يكون قد فاته من طاعة فيعزم على جبرها فى بقية عمره .

ثم قول الشيخ رضى الله عنه (وإنما يستقيم الرجوع إليه وفاء بثلاثة أشياء بالخلاص من لذة الذنب وبترك الاستهانة بأهل الغفلة . مع الرجاء لنفسك والاستقصاء فى رؤية علل الخدمة .

ومعناه بأن يتخلص من الآثار التى قد تظل فى نفسه من لذائذ الذنوب فانها موبقة وكما أنه لا يحسد أهلها وقد أناب فلا يستهين بهم تخوفا عليهم من أن يزيدوا فى طغيانهم . وقد صار رحيما بهم لما ذاق من لون شقائهم ، وليس هذا فقط بل لا يرى فى نفسه الرجاء فى عمله الصالح لأن الرجاء لا يكون إلا فى الله وليس فى العمل بل عليه وقد أناب استقصاء رؤية علل الخدمة فى حضرة الحق وعلل الخدمة كالاعتماد عليها أو الرياء فيها .

وهذا يكون عليه بمثابة العهد الذى أخذه الله تعالى عليه بانابته ورجوعه إليه . ولعل هذا هو السبب فى أن طريق الصوفية يؤسس على ثلاثة أشياء الأول : العهد الذى يأخذه عليه مبصر بسلوك الطريق إلى الله تعالى ويشترط فى الشيخ أن يكون قد سلك الطريق حتى يكون مؤهلا لأن يتولى أخذ عهد الله على المنيبين إليه .

والثانى : التوبة : التى تعتبر كحجر الأساس فى سلوك المريد .

والثالث : الإنابة : وهى كما قدمنا الرجوع إلى الله فى كل حال : طاعة أو معصية ، وصلاحا أو طلاحا لأن العبد كما بينا أحوج ما يكون للرجوع إلى الله فى حالة المعصية أكثر منه فى حالة الطاعة كما تقدم . لأن المطيع قريب من الله تعالى . وأن العاصى مارق من طاعته فهو أولى بالإنابة والرجوع إليه وليس هذا فقط بل يجب أن تستمر محاسبته لنفسه حال التوبة وحال الإنابة .

ثم يقول الشيخ رضى الله عنه . إنما يستقيم الرجوع إليه حالا

بثلاثة أشياء : بالأياس من عملك ، وبعاينة اضطرارك ، وبشيم برق لطفه بك .

أى بأن يكون حالك الطمع فى رحمته والأياس من عملك لأنه قد يكون مدخولا وأنت لا تدرى . وقد يكون كله أو بعضه مردودا وأنت لا تعلم . ولذلك قدمنا أن الرجاء لايكون إلا فى الله وليس فى العمل وليس هذا فقط بل يجب فى استقامة الحال مع الله أن ترى اضطرارك وافتقارك إلى الله فيه . وقد قدمنا أن الافتقار إلى الله والانكسار إلى حضرته هما الباب الواسع للدخول فى رحمته . والنتيجة أن التوبة والمحاسبة والإنابة هى أوائل المقامات فى السلوك إلى الله ودعائمها كما أن المقامات مؤهبة لنوال الأحوال كالشوق والأنس والحب الخ . وبما أن هذه المقامات اليقظة — والتوبة — والإنابة — هى دعائم مقامات الطريق إلى الله وبما أن الطريق إلى الله يوسم باسم علم التصوف وعلم التصوف هذا ينبنى على ثلاث دعائم . هى الشريعة — والطريقة — والحقيقة أو قل إن التصوف الحق الخالص الصافى مبنى على الإسلام والإيمان والإحسان . والإسلام والإيمان والإحسان مطلق أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم ماظهر منها تبيينيا للشريعة وما بطن منها تقريرا للحقيقة ولذلك عظم الله عز وجل فى كتابه هذا الخلق الكريم ووصفه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى فى كتابه الكريم (وإنك لعلى خلق عظيم) وماعظمه الله فهو فى الحق أدخل من أن يختص بالظواهر دون البواطن ولدينا قرائن منها : تبتله صلى الله عليه وسلم إلى الله فى غار حراء وقوله « إن لى وقتا مع الله لا يسعنى فيه . . إلى آخر الحديث) وثانيا — أن مادام للقرآن ظهر وبطن وحد ومطلع كما جاء فى حديث وما دام لرسول الله أقوال نعتمد عليها فى سنته وأفعال نقتدى بها فى جنس طاعته وأحوال من التقرب إلى الله والتبتل إليه وحبه ومخافته مثل قوله (صلى الله عليه وسلم) (أنا أقربكم من الله وأخوفكم منه)

فان مجموع الشريعة يؤخذ من باطنها وظاهرها وصراطها المستقيم . أن هناك وفيما تعبدنا الله به شريعة وطريقة وحقيقة . فالشريعة أن تعبده والطريقة أن نقصده . والحقيقة أن نشهد فضله فنحبه ونتقرب بأسرارنا وسائر وجهتنا إليه . وهذا كل ما فى التصوف الإسلامى الخالص وتلك الأركان التى بيناها وبينها حديث جبريل هى مضامين شريعة القرآن باطنا وظاهرا وأما حديث جبريل فهو الحديث الذى رواه عمر بن الخطاب الذى ذكر فيه الإسلام والإيمان والإحسان وعرف فيه الرسول صلى الله عليه وسلم (الإحسان) فى جوابه لجبريل : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) وبذا يكون الإحسان كله مركبا من جزأين اثنين أولهما أن تعبد الله كأنك تراه أى أن تعبده على الشهود كأنك تراه فإن لم تكن تراه أى إن لم تستطع ذلك فاعبده على شريطة التقوى عالما بأنه يراك . وهكذا كانت أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحواله ظاهره وباطنه تطبيقا لقول الله تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) . واجمع المفسرون على أن الآية نزلت فى أهل الصفة كأختها من الآى التى قال فيها (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين) وهى أيضا فى حقهم والذين قال الله تعالى فيهم وفى أمثالهم من الأتقياء الخلصاء أيضا (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما وإذا مروا باللغو مروا كراما) .

وما دام الله عز وجل يقول فى كتابه أيضا (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) .

وما دام أن النظر فى خلق السموات والأرض والاكثار من ذكر الله عز وجل وارتياد موارد التقوى والتبتل إلى الله بحسن الطاعة واجتناب موارد المعصية على شريطة أن يكون ذلك . إما من طريق التقوى بالمراقبة أو من طريق الشهود بالقرب إلى الله وما دامت كل هذه الخلال من صلب التصوف الإسلامى وأصوله المجملة بفروعه فلابدع إذن أن يكون التصوف هذا روح الدين . والدين فى معناه الصحيح لايخرج عن معتقد سليم وطاعة باخلاص وتعامل بإحسان وما دامت هذه الخصائص نفسها هى شرائط التصوف . وما دام طريق الصوفى لا يخرج عن خوف الله وطمع فى رحمته وتقرب إليه فان الصوفى فقيه فى الصلب مذ كان الفقه فى الدين هو الفهم والبصر فيه وما دام هذا الفقه هو أساس علمه وعمله فقد قال الإمام مالك رضى الله عنه فى وصف الفرق بين حال القوم وحال غيرهم « من تشرع ولم يتصوف فقد تفسق ومن تصوف ولم يتشرع فقد تزندق ومن تشرع ثم تصوف فقد تحقق » ويؤخذ من هذه الأقوال جميعها معنى الشريعة ومعنى الطريقة ومعنى الحقيقة وكلها شريعة رسول الله المستمدة من كتاب الله الذى أنزل إليه وقد طبقها رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه بالقول والعمل والحال لذلك كله قد وصفه الله تعالى بقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) .

ومذ كانت الأعمال فى شريعة الإسلام تقوم على النية التى تدعمها وتؤثلها والنيات من شأنها أن تكون من الأحوال القلبية والمشاعر الذاتية ولما كان التصوف فى منهجه الأساسى يقوم على تلك المشاعر الباطنية يكون للشريعة الإسلامية وهى الأقوال والأفعال والأحوال بالضرورة ظاهر من الأعمال وباطن من السرائر والمقاصد .

ويقول سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه : التصوف تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبيه أى تدريبها على عبادة الله

باخلاص وردها فى اختيارها لتقبل أحكام الربوبية دون تدبير من نفسها لنفسها (والإسلام) الذى جاءنا به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند الله يتضمن بعد الشهادتين العمل الظاهر بالجوارح ثم (الإيمان) ويتضمن الإيمان حسن المعتقد القلبي ثم (الإحسان) والإحسان تمثله الإرادة ويدعو إليه الإخلاص وذلك هو لب التصوف ويقول العز بن عبد السلام فى مثل هذا المقام (ليست الحقيقة بخارجة عن الشريعة بل الحقيقة طافحة باخلاص القلوب والمعارف والأحوال والعزوم والنيات فمعرفة أحكام الظاهر معرفة بجليل الشرع ومعرفة أحكام البواطن معرفة لدقيق الشرع ولا ينكر شيئاً منها إلا كافر أو فاجر وقد يتشبه بالقوم من ليس منهم .

وقيل إن التصوف هو أن يميتك الحق عنه ويحييك به وقيل التصوف ذكر مع اجتماع ووجد مع سماع وعمل مع اتباع وواضع التصوف الأول هو رسول الله ﷺ وتبعه فيه أصحابه من الصحابة وبعدهم التابعين لأنه الإحسان الذى جاء فى الحديث وقد تبعه فيه على بن أبى طالب رضى الله عنه فتكلم فيه وأخذه عنه الحسن البصرى فحبيب العجمى فداود الطائى فمعروف الكرخى فالسرى السقطى ثم أبو القاسم الجنيد وانتشر التصوف بعد ذلك من عصر الجنيد إلى وقتنا الحاضر ويقول الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى هذا المعنى (اعلم أن التصوف عبارة عن علم انقدح فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة أفئدتهم فانقدح لهم من ذلك علوم وأسرار وحقائق قد تعجز الألسن عن التعبير عنها) . فالتصوف إذن هو زبدة العمل بأحكام الشريعة والانتباه إلى خلو ذلك العمل من حظوظ النفس . وقد أجمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر فى طريق الله عز وجل إلا من تبحر فى علم الشريعة منظومها ومفهومها وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها وتبحر فى لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها وإجمالا فكل صوفى فقيه . ولا عكس ويقول سهل التستورى أن أصولنا ستة : التمسك بكتاب الله

والاقتداء بسنة رسول الله وأكل الحلال وكف الأذى واجتناب الآثام وأداء الحقوق وقيل لأحمد بن حنبل رضى الله عنه أن الحارث المحاسبي يتكلم فى علوم الصوفيةويدلل لها بالآىوالحديث فهل لكأن تسمع كلامه من حيث لا يشعر فقال نعم وحضره ليلة ولم ينكر من أحواله ولا من أحوال أصحابه شيئاً ، ولما قيل له فى ذلك قال لأنتى رأيتهم لما أذن المغرب تقدم فصلى ثم حضر الطعام فجعل يحدث أصحابهوهو يأكل . وهذا منالسنة فلما فرغوا من الطعام وغسلوا أيديهم جلس وجلس أصحابه بين يديه وقال من أراد منكم أن يسأل عن شيءفليسأل فسألوه عنالرياء والإخلاصوعن مسائل كثيرة فأجاب عنها مستشهداً بالآى والحديث فلما مرجانب منالليل أمر الحارث قارئا فقرأ فبكوا وانتحبوا ثم سكت القارىء فدعا الحارث بدعوات خفاف ثم قام إلىالصلاة وقالالإمام أحمد كنتأسمع عن الصوفية خلاف هذا فاستغفر الله العظيم وأنشد أحدهم فى وصفهم شعرا :

هينون لينون إيسار بنى يسر ... سواس مكرمة أبنـــاء إيشار

لا ينطقون عن الفحشاء إن نطقوا ... ولا يمارون أن مروا باكثار

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم ... مثل النجومالتى يسرى بها السارى

فالطريق إلى الله طريق حب وإيثار وطاعة لأمره وموافقة لحكمه ولنا فى وصف الصوفى كلام من لم يتصف به فليس من التصوف فى شيء فالصوفى أولا مخلوق له ذوقعظيم ووجدان يهدف إلى حب الله وإيمانمتين فهو دائم الفكر كثير الذكر دائب العبرة غزير الحلم محب للعلمكاره للجدل قليل المنازعة سهل المراجعة همته فى البحث عن الحق ولو ظهر على لسان غيره من الخلق وهو وراء ذلك من أوسع الناس صدرا وأقبلهم لهم عذرا وألينهم للحق قيادا وأصعبهم على الباطل مراسا وأعزهم نفسا وأعظمهم شخصا وأكثرهم ودا وأبعدهم فى العقل غورا وأثقلهم هما وأدومهم صبرا وأوفاهم عهدا وأكثرهم أدبا ولطفا .

إذا ضحك تبسم وإذا غضب لم يتجهم وإذا عادى فهو رءوف بمن يعاديه ووصول لمن يواليه لا يخوض قط فيما لا يعنيه ولا يدعى أبدا ما ليس فيه ورع عن الشبهات ومبغض للمحرمات وحافظ للأوقات كثير عطاه قليل أذاه مكرم للغريب وراحم لليتيم سلس المقادة سهل العريكة إلا فى حق ينشره أو ينصره وباطل يدفعه أو مارق عن الصواب يرده، بشره دائم وخوفه من الله قائم عفيف المكسبة صادق المقصد راغب فى الخيرات بعيد عن الغيرات (فان لم تكن يا هذا منهم فتشبه بهم ودرب نفسك على أخلاقهم تنل بركه حبهم ولا تعترض عليهم لأنهم :

عبيد ولكن الملوك عبيدهم وعبدهم أضحى له الكون خاويا

وأولئك قسم الفرقة الناجية فى حديث الثلاث وسبعين فرقة وقد تحقق الحديث فى القوم بعد موت الرسول وكثير من الصحابة حيث قامت الفتنة على أثر موت عثمان وانقسم الناس حينذاك إلى فرق وأحزاب سياسية وغير سياسية وكان المستمسكون بحبل الله حينئذ يعون وعيا قلبيا قول الله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم) . فاعتصموا بالله واعتزموا ألا يدخلوا فى أمثال تلك الفتن ولم ينتسبوا إلى فرقة من الفرق أو حزب من الأحزاب تمسكا بالعروة الوثقى وهى طريق الله فكان منهم وحدهم حزب الله . وكانوا من الغالبين وطبعا كانوا من أولياء الله بموجب أحوالهم وهم أولياء الله الذين قال الله فيهم (إلا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) وفيهم نزل قول الله تعالى «الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور» وفسر المفسرون معنى أولياء الله بأنهم الذين يتولون الله بطاعتهم له فيتولاهم بكراماته ورعايته لهم والقرآن ملىء بمثل هذه الآيات الدالة على أن لله فى الأرض أولياء وهم الذين استثناهم الله من عموم خلقه مخاطبا للشيطان «أن عبادى ليس لك عليهم سلطان» ويخاطبه الشيطان قائلا :

«إلا عبادك منهم المخلصين» بفتح اللام أى الذين أخلصتهم لحضرتك بخالصة التقوى وفى السنة عن أبى مالك الأشعرى عن رسول الله قال : (يا أيها الناس اسمعــوا وأعقلوا وأعلموا أن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء على قربهم من الله فجثا رجل من عامتهم قائلا : يا رسول الله يغبطهم الأنبياء والشهداء . . فسر النبى بسؤال الرجل وقال هم ناس من أفناء الناس . ونوازع القبائل لم تصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا فى الله وتصافوا أى فى أنفسهم لله ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور لا يفزعون إن فزع الناس يوم القيامة وهم أولياء الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون أخرجه الامام أحمد) .

وفيهم حديث إلى أبى هريرة عن النبى الذى يقول فيه قال الله تعالى : (من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ولا أبالى وما تقرب إلى عبدى بمثل ما افترضت عليه) الخ الحديث .

وقدمنا أن أهل التصوف يرجعون فى نسبتهم إلى أحوال رسول الله وأخلاقه وأعماله وأخذا عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه واقتداء بأهل الصفة الذين كانوا عاكفين فى مسجد رسول الله على عبادة الله ومرابطين للجهاد فى سبيل الله وقد وصف تلك النسبة نسبة القوم لأهل الصفة الشيخ الفقيه الصوفى ابن البنا السرقسطى فى أرجوزته المشهورة المسماة المباحث الإصلية حيث قال :

فقادة الصوفى أهــل الصفة ... فى زمن الرسول فاعلم وصفه
وهم ضيوف الله والإسلام ... وجلســاء ســيد الأنام
كانوا على التجريد عاملين ... وعن سوى الرحمن معرضين
تخلقوا بخلق النـــبى ... يدعون بالغداة والعشى
قد فهموا مقتضيات الشرع ... فصيروا الفرق لعين الجمع
قد خرجوا لله مما اكتسبوا ... فعل صوفى اليهم ينسب

وسواء نسب الناس التصوف إلى لبس الصوف أو إلى الصفاء أو إلى أهل الصفة فهم حقيقة من لابسى الصوف ومن أهل الصفاء ومن تابعى أهل الصفة ويربط الصفة ويربط القوم بالله وبالإسلام وبالإيمان طهارة الباطن والظاهر ثم عبادة الله يقصد العبودة لأن العبودية لله عامة والعبودة لله خاصة .

هذا والتصوف الحق حال ناشىء عن علم مشمول بعمل ومدعم باحسان ويقين مبصر ، وهو ثمرة لتقى خالص يؤتاه أفراد لهم استعداد سام وإحساس مرهف ، ولهم وراء الإحساس عقل راجح . ومن وراء العقل والإحساس بصيرة نفاذة وعزم قوى وإيمان متين وهداية موهوبة وإلهام لدنى .

وقلنا فى بعض التعاريف : إن الصوفية هم القوم المجتمعة على الله هممهم المتعلقة بعظمة أفكارهم وبسمو حكمة الباهم ، وهم الذين لا تشهد سوى الله سرائرهم وقلوبهم وليس إلا إليه غدوهم ورواحهم ، فهم أحكم الناس وأعقلهم ، وأقرب الخلق إلى الحق وأعلمهم بهدى ربهم وسنة نبيهم .

أولئك هم الصوفية فإن كنت جاهلا بهم فأعرفهم .

ومن العلم بسلوك الطريق وآدابه ومقاماته وأحواله فتح الله علينا بقصيدة فى السلوك اسمها الوجدانية وإليكها .

وجدت هواكم قائدى منذ نشأتى ... فغبت عن الأكوان إذ كنت وجهتى
وهمت بكم والحب فكم مصاحبى ... مدى العمر والأشواق كانت مطيتى
منى القلب لم يخطر سواكم بخاطرى ... ومذ كنت طفلا كان حبك قدوتى
وإن حن طير نحو وكر وجدتنى ... أنوح اشتياقا كلما الريح هبت
فيذكركم قلبى وما بحت باسمكم ... لغير فؤادى أو لغير سريرتى
إذا جن فى ليلى أحن لضيفكم ... وأجعل ذكراكم على البعد سلوتى
وما طمحت فى الحب نفسى لغيركم ... وما غير ذاتى قرب ذاتى أحبت

وإنى من القوم الذين تتيموا ... غراما وعهدى فى الهوى قبل خلقتى
وفى القلب نيران وفى العين وحشة ... من الخلق والأسقام دوما قرينتى
ومذ كنت أصلى كان حبك مذهبي ... وما غير جسمى كان سجنا لفرقتى
وما الجسم إلا ظل رمز تكون ... من الغير والأغيار ثوب الحقيقة
وما الجسم إلا مظهر لصفاتكم ... تكون من طين لحمل الأمانة
ولكنه للابتلاء رهينة ... وفى عالم الأجسام عاينت محنتى
فحينا بحكم الروح أطمح للعلا ... وتهبط بى حينا كثافة طينتى
وطورا أرانى حاضرا غير غائب ... وطورا أرانى فى غياهب غفلتى
فما يصنع العانى أسير جمالكم ... وشرط الهوى فيكم فناء الإرادة
وما حيلتى والعجز غاية قوتى ... وأمرى جميعا تحت حكم المشيئة
فخلصنى من أسر الطبيعة وأهدنى ... بنورك يا الله واوصل قطيعتى
وأنعم بتطهير الفؤاد من الهوى ... وجد لى بتوفيق ومن بأوبة
لئن كان جسمى من جنابك قاطعى ... فروحى نور من جمالك مدت
وفى القرب روح الروح حقا وفى اللقا ... حياة لنفس فى الغرام اطمأنت
وفى البعد لوعات وفى القرب رحمة ... وفى الوصل راحات إذ الحب ملتى
ويا حادى الأظعان رفقا بمدنف ... يرى روحه للحب دعيت فلبت
وما بغيتى فى القرب غير وصالها ... فيا ضيعة السارى إذا هى ضنت
ويا سائرا فى حمى ليلى وقاصداً ... حماها استقم وأحذر سهام التلفت
ولا تحسبن الخطب سهلا مناله ... فكم همم للقرب همت فصدت
ومن غير جد لن يراها أخو هوى ... ومن لم يمت لم يحظ منها بنظرة
فدع عنك أوهام الغرام فإنها ... إذا خطرت رقتك فوق المجرة
خواطر نفس ترتقى بك للمنى ... وأنت تعبد فى الهوى ذو زمانة
وسلنى فعمرى فى الغرام قضيته ... وكم من أسى فى الحب أدمى حشاشتى
وإنى بليلى قد منيت وساقنى ... غرامى لذلى بين أهلى وعزتى
وكم من طريق للحمى قد سلكتها ... وحملت فيها غصة بعد غصة

وقاسيت ما قاسيت من ألم الجوى وكرعت من كأس الهوى كل مرة
فلما قرعت الباب قصد لقائها خلعت لها جاهي وعلمي ودعوتي
وحققت وصفي وهو ذلى لعزها وعاديت فيها حظ نفسي وعادتي
وجئت إليها خاضعا متضرعا منيبا لها كيما تكون مجيبتي
وعفرت خدى في التراب تذللا فكان فلاحي في افتقاري وفاقتي
فألقيت عزى في امتثالي لأمرها وترك مرادي في مراد الأحبة
ولما رأت ذلي وعجزى ولوعتي تجلت إلى قلبي بمكنون حكمة
وقربني الساقي لحان شرابها فكان بها صحوى بسكرى ونشوتي
ولما بدت من طور ليلاى نارها رأيت بها منها إليها هدايتي
وصارت تناجيني بحلو خطابها فشاهدتها لكن بعين بصيرتي
وعاينت أسراراً تسامت بذاتها وإني أرى شرحي لها فوق طاقتي
فإني إذا ما بحت يوما بسرها لقيت حسامي بعد تزيق مهجتي
ولست على سر أمينا إذن ولا حظيت بقرب عند أهل مودتي
وأنت كذا إن رمت قرب ديارها تجرد لها عن وصف نفس خئونة
وسر في هواها هائما بجمالها وطلق سواها واعتصم بالشريعة
وهاجر إليها من حظوظك قاطعا علائق طبع مؤثرا فضل عفة
وواظب وثابر واعتكف لمرادها وافقه آداب الحب وأخضع لخدمة
وقابل جفا المحبوب بالصبر واتئد لعل الرضا منك قريب فتثبت
فكم واصلت في الحب من متجرد ذا رمت فؤاد العاشق المتعنت
وكم نفحة تأتي بغير تكلف وكم منحة تأتيك في طي محنة
فقلبك طهر وامتثل لأوامر وعمر لأوقات بذكر ويقظة
وصبر وتسليم وورد ملازم وأمر بمعروف وحفظ لحرمة
وصحبة شيخ وهي أصل طريقهم فما نبتت أرض بغير فلاحة
وما سلمت في الحي شاة شريدة ومن غير راع ما استقامت رعية
وحاذر تعارض في الأمور جميعها وسلم إلى المولى أمورك واصمت

ونفسك فاعرفها ولا تك جاهلا
بها فهى كنز بين جنبيك ضمت

ألم تر ضرب الله أمثال نوره
لدى القلب بالمصباح ضمن زجاجة

فقلبك كالمصباح والنفس زينة
وجسمك مشكاة وفيك الإضاءة

وذاتك مرآة وفكرك ضوؤها
وسرك عين والحقيقة صورة

فجاهد ترى تفصيل ما قلت واضحا
فما ضاع عند الله مثقال ذرة

وكن كاتما للسر عن غير أهله
ولا تفشه إلا لأهل البصيرة

إليك وصايا فى السلوك زففتها
عرائس نصح قلتها عن روية

أراها صراط للجناب محقق
على نهج أقوام حظوا بالكرامة

فان كنت أهلا للحمى صرت فى الحمى
وإلا فلا وصل لأهل القطيعة

وهبتك نصحى فانتفع تك عارفا
وقد ختمت باسم الإله قصيدتى

فخذها إليك مصونة مجلوة
سبعين بيتا قلتها لا زيادة

صلاة من الرحمن ربى وخالقى
على مظهر الأسرار خير الخليقة

مع الآل والأصحاب ما قال قائل
وجدت هواكم قائدى منذ نشأتى

هذا واعلم : أن التصوف مبنى على العلم ثم العمل ثم اليقين ثم الحال فمصدره الكتاب والسنة والاقتداء بخيار هذه الأمة ولا يكون الصوفى صوفيا حقا حتى يعلم أصول الشرع كتابا وسنة ولا يكون عارفا حتى يعمل بعلمه ولا يكون قريبا من الله حتى يصبح ذا حال إيمانى وخلق سنى ويقين قطعى فالعالم بالشرع والفقيه فى كتاب الله استمد علمه من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم فهو مقلد له فى أقواله والعابد قلد الرسول فى أعماله والصوفى اقتدى به صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله فهو عالم بالله وبشرعه من جهة وعامل بمقتضيات ذلك الشرع من جهة اخرى ثم زاد على العالم والعابد بيقينه وإخلاصه لله تعالى وحبه وعرفانه والتقرب إليه وبهذه المثابة يكون التصوف روح الدين لأنه مستمد من كتاب الله وسنة رسوله فمن ادعى التصوف دون علم وعمل فهو مخدوع مغبون ومثله فى

هذا يكون كمثل الدرهم الزائف بجانب الدرهم الصحيح فهو غير مرغوب فيه أينما يمم ومردود حيثما اتجه وأن تزيا بزى الصالحين وعباد الله المخلصين .

هذا وأما من جهة معتقد أهل التصوف فى الله فهم يعتقدون إجمالا أنه تعالى واحد فى ذاته لاشريك له فرد لا مثيل له صمد لا ضد له منفرد لا ند له قديم لا أول له أزلى لا بداية له مستمر الوجود لا آخر له فهو أبدى لا نهاية له وقيوم بلا انقطاع ودائم بلا انعدام لم يزل ولا يزال موصوفا بنعوت الكمال منزها عن الحلول والاتحاد والاتصال والانفصال لا جسم له ولا تشبهه الأجسام ولا يشبهه ابدا موجود من الموجودات ولا يماثله معبود من المعبودات ليس كمثله شىء ولا هو مثل شىء لا يحده المقدار ولا تحتويه الأقطار ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون والسموات لا تتصوره الأوهام ولا تقدره الأذهان ولا تصل إلى كنهه الأفهام ، عليم بذات الصدور . وبيده مقاليد الأمور لا مؤخر لما قدم ولا مقدم لما أخر ولا معقب لحكمه ولا راد لأمره وكل الخليقة مفتقرة إليه وهو الذى يجير ولا يجار عليه لا شريك له فى تدبير ملكه ولا معين ولا وزير ولا ظهير ولا ند ولا ضد ، عادل فى حكمه وقضائه ، محسن متفضل فى وجوده وعطائه حليم لا يعجل وجواد لا يبخل وحفيظ لا ينسى ويقظان لا يغفل فهو الذى أضحك وأبكى وأسعد وأشقى وأفقر وأغنى وله سبحانه وتعالى الآخرة والأولى

وليس بكاف أن ترى انكسارك إلى الله ، وهو الأمر الذى تنمو به أعمالك وتربو ، بل يجب مع ذلك شيم برق لطفه بك أى ملاحظة عنايته بك فى جميع تقلباتك وأصل الشيم لحظ البرق بالطرف وهنا لحظ اللطف بعين البصيرة

ويستخلص من هذا كله أن المطلوب من العبد أن يكون فى طاعته بل وفى سائر أحواله بين انكسار إلى الله ، وعدم رؤية أعماله وقيمتها وأن

يستشعر رحمة الله ولطفه وعنايته فيها فيشكره على أن هداه لضروب الإيمان والإحسان والإنابة له.. ذلك الأمر الذى يستوجب الرعاية من الله.

وقد وصف أحد الصوفية أخلاق أهل التصوف مصوغة من حروف كلمة (صوفى) فقال :

فصوفى حروف أربع وإشارة — تحقق بها تحظى بكل فضيلة
(١) فصاد لصبر، ثم صدق كذا الصفا — عن الرين والأغيار فى كل لحظة
(٢) وواو لوجد ثم ود كذا الوفا — بكل حقوق فى طريق الشريعة
(٣) وفاء لفقد ثم فقر كذا الفنا — وتصبح حقا فى بحار الحقيقة
(٤) وعند كمال فى تخلقه بها — فيأتيه حرف الياء[1] بتحقيق نسبة

باب التفكر

قال الشيخ رضى الله عنه مبتدأ بقول الله عز وجل (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) : اعلم أن التفكر تلمس البصيرة لاستدراك البغية وهو على ثلاثة أنواع : فكرة فى عين التوحيد، وفكرة فى لطائف الصنع، وفكرة فى معانى الأعمال والأحوال . فأما الفكرة فى عين التوحيد فهى اقتحام بحر الجحود ولا ينجى منه الاعتصام بضياء الكشف والتمسك بالعلم الظاهر . . . وأما التفكر فى لطائف الصنع فهو ما يسقى زرع الحكمة وأما الفكرة فى معانى الأعمال والأحوال فهى تسهل سلوك طريق الحقيقة ، وإنما يتخلص من الفكرة فى عين التوحيد بمعرفة عجز العقل وبالأياس من الوقوف على الغاية وبالاعتصام بحبل التعظيم . وإنما تدرك لطائف الصنع بثلاثة أشياء . بحسن النظر فى مبادى المنن والإجابة لدواعى الإشارات وبالخلاص من رق إتيان الشهوات وإنما يوقف بالفكرة على مراتب الأعمال والأحوال بثلاثة أشياء

---

(١) والياء هنا : ياء النسبة .

باستصحاب العلم ، وأتهام الرسوم وبمعرفة مواقع الغير .

وقد عرف الشيخ رضى الله عنه التفكر بتلمس البصيرة لاستدراك البغية .

ومعلوم أن لسالك طريق الله غاية لابد من الوصول إليها واقتحام العقبات دونها فالتفكر فى خلق السموات والأرض وفى النفس وفى ألطاف الله بعباده المخلصين ورعايته لهم وعنايته بهم . التفكر فى كل ذلك يبعث السالك ويعينه ويشجعه فى سلوك الطريق إلى الغاية وهى وجه الله عز وجل .

ثم قال رضى الله عنه وذلك يتم بثلاثة أنواع : فكرة فى عين التوحيد وفكرة فى لطائف الصنع وفكرة فى معانى الأعمال والأحوال . فأما الفكرة فى عين التوحيد فهى اقتحام بحر الجحود ولا ينجى منه إلا الاعتصام بضياء الكشف والتمسك بظاهر العلم .

أما قوله الفكرة فى عين التوحيد فهى الأمر الذى لا ينبغى لمسلم آمن بالله واليوم الآخر أن يحوم حوله وذلك منصوص عليه فى قوله تعالى : (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) . أول سورة البقرة .

ومعنى الفكرة فى عين التوحيد لأن التفكر فى الذات الإلهى والبحث فى سر الذات ممتنع . وأما التفكر فيما صنع الله وهو المباح بل المطلوب التفكر فى صنع الله لا فى ذاته والفكرة الصحيحة فى التوحيد تكون فى استحضار أدلته وشواهد الدلالات عليه وأما الفكرة فى عين الذات . وهذا ما قد يذهب إليه الذهن فهى الفكرة فى ذات الحق وهو الأمر

المتنع دينا وفى مثل هذا يقول الصديق الأعظم أبوبكر رضى الله عنه :

العجز عن درك الإدراك إدراك

والبحث عن سر ذات السر إشراك

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

(تفكروا فى أعمال الله ولا تتفكروا فى ذات الله فتهلكوا) .

ويكون الأمر كما يقول صاحب منازل السائرين رضى الله عنه أن الفكرة فى عين التوحيد اقتحام لبحر الجحود أى الفكرة فى عين ذات الحق الموجود المطلق الذى لا يحيط به شيء ولا يشبهه شيء فذلك يكون بعدا عن مقتضيات الإسلام والإيمان .

وأما التفكر فى الخلق والإبداع وفى عناية الله بخلقه حين تصفحه للوجود يريه إيجاده للوجود على قوانين منظمة ومواقيت موقته وغايات ميسرة وذلك هو المطلوب .

والعارف لا يشهد سوى وجود الحق وجودا دون تكييف أو تمثيل وتشبيه أو حلول أو اتحاد وذلك التوحيد الإسلامى الصريح .

وأهل الله على التحقيق ماخرجوا عن هذا فى توحيدهم اتباعا لما شرعه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من حدود الإيمان . والفناء المشهور عند أهل الله هو الفناء عن وجود السوى والمشهور من شهودهم للحق هو وحدة الشهود وليس وحدة الوجود لقوله تعالى (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) .

هو الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء والظاهر بفعله وإبداعه فى ظهور كل شيء والباطن الذى بطن بذاته وفى غيبه عن أن يراه شيء . أو يدركه شيء وفقط كان تجليه أظهر تجل وأبدع ظهور فى الإنسان فالله حق والإنسان مظهر بتجليات ذلك الحق ، وإن كان تجليه فى سائر الكائنات

غامر ، وأنت تعلم أن الضوء الوارد على القمر مجرد مظهر لنور الشمس ونور الشمس مظهر لها ، والشمس ونورها وضوؤها حتى ظلها مجرد مظاهر لوجود خالقها ومبدعها .

وذلك هو شهود القوم للحق ، حيث يشهدون فعله السارى الذى يظهر فى كل حادث من خلقه وذلك هو وحدة الشهود وهو الحق ووحدة الشهود غير وحدة الوجود طبعا ، لأن وحدة الوجود تقتضى أن يكون الحق والخلق شيئا واحدا . وأما وحدة الشهود فتقضى بأن يشهدوا أفعال الحق سارية فى الخلق مع إثبات القدم والبقاء لذاته والحدوث ، فالقدم والبقاء للوجود الأعلى القديم الباقى ، والحدوث والفناء للممكن الحادث القائم بأفعال الموجود الواجب الوجود وهو الله عز وجل . وقد تكلمنا هنا بإيجاز حيث يقتضيه المقام ، وسنتكلم بأكثر توسعا وبسطه فى مقام آخر حيث يقتضى الحال ذلك .

وقد يبتلى برؤية وحدة الوجود أهل الشطح فى القول الذى يدعونه سكرا وقد يعذر مثل أولئك فى ذلك الوارد إن كانوا مغلوبا على أمرهم حيث يحكم عليهم بعدم التمييز لسكرهم وشطحهم .

وهذا الحال قد يعرض لبعض السالكين أو بعض الواصلين الذين لم يحظوا بتمام الكمال والتمكين كأبى يزيدالبسطامى والحلاج وأمثالهما ،وإلا فان كبار العارفين من الصحابة رضوان الله عليهم لم يكن منهم من تفوه بذلك أو ارتآه مع قوة أبحاثهم ، وكمال عرفانهم . ولم يكن هذا من أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أكمل الناس أحوالا حتى أنه لما عرج به وعاين مما أراه الله إياه من آياته الكبرى ماعاين لم يعرض له مثل هذا الحال ، وقد وصف حاله هذا الله عز وجل بقوله (مازاغ البصر وما طغى) .

وأما التفكر فى لطائف الصنع فهو ماء يسقى زرق الحكمة — وهو ماقدمناه من التفكر فى صنع الله وفى ألطافه بخلقه وما فى السموات والأرضين ومافى النفس من حكمة وإبداع المبين — وأما الفكرة فى معانى الأعمال والأحوال — فهى تسهل سلوك طريق الحقيقة — بما تورثه من علم وعمل وأدب — ثم قال وإنما يتخلص من الفكرة فى عين التوحيد بثلاثة أشياء : بمعرفة عجز العقل وبالأياس من الوقوف على الغاية والاعتصام بحبل التعظيم .

فأما قوله — بعجز العقل — يشير إلى أن العقل مخلوق محدود بطبيعته المخلوقة فلا يمكنه الوصول إلى إدراك حقيقة خالقه ومبدعه كيف لا وهو يعجز عن إدراك كنه نفسه فهو يعقل ولا يعقل كيف يعقل ويدرك ولا يعرف الطريقة التى بها يدرك . ولذلك قال الشيخ رضى الله عنه : —

بالأياس من الوقوف على الغاية أى بمجرد العقل — لأن وراء الإدراكين العقلى والحسى فى طريق المعرفة مجالا واسعا لشهود تلك الحقيقة بالإلهام دون الخوض فى عين الذات ، ولذا يجب الاعتصام بحبل التعظيم عملا بقول الله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب) .

قال الشيخ رضى الله عنه — وإنما تدرك لطائف الصنع بثلاثة أشياء — بحسن النظر فى مبادى المنن والإجابة لدواعى الإشارات وبالخلاص من رق إتيان الشهوات .

ومعنى هذا أن لطائف المنن الإلهية تدرك إدراكا قلبيا بفيض هذه المنن ، وبالانتباه الكامل لما يرد على القلب من إشارات للهداية والمعرفة ، وذلك لايتم إلا بالخلاص من رق الشهوات التى تشغل القلب وتكدر صفو النظرة إلى الحقائق الإلهية ، وذلك لا يتم كما يقول الشيخ رضى الله عنه إلا بعرفان مراتب الأعمال والأحوال وذلك يتم باصطحاب العلم

واتهام المرسومات أى المقدرات الفعلية والتخمينات الذهنية التى تعطى المرء معرفة صحيحة مضافا إلى ذلك معرفة مواقع الغير أى كل أمر يغير الأحوال ويصرف الاستقامة ويغشى عين البصيرة .

وأنشدوا :

كن على مولاك معتمدا واطرح الأغيار كلهم
أوجد الأشياء من عدم وله فى خلقه حكم
صنعة الرحمن شاهدة وبها التوحيد منحتم
من كمال الله قدرته والبقاء والعلم والكرم
كل ما يجرى فعن قدر برسوم خطها القلم
جد على العاصى بمغفرة منك يامن شأنه الكرم
إن أوزارى ولو عظمت فى بحار العفو تنهزم
حسن ظنى فيك حدثنى أن بحر العفو ملتطم

باب التذكر

قال الله عز وجل « وما يتذكر إلا من ينيب »

يقول الشيخ رضى الله عنه بعد ذكر تلك الآية : التذكر فوق التفكر . فان التفكر طلب والتذكر وجود . وأبنية التذكر ثلاثة أشياء : الانتفاع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء : بشدة الافتقار وبالعمى عن عيب الواعظ وبتذكر الوعد والوعيد وإنما تستبصر العبرة بثلاثة أشياء . بقصر الأمـــل والتأمل فى القرآن . وقلة الخلطة والتمنى والتعلق والشبع والمنام .

ومعنى قول الشيخ رضى الله عنه :

إن التفكر طلب والتذكر وجود ذلك لأن التذكر يأتى بعد التفكر فهو أعمق منه غورا وأكثر تحصيلا من حيث أن التذكر لا يتم إلا بمضامين التفكر بعد الإدمان والإمعان وذلك ما يؤدى حتما إلى الانتفاع بالعظة والاستبصار أى استعمال البصيرة أى وجود العبرة . وهذا وذاك يترتب عليه الظفر بثمرة الفكرة — ولذلك قال — إنما ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء : بشدة الافتقار إليها وبغض الطرف عن البحث فى عيوب الواعظ الذى أدلى بالموعظة — فلو بحث الموعوظ فى عيب الواعظ لما اتعظ بما يقول ، فالأفضل فى مثل هذه الحالة ، حسن الظن . والواعظ وراءه بعد ذلك من سيحاسبه وهو يعلم سره وجهره ألا وهو الله عز وجل وليس هذا فقط وانما العظة لا تتم إلا بتذكر الوعد والوعيد وعرفان مواقعهما والفرق بينهما . وكما يقول الشيخ رضى الله عنه : — تستبصر العبرة بثلاثة أشياء ، بحياة العقل ومعرفة الأيام والسلامة من الأغراض وتجنى الثمرة الفكرة بقصر الأمل والتأمل فى القرآن وقلة الخلطة والتمنى والتعلق والشبع والمنام .

ومعنى حياة العقل إدمان التفكر فى سعة فضل الله وفى ضعف النفس وأما قوله : معرفة الأيام أى معرفة الزيادة والنقصان فيها ، وذلك يؤدى إلى السلامة من الأغراض والنجاة من البوائق ، وكما يقول الشيخ رضى الله عنه وتجتنى ثمرة الفكرة بقصر الأمل . لأن طول الأمل من عمى البصيرة ، وقلة التفكر ، والتأمل فى القرآن يؤديان إلى ايثار الآجلة على العاجلة .

أيا من بالوفا قد عودونى ... بحق جمالكم لا تهجرونى
بعزكم وذلى فى هواكم ... عدونى بالوصال وما طلونى
ورقوا وأجبروا بالقرب كسرى ... وعن أبوابكم لا تحجبونى
أسرتم فى محبتكم فؤادى ... وبالحسن البديع ملكتمونى
سكنتم فى سويدا القلب منى ... وأطلقتم دموعى من جفونى
أباح الدمع من وجدى بسرى ... ولم أقنع بما أعطيتمونى
وقفت بباب عزكم ذليلا ... أنادى يالقومى فانجدونى

وهذا يحفز على التمسك بأسباب الإيمان لكى لا يضيع أمره وليس هذا فقط وإنما رأى الشيخ رضى الله عنه أن الخلطة أى اختلاط السالك بغير أهل مشربه مفسد للوقت ، وضار بالحال ، وكذلك التمنى أى تشييد الأمانى لمن لا يعلم متى يجىء الأجل وكذلك التعلق بحب الدنيا والتشبث بأسبابها المغرية ومنها الشبع وملء البطن وكثرة المنام .

باب الاعتصام

قال الله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا) وهذا واضح

ثم قال الشيخ رضى الله عنه — الاعتصام بحبل الله تعالى هو المحافظة على طاعته مراقبا لأمره ، والاعتصام بالله هو الترقى عن كل موهوم والتخلص من كل تردد والاعتصام على ثلاث درجات : —

اعتصام العامة بالخبر استسلاما وإذعانا وبتصديق الوعد والوعيد . وتعظيم الأمر والنهى ، وتأسيس المعاملة على اليقين والإنصاف وهو الاعتصام بحبل الله تعالى . واعتصام الخاصة بالانقطاع وهو صون الإرادة خفضا وأسبال الخلق على الخلق بسطا . ورفض العلائق عزما . وهو التمسك بالعروة الوثقى ، واعتصام خاصة الخاصة بالاتصال وهو شهود الحق تفريدا بعد الاستحذاء له تعظيما ، والاشتغال بالحق قربا وهو الاعتصام بالله .

والاعتصام بالله معناه : الاعتصام بحبله ، والتوكل عليه ، فإن السالك لطريق الله تعالى لابد له من الاعتصام به ، وهو نفس الثقة به والتوكل عليه وأما الاعتصام بحبله ، فهو الاعتصام بشرعه ، وذلك موجب للهداية ، وللقوة فى سبيل الخير ولذا قال الشيخ رضى الله عنه . هو الترقى عن كل موهوم أى الصعود عن كل موهوم فى العطاء والمنع والنفع والضر ، الصعود عن كل ذلك أى عن شهود كل ماسوى الله تعالى إلى رؤية فعل من

بيده الأمر والعطاء والمنع وهو الله عز وجل ، فكل هذا يعتبر اعتصاما بالله وتمسكا بحبله فى أمره الشرعى والقدرى معاً .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه وهو على ثلاث درجات : اعتصام العامة بالخبر استسلاما وإذعانا لما جاء به رسول الله صلى عليه وسلم من عند الله ، وهذا منحصر فى المعتقد والعمل والمعاملة .

أما المعتقد : فهو عقيدة التوحيد ، وأما العمل فهو العمل بالأوامر الشرعية وأما المعاملة : فهى التعامل بين الناس : أخذا وعطاء وصحبة ، وجوارا ومشاركة بالتعاون والانصاف .

وأما اعتصام الخاصة فهو واقع فى صون الإرادة عن الزيغ قبضا وبسطا وأما إسبال الخلق على الخلق ، فمعناه ألا يصنع معهم إلا مايجب أن يصنعوه معه ، على حد القول أن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به .

وفى مثل هذا يقول أبو بكر الكتانى : « التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف » .

وأما رفض العلائق : فهو أن يعزم سالك طريق الله عزما أكيدا على رفض العلائق مع قطاع الطرق إلى الله وهم من يسلكونها عوجا ، أو يتخذونها صورة ومظهراً .

وأما اعتصام خاصة الخاصة : فبالاتصال وهو شهود حضرة الحق تفريداً أى توحيداً والتذلل له تعظيما والاشتغال بأمره تقربا ومراده بالاستحذاء وهو لغة الانكسار والخضـــوع إلى الله (وفى بعض النسخ استحذاء) فإن كان هذا مراده فهو يريد به المحاذاة وهى المواجهة أو مراقبة وجهه) وفى مثل هذا المقام يجد العبد أقرب الطرق إلى الله ، فيفنى فى محبته مملوء القلب بتعظيمه ، وذلك هو حقيقة الاعتصام بأعلى معانيه .

وأنشدوا : ـــ

ما من بحبهم اعتصم وبنور سرهم اتصل
بادر إليهم دائماً واترك خمولك والكسل
والنفس فاترك حظها ترضى الإله بذا الأمل
موت النفوس حياتها وحياتها موت العمل
فاخلع عذارك فى الهوى تقرب إلى النور الأجل
واخضع لسادات الهوى تدرك بهم كل الأمل
وارض بما حكموا هوا واخضع وجانب من عزل
أهل الغرام تذللوا لحبيبهم ضمن العمل
ياحبذا لو أنه لمحبة يوما وصل
فحبيب قلبى نوره نور الوجود به اكتمل
من لم يشاهده فلا يدرى الهوى مهما عمل
أن كنت من أحبابه فالزم رضاه وامتثل
متحليا بشمائل لحبيب ربى فى الأزل
المصطفى نور الهدى من شرعه فاق الأول
نور الإله وسره باب السعادة والأمل

باب الفرار

قال الله تعالى « ففروا إلى الله » الفرار هو الهرب مما لم يكن إلى مالم يزل وهو على ثلاث درجات : فرار العامة من الجهل إلى العلم عقدا وسعيا ، ومن الكسل إلى التشمير جدا وعزما ، ومن الضيق إلى السعة ثقة ورجاء ؛ وفرار الخاصة من الخبر إلى الشهود ومن الرسوم إلى الأصول ، ومن الحظوظ إلى التجريد ؛ وفرار خاصة الخاصة مما دون الحق إلى الحق . ثم الفرار من الفرار إلى الحق .

فى قول الشيخ رضى الله عنه : الفرار هو الهرب مما لم يكن إلى ما لم يزل يريد الفرار من الأغيار وهى كل فان ليس له بقاء إلى الموجود الحق ، الذى كان ولم يزل وجوده الدائم الباقى، ثم قال وهو على ثلاث درجات : فرار العامة من الجهل إلى العلم عقدا وسعيا الخ .

أما الفرار من الجهل إلى العلم فهو شىء معلوم ، ويريد الشيخ فوق هذا معنى أعمق من ذلك ، فهو يعد عدم العمل بالعلم جهلا وهـذا صحيح ويعد أيضاً عدم العزيمة على استعمال العلم جهلا أيضاً وأيد ذلك بقوله (ومن الـكسل إلى التشمير جدا وعزما) . والجد : قوة السعى وقوةالسعى لاتحصل إلا بقوة العزم عليه تشميرا واجتهادا .

ثم قال : والفرار أيضاً من الضيق إلى السعة ثقة ورجاء .

والضيق هنا ما يحدث فى النفس من هم الرزق وخوف الخلق أو الحزن على مفقود من مال او ولد فيفر من كل هذا إلى الله تعالى ثقة بالله ورجاء فيه .

ثم قال وفرار الخاصة من الخبر إلى الشهود ومن الرسوم إلى الأصول ومن الحظوظ إلى التجريد .

فأما الفرار من الخبر إلى الشهود فيريد به الفرار فى المعتقد من مجرد العلم به وهو علم اليقين إلى تذوقه . وهو عين اليقين وأن يكون اليقين له حالا ملازما وهو حق اليقين ، فيكون اعتقاده بالله وماإلى ذلك من عقيدة اعتقادا جازما يمازجه الذوق الذى يفضى به إلى الشهود شهود الحقيقة ، كأنه يعاينها مكاشفة وكذلك يفر من الرسوم إلى الأصول أى من رسوم العلم إلى أصوله وهى حقائقه المتضمنة فى معانيه الباطنة الصحيحة ، فإذا كان يقينه كذلك يقتضى هذا اليقين الفرار من الحظوظ فى الأغيار ، وأغلبها موهوم إلى التجريد أى تجريد الحقيقة فيجردها من كل موهوم الوجود عدمى العين فى جانب الوجود الحق .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : وفرار خاصة الخاصة مما دون الحق وجودا إلى الحق نفسه شهودا ، ثم الفرار من شهود ذلك الفرار إلى الحق ، لكى لا يرى فى الوجود غير ذات الحق الواجب الوجود سبحانه وتعالى . وذلك بفناء شهود نفسه ولكى لا يكون هناك شاهد ومشهود فيفنى الشاهد ويبقى المشهود .

وأنشـــدوا :—

حب المهيمن باليقين أوانى ... وإلى جلال شهوده أزجانى
أصبحت لاألوى عنانى للورى ... مادمت للبارى أمت عنانى
عجزى عن الادراك إدراكى به ... جل المقام فما يبين لسانى
فبحبه وبسره وبنـــوره ... روح اليقين أظلنى وكسانى
أصبو بروحى فى حماه إليه وانتمى ... فالعشق تاجى واليقين عيانى

باب الرياضة

قال الله تعالى (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة)

ثم قال الشيخ رضى الله عنه الرياضة : تمرين النفوس على قبول الصدق وهى على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : رياضة العامة : وهى تهذيب الأخلاق بالعلم وتصفية الأعمال بالإخلاص وتوفير الحقوق فى المعاملة . والدرجة الثانية : رياضة الخاصة وهى حسن التفرق وقطع الالتفات إلى المقام الذى جاوزه وإبقاء العلم يجرى مجراه والدرجة الثالثة : رياضة خاصة الخاصة . وهى تجريد الشهود والصعود إلى الجمع ورفع المعارضات وقطع المعارضات .

أما قوله : تجريد النفس على قبول الصدق : يراد به تجريدها على قبول الصدق من الله وأن تكون صادقة فى الله ، وذلك فى سائر أقواله وأفعاله وإراداته فإذا عرض عليها الصدق من الله تعالى الذى لا شك فيه قبلته صاغرة خاضعة ، وانقادت له مطيعة متبتلة ، وأذعنت له إذعان العبدالمخلص لسيده الصادق .

ثم قال وهى على ثلاث درجات . أى تلك الرياضة وأولها رياضة العامة وهى كائنة فى تهذيب الأخلاق بالعلم واتباع القيم الخلقية وتصفية الأعمال بالاخلاص فيها ، وبهذا تكون جميع حركات العبد باطنة وظاهرة جارية مجرى التشريع مجرى الخلق ، وتصفية الأعمال بالاخلاص واقعة فى تجريدها مما يشوبها من العمل لغير وجه الله تعالى ، أو العمل بطريق معصيته . وأما توفير الحقوق فى المعاملة فهو الاستعداد لأدائها كاملة ، سواء كانت من حقوق الله أومن حقوق عباده ، وهذا يشمل أيضاً النصح فى الأخذ والعطاء والبيع والشراء .

إذا ارتاض العبد على هذه الصفات أصبحت له خلقا مكتسبا ثابتاً .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : ورياضة الخاصة حسم التفرق وقطع الالتفات إلى المقام الذى جاوزه وإبقاء العلم يجرى مجراه .

ويريد بحسم التفرق أى حسم تشويش الوقت الموجب للتفرقة الحاجبة عن رؤية الحق وسلوك طريق الصواب .

وقوله وقطع الالتفات إلى المقام الذى جاوزه .

يريد بذلك : التفات سالك طريق الله ، ومعلوم أن الطريق مقامات كالصبر والرضى والتوكل .. الخ .

فإذا جاوز السالك مقاما إلى مقام أعلى منه يجب ألا يلتفت إلى المقام

الذى يرقى عنه . ولابد أن يكون فيه بقية منه تشبثا وانتباها للمقام الذى ترقى إليه لكى ينمو فينتقل عنه إلى غيره .

وقوله : « بقاء العلم يجرى مجراه » .

يريد به شيئين : أولا : العلم بالسلوك ومافيه من مقامات وأحوال وثانياً : علم الله به فيما يراد له من غاية فلا يعترض ولا يعارض . بل يسلم فى ترقيه تسليما خالصا بغية حسم التفرق من الجمعية على الله تعالى والإقبال عليه ، فلا يشتغل باستحسان مقام أو حال بل يعرض عن ذلك مقبلا على مولاه طالبا للزيادة خشية أن يكون المقام الذى هو فيه حجابا يعوقه برؤية نفسه فيه عن السير إلى ما أعد له من مقام أرقى ، فهمته منحصرة فى عدم تضييع وقته ، وكثير من سالكى طريق الحق إذا لاحت لهم بارقة أو غلبهم حال خرجوا عن حدود العلم بالطريق وشطحوا شطحا قد يخرجهم عن المقام ، بل يعتبر ذلك عدم تأدب فيه . ولذا وجب عليهم أن يجعلوا العلم بالطريق دائما رائدهم .

وأما قول الشيخ رضى الله عنه : ورياضة خاصة الخاصة : تجريد الشهود والصعود إلى الجمع ورفض المعارضات وقطع المعاوضات .

فأما قوله تجريد الشهود يريد به تجريد الشهود للحق من رؤية كل حادث ويريد بالصعود إلى الجمع الترقى إلى حال الجمعية على الله ورؤيته عين الحقيقة فى الأفعال والأقوال ، وأماقوله رفض المعارضات فمعناه ألا يعارض المريد فى أفعال الحق ولا يعترض عليها وقوله قطع المعاوضات يريد به عدم طلب العوض من الله تعالى من المكافآت على أعماله الصالحات فهو يعمل للمطاوعة والانقياد لا لطلب العوض من الأجر والثواب .

وفى مثل هذا المقام أنشدت رابعة العدوية رضى الله عنها :

أحبك حبين حب الهـــوى وحب لأنك أهل لذاك

فأما الذى هو حب الهوى　　فشغلى بذكرك عمن سواك
وأما الذى أنت أهل له　　فكشفك لى الحجب حتى أراك
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى　　ولكن لك الحمد فى ذا وذاك

باب السماع

قال الله سبحانه وتعالى (لو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم)

ويقول الشيخ رضى الله عنه : السماع : حقيقته الانتباه وهى على ثلاث درجات الدرجة الأولى : سماع العامة ، وهو ثلاثة أشياء : إجابة زجر الوعيد من الورع رغبة وإجابة دعوة الوعد جهدا وبلوغ مشاهدة المنة استفسارا .

الدرجة الثانية : سماع الخاصة وهوعلى ثلاثة أشياء . شهود المقصود فى كل رمز والوقوف على الغاية فى كل حسن ، والخلاص من التلذذ بالتفرق ، والدرجة الثالثة : سماع خاصة الخاصة : وهو سماع يغسل العلل عن الكشف ويصل الأبد إلى الأزل ويرد النهايات إلى الأول .

والسماع : اسم مصدر كالثبات والنبات وقد أثنى الله على أهله بقوله : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » وحقيقة السماع تنبه القلب إلى معانى المسموع وأما المسموع فهو إما خير فيجب الإصغاء إليه والعمل به وإما شر فيجب الإغضاء عنه وصرف النفس عن التفكر فيه ، والمقصود هنا بالسماع حقيقة الفهم والتعقل ويفسره قول الله تعالى (ولو علم الله فيهم خير لأسمعهم) والمراد بالسماع عند القوم : سماع ما ينشدون أحيانا من أشعارهم وأشعار شيوخهم ، التى تحتوى على أدب السلوك وتدل على الحب: حب العبد للرب ، وهو أى السماع محرك يحرك العزم ويحض على الجد فى فى المقامات والأحوال ومعالى الدرجات .

وحكم السماع شرعا : يتبع ما تعلق به إن خيراً فخير وإن شراً فشر . فان كان المقصود بالسماع حب الله تعالى والتبتل اليه والازدياد من الإيمان به والتحبب اليه ، فأنعم به من سماع .

وإن كان السماع مثيرا للهوى موقظاً لغرائز النفس ، ويراد به غير المقصود منه فهو فى مثل هذا المقام فتنة ويحرم .

والسماع الجائز المطلوب مثل ماسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم عند حفر الخندق من أنس وبعض الصحابة وهم يرتجزون بين يديه.

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد مابقينا أبدا

وماسمعه بين يديه من شعر عبد الله بن رواحه وقد حدا به عند انصرافه من خيبر فجعل يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فانزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الذين بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

ونحن عن فضلك ما استغنينا

وأما قول الشيخ رضى الله عنه : السماع على ثلاث درجات : سماع العامة وهو ثلاثة أشياء : إجابة زجر الوعيد رغبة ، وإجابة دعوة الوعد جهدا وبلوغ مشاهدة المنة استفسارا .

والوعيد هو الأمر بترك كل محذور ، ومعنى إجابة داعيه : هو العمل بالطاعة واستمراء سبل الهداية ، وقوله : رغبة أى امتثالا لما أمر الله به أو نهى عنه وأما إجابة الوعد جهدا فهى امتثال الأوامر الالهية مع بذل الجهد طلبا للوصول إلى رضاء الحق بفضل مايحبه . وأما بلوغ مشاهدة المنة استفسارا فهو التنبه والاستفسار إلى معانى ماسمع من الطلب الدافع للمنفعة والمنفعة ذلك الذى يدله على عمل الخير واتباع الحق ، وكذلك يرى أن ماروى

عنه من الدنيا أو لحقه من أذى فيها فهو منة من الله أيضاً. وفي هذا المعنى يقول بعض السلف « يابن آدم إنك لاتدرى أى النعمتين عليك افضل، نعمته فيما أعطاك أو نعمته فيما زوى عنك » وقال عمر رضى الله عنه « لو كان الصبر والشكر بعيرين لما باليت أيها ركبت » .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : وسماع الخاصة ثلاثة أشياء : شهود المقصود فى كل رمز ، والوقوف على الغاية فى كل حين والخلاص من التلذذ بالتفرق .

والمقصود بكل رمز هو كل مايرمز إلى الحقيقة وكل مايتصل بها من سبب واضح أو خفى ، فكل مايدل على عظم أسمائه وجليل صفاته وجميل أفعاله قد جاء مفصحا عنه أو مرموزا له فالعارف يشهد القصد فيه بنور بصيرته وغرضه من ذلك تحصيل مراد الله من المسموع .

وأما الوقوف على الغاية فى كل حين فهو الوقوف عند المطلوب وهو القرب فى كل حال . وليس وراء ذلك المقام غاية ولا دونه مستقر . .

وأما الخلاص من التلذذ بالتفرق : فهو الخلاص من سماع مايوجب تفرقة بينك وبين ربك فما لايجوز سماعه لأمثالك ، لأنه يوجب التفرق ، وأنت تريد الجمع والوصول فسماع مايصرفك عنه ليس من بغيتك ولا من حظك .

ثم قال الشيخ وسماع خاصة الخاصة سماع ينفى العلل عن الكشف ويصل الأبد إلى الأزل ويرد النهايات إلى الأول .

فالسماع هنا يأتى بعبرة أو آية أو عظة أو كل ماينبه إلى حضرة الحبيب ويدل على معانى القرب .

وقد أجمع أهل طريق الله على أن تصحيح البدايات يدل على حسن النهايات وبتصحيح البدايات تغسل العلل المؤخرة عن الكشف والمعطلة

للسلوك فاليقظة عن طريق السماع عن الحق من أى سبيل واستيعاب المسموع بعين البصيرة يصل البداية بالنهاية وهذا معنى قول الشيخ يصل الأبد إلى الأزل ويرد النهايات إلى الأول .

(هذا قسم البدايات وقد انتهى وأما قسم الأبواب وهو القسم الثانى فهو أيضاً عشرة أبواب) .

وهى الحزن ، والخوف . والاشفاق،والخشوع . والاخبات . والزهد والورع . والتبتل ، والرجاء ، والرغبة .

وفى هذا الباب أنشد السهروردى من قوله :

تضيق بنا الدنيا اذغبتمو عنا ... وتزهق بالأشواق أرواحنا منها
بعادكمو موت وقربكمو حيا ... وإن غبتمو عنا ولو نفسا متنا
نموت إذا غبتم ونحيا بقربكم ... وإن جاءنا عنكم بشير اللقا عشنا
نعيش بذكراكم إذا لم نراكمو ... إلا أن تذكار الأحبة ينعشنا
يحركنا ذكر الأحاديث عنكموا ... لولا هواكم فى الحشا ما تحركنا
ولولا معانيكم تراها قلوبنا ... إذ نحن أيقاظ وفى النوم أن غبنا
لمتنا أسى من بعدكم وصبابة ... ولكن فى المعنى معانيكمو معنا
فقل للذى ينهى عن الوجد أهله ... إذا لم تذق معنى شراب الهوى دعنا
إذا لم تذق ماذاقت الناس فى الهوى ... فبالله يا خالى الحشا لا تعنفنا
وسلم لنا فيما ادعينا فإننا ... إذا غلبت أشواقنا ربما صحنا
وتهتز عند الاستماع جسومنا ... وأن لم نطق حمل التواجد نونحنا
أما تنظر الطير المقفص يافتى ... إذا ذكر الأوطان حن إلى المغنى
يفرج بالتغريد ما بفؤاده ... فيطرب أرباب العقول إذا غنى
ويهتز فى الأقفاص من فرط حبه ... وتطرب الأعضاء فى الحس والمعنى

كذلك أرواح المحبين يا فتى — تهز هزها الأشواق للعالم الأسنى
أنلزمها بالصبر وهي مشوقة — وكيف يطيق الصبر من شاهد المعنى
إذا اهتزت الأرواح شوقاً إلى اللقا — نعم ترقص الأشباح يا جاهل المعنى
فيا حادى العشاق قم واحدو قائماً — وزمزم لنا باسم الحبيب وروحنا
وحين سر نا في سكر ناعن حسودنا — وإن أبصرت عيناك شيئاً فسامحنا
فإنا إذا طبنا وطابت نفوسنا — وخامرنا خمر الغرام تهتكنا
فلا تلم السكران في حال سكره — فقد رفع التكليف في سكرنا عنا
فيا عاذلي كرر على حديثهم — فأعيننا منهم وأعينهم منا[1]

باب الحزن

قال الله تعالى (وتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : الحزن توجع لغائب أو تأسف على ممتنع وله ثلاث درجات : الدرجة الأولى : حزن العامة — وهو حزن على التفريط في الخدمة وعلى الافراط في الجفاء . وعلى ضياع الأيام . والدرجة الثانية : حزن أهل الإرادة وهو حزن على تعلق القلب بالتفرقة ، وعلى اشتغال النفس عن الشهود وعلى التسلي عن الحزن وليست الخاصة من مقام الحزن في شيء ، ولكن الدرجة الثالثة من مقام الحزن للتحزن للمعارضات دون الخواطر ، ومعارضات المقصود والاعتراضات على الأحكام .

قال الشيخ رضى الله عنه : الحزن توجع لغائب من الأعمال الصالحات وهو أيضاً تأسف على ممتنع من الدرجات العاليات التي لم يصل إليها السالك فهو راغب في الوصول إليها .

(١) المراد بالعين هنا : النظرة فهو يريد أن يقول فنظرتنا إليهم متجهة ونظرتهم لنا محققة .

ثم قال : وله ثلاث درجات حزن العامة : وهو حزن على ما قد يكون قد وقع من تفريط فى الخدمة أو تورط فى الجفاء أى الالتفات عن التقدم فى السير إلى طريق الحق . أو تضييع الأيام فيما ليس فيه تقدم إلى وجهته التى يقصدها ، وهى البلوغ إلى الكمال ، والتفريط فى الأفعال غير التفريط فى العبودية والخدمة هى استمرار الاستقامة لأن الأفعال هى ما يوجب التقدم أو التأخر عنها وأكثر من فى المقامات والأحوال موجب للاستقامة ثم قال « والدرجة الثانية هى حزن أهل الإرادة » . وهو حزن على تعلق القلب بالتفرقة وانشغال النفس عن الشهود . وعلى التسلى عن التحزن لذلك الخطب المعوق عن الكمال من حيث المطلوب وهو الجمعية ، والحضور مع الله تعالى فى سائر الأنفاس واللحظات وهذا يعارضه تشتت الخواطر وانقسام الارادات — والتعلق بالرغبات .

ومن الأحوال الصارفة عن الشهود الانصراف عن الذكر أو ضعفه والذكر من دأبه التقريب إلى المذكور .

فالتسلى عن الحزن لكل ذلك دليل على أن الإرادة مدخولة ثم قال رضى الله عنه :

وليست الخاصة من مقام الحزن فى شىء « لأن الحزن فقد ، وهم أهل شهود ووجود .

ثم قال رضى الله عنه : والدرجة الثالثة : التحزن للمعارضات وهى الإرادات المصممة على مايوجب التفرقة والتمنيات الجامحة دون الخواطر العارضة طبعا لأن الخواطر عارضة تأتى وتزول . ثم الاعتراض على الأحكام مبعد . وقد يؤدى إلى الإفلاس كلية من الأحوال والمقامات . فالعزيمة المقربة مطلوبة . ومن شأن المريد الصادق التسليم للأقدار والخلو من المقاصد الخاصة التى تتمناها النفوس الغافلة ، والسلوك مبنى على الترقى ،

فيجب خلوه من كل مايثبط أو يخالف علو الهمة والنهوض إلى الجد في السير .

وقد أنشدوا فى هذا المعنى قول بعضهم :

على أبوابكم عبد ذليل — كثير الشوق ناصره قليل
له أسف على ما كان فيه — وحزن من صدودكم طويل
يمد إليكمو كف افتقار — ودمع العين منهمل يسيل
يرى الأحباب قد وردوا جميعا — وليس له إلى ورد سبيل
أكون نزيلكم ويضام قلبي — وحاشا أن يضام لكم نزيل
فان يرضيكم طردى وبعدى — فصبرى فى محبتكم جميل
وحق ولائكم وشديد شوقى — سلوى عن هواكم مستحيل
قضيت بحبكم أيام عمرى — فلا أسلو وقد بقى القليل
يحدثنى الصبا عنكم حديثا — يصح بنشره الجسم العليل
فأسكر من ثناها حين هبت — وانظر حيثما مالت أميل

باب الخوف

قال الله تعالى (يخافون ربهم من فوقهم) ثم قال الشيخ رضى الله عنه : الخوف هو الانخلاع عن طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى : الخوف من العقوبة : وهو الخوف الذى يصح به الايمان ، وهو خوف العامة . ويتولد من تصديق الوعيد وتذكر الجناية ومراقبة العاقبة .

والدرجـــة الثانية ، خوف المكر من جريان الأنفاس المستغرقة فى اليقظة المشوبة بالحلاوة وليس فى مقام أهل الخصوص وحشة الخوف إلا هيبة الإجلال . وهى أقصى درجة ، يشار إليها فى غاية الخوف وهى

هيبة تعارض الكشف فى أوقات المناجاة وتصون المشاهد فى أحيان المسامرة وتصطدم المعاين بصدمه الغرة .

الخوف من طمأنينة الأمن يكون بمطالعة الخبر — أى الخبر الإلهى المشتمل على الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب .

ثم قال وهو على ثلاث درجات : الخوف من العقوبة وهو الخوف الذى يكمل به الإيمان ، وهو بالطبع خوف العامة عامة السالكين وهو ينشأ عن تصديق الوعد والوعيد وتذكر الجناية حال ما سبق من العصيان ومراقبة العاقبة للطاعة والمعصية والقرب والبعد والحضور والغيبة والتصافى والجفاء .

ولابد فى هذا من النظر بعين العلم ليقظة البصيرة فى أحكام الشرع ثم قال والدرجة الثانية : « خوف المكر فى جريان الأنفاس المستغرقة فى اليقظة المشوبة بالحلاوة » . فيجب على السالك الخوف من مكر الله فقد يكون مستدرجا فى حاله إذا ركن إلى حلاوة ذلك الحال وادعاه لنفسه فشغل به عن مطلوبه فكم من سالك مغتبط بحاله ، انعكس عليه الحال إذا رأى نفسه فيه ولم ير فضل الله عليه به .

ثم قال والدرجة الثالثة : درجة الخاصة وليس فى مقام أهل الخصوص وحشة الخوف إلا هيبة الإجلال ، وذلك لأن أهل الخصوص فى أنس بفضل الله عليهم وكرامته لهم فلا خوف عندهم ولا عليهم إلا هيبة للحق المتفضل وإجلالا لفضل الكريم المنعم وهذه أشرف وأعلى درجات الخوف ، لأنها خوف يصحبه التأدب فى حضرة الحبيب ، وإجلالا لمقامه ، وهذه الحال أعلى طبعا من خوف عامة السالكين لأنها خوف حب وتكريم متبادل إلا أنها لما فيها من تهيب قد تعارض حالة الكشف بالهيبة عند المناجاة ، وإن كانت تصون المسامر حين المسامرة والحضور وهى أيضاً

تصدم المعاين بصدمة الغرة عند الجرأة والمعاين هنا من يطمع فى معاينة الذات ذاتها فعلى هذا يجب أن يرجع إلى قول الله تعالى فى مثل هذا الشأن لموسى عليه السلام (لن تراني ولـكن انظر إلى الجبل) .

وأنشدوا فى مثل هذا المقام على لسان الحق :

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا … فانا منحنا بالرضى من أحبنا
ولذ بحمانا واحتم بجنابنـا … لنحميك مما فيه أشرار خلقنا
وعش فى رضانا خاضعا … متذللا وأخلص لنا تلق المسرة والهنا
وسلم إلينا الأمر فى كل ما أتى … فما القرب والإبعاد إلا بأمرنا
ولا تعترضنا فى الأمور فكل من … أردناه أحببناه حتى أحبنا
رفعنا له حجبا أجناه نظرة … إلينا وأودعناه من سر سرنا
تمسك بأذيال المحبة واغتنم … ليال بها تحظى بأوقات قربنا
وقم فى الدجى فالليل ميقات من يرد … وصال حبيب فاغتنم فيه وصلنا
فما الليل الا للمحب مطية … وميدان سبق فاستبق نبلغ المنى
عن ذكرنا لا يشغلنك شاغل … ولا تنسنا واقصد بذكرك وجهنا
ولا تنس ميثاقا أخذناه أولا … عليك باقرار كتبناه عنـدنا
ولا تنس إحسانا بسطناه عندما … جهلت فعرفناك حتى عرفتنا
أمرناك أن تأتى مطيعا لبابنا … فأبطأت خاطبناك مع خير رسلنا
كفيناك أغنيناك عن سائر الورى … فلا تلتفت يوما إلى غير وجهنا
نسيت فذكرناك هل أنت ذاكر … لإحساننا أم أنت ناس لعهدنا
وجدناك مضطرا فقلنا لك ادعنا … نجيبك فهلا أنت حقا دعوتنا
أما آن أن تقلع عن الذنب راجعا … إلينا وتنظر ما به جاء وعدنا
فأحبابنا اختاروا المحبة مذهبا … وما خالفوا فى مذهب الحب شرعنا
فمن جاءنا طوعا رفعناه رتبة … وعنه كشفنا الهم والغم والعنى
ومن حاد عنا ضل سعيا ومذهبا … وباء بحرمان ولم يبلغ المنى

فما حبنا سهل وكل من ادعى سهولته قلنـــا له قد جهلتنا
فقال خواص العاشقين تذللا يلذ لنـا فى معرك الحب قتلنا
ولادية نرضى بهـا غير نظرة إليك ولـكن نظرة منك تـكفنا
إذا كنت عنا راضيا فهو قصدنا وكل يقول أنت فى القصد حسبنا

باب الإشفاق

يقول الشيخ رضى الله عنه : قال الله تعالى (إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين) والاشفاق دوام الحذر مقرونا بالترحم وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : اشفاق على النفس أن تجنح إلى العناد ، واشفاق على العمل أن يصير إلى الضياع واشفاق على الخليقة لمعرفة معاذيرها ، والدرجة الثانية : اشفاق على الوقت أن يشوبه تفرق ، وعلى القلب أن يزاحمه عارض وعلى اليقين أن يداخله سبب . والدرجة الثالثة : اشفاق يصون سعيه من العجب ويكف صاحبه عن مخاصمة الخلق ، ويحمل المريد على حفظ العهد .

أما قول الشيخ رضى الله عنه : الاشفاق دوام الحذر مقرونا بالترحم فمعناه الحذر من مخالفة الحبيب وليس الحذر منه ولذلك قال مقرونا بالترحم والترحم فيه الود . ثم قال وهو على ثلاث درجات : اشفاق على النفس أن تجنح إلى العناد فتطيع الهوى وتصاحب العصيان، وتعاند العبودية الخالصة ، ويفعل هذا المريد من ضروب الاشفاق خوفا واشفاقا على عمله من أن يسير إلى الضياع بسبب طاعة النفس والهوى فيعصى فيحبط عمله .

وهذا الخوف . وذلك الاشفاق على نفسه وعمله من الضياع يوجب ضرورة اشفاقه على عموم الخليقة لمعرفة معاذيرها وسر القدر فيها .

ثم قال والدرجة الثانية : اشفاق على الوقت أن يشوبه تفرق أى حذر

على وقته من أن يخالطه ما يفارقه عن الحضور مع الله عز وجل واشفاق أيضاً على القلب أن يزاحمه عارض من الوهم أو من الرغبة يصرفه عن القصد المطلوب، واشفاق على اليقين أيضاً أن يداخله سبب من الرسوم أو الأغيار صارف عن حضرة الحق .

ثم قال والدرجة الثالثة : اشفاق يصون سعيه عن العجب ويكف صاحبه عن مخاصمة الخلق ويحمل المريد على حفظ العهد .

ويريد الشيخ رضى الله عنه . بهذا أن ينهى السالك لطريق الله عن أن يعجب بنفسه فإنه لو أعجب بنفسه لاستعلى على غيره ، وهذا الحال ، موجب لاستصغار شأن الخلق ومخاصمتهم ، معتبرا أنه أرفع منهم ويحذر الشيخ من كل ذلك لأن المريد يكون محجوبا عن فهم سر القدر وسريانه فى الخليقة من جهة وترفعه وعجبه بنفسه موجب ضرورة لاسقاط درجته . وهـذا يتنافى مع الأدب فى حضرة الحق لا سيما وأن العجب مفسد للعمل وهو صنو الرياء .

وقد يريد الشيخ رضى الله عنه بهذا كله أن يحفظ المريد العهد ولايخرج على الحد الذى يرسمه له السلوك الصادق النقى .

وأنشدوا فى مثل هذا المقام :

لى بالحمى قوم عرفت بصبهم ... وإذا مرضت فصحتى فى طبهم
قوم كرام هائمـــون بربهم ... علموا بأنى صادق فى حبهم
وتحققوا صبرى الجميل فعذبوا

ياسعد خذ عنى الهوى وله فعى ... واعلم بأن القوم أهل المطلع
خطرات وجه غائب فى البرقع ... نزلوا بوادى المنحنى من أضلعى
وتمنعوا عن مقلتى وتحجبوا

هم عند قلبي بل وقلبي عندهم وإذا بسست الوجد بسوا وعدهم
ومعي أراهم كي لا أفارق قصدهم سعد حظوظي إذ رضوني عبدهم
والفخر لي أني إليهم أنسب

باب الخشوع

قال الله تعالى (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) .

ثم قال الشيخ رضي الله عنه بعد ذكر الآية : الخشوع خمود النفس وهمود الطباع لمتعاظم أو مفزع وهو على ثلاث درجات : الدرجة الأولى : التذلل للأمر والاستسلام للحكم والاتضاع لنظر الحق ، والدرجة الثانية : ترقب آفات النفس ورؤية فضل كل ذي فضل عليك ، وتنسم نسيم الفناء . والدرجة الثالثة : حفظ الحرمة عند المكاشفة وتصفية الوقت من مزايا الخلق ، وتجريد رؤية الفضل .

أما قوله رضي الله عنه : الخشوع خمود النفس أي انكسارها وخمود نزواتها عن المقاومة لمسالك الطاعة ثم قال (وهمود الطباع لمتعاظم) أي لأمر عظيم كأمر الله ونهيه أو مفزع كالخوف من عقابه .

ثم قال وهو على ثلاث درجات : الدرجة الأولى : التذلل للأمر أي الانكسار والخشوع لأمر الله تعالى والاستسلام للحكم أي التسليم الكامل لأحكام الله تعالى القدرية والتعبدية ثم الاتضاع بالنفس في ذلك كله خضوعا لنظر الحق فيرى في عبده مريدا صادقا وتقيا ورعا يقدر ما لله تعالى عليه من الفضل الباطني ومن النعمة الظاهرة . وسبحانه الذي يقول (هو الذي أسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) .

ثم قال والدرجة الثانية ترقب آفات النفس ، وللنفس بالطبع آفات صارفة عن حسن السلوك ، يجب عليه أن يترقبها . وأن يتقى بذلك الترقب خداعها فى الأعمال والأقوال ، ثم رؤية فضل كل ذى فضل عليه والفضل الأعظم فضل الله على العبد ، ثم تليه أفضال كفضل المعلم وفضل المرشد ، وفضل الشيخ الدال على طريق الله تعالى .

ثم قال والدرجة الثالثة : حفظ الحرمة عند المكاشفة : أى حفظ حرمة الحق فيما يتجلى به على قلبك من ضروب الكشف فلا تبح بالأسرار إلا لقلوب الأحرار ثم حافظ على تصفية الوقت من الشوائب الصارفة لاستمرار المكاشفة .

وأهم ماتصفى منه وقتك تعدد مزايا الخلق من الناس والأسباب ومنافعها لأنها صارفة عن شهود رؤية الفضل ، فضل الله عليك وعليهم .

وقل مايقول الخاشعون :

قم فى الدجى يا أيها المتعبد	حتى متى فوق الأسرة ترقد
واستغفر الله العظيم بذلة	وأطلب رضاه فإنه لا يحقد
وأندم على مافات واندب مامضى	بالأمس واذكر مايجىء به الغد
واضرع وقل يارب عفوك إننى	من دون عفوك ليس لى مايعضد

باب الإخبات

قال الله عز وجل « وبشر المخبتين » ويقول الشيخ رضى الله عنه : إن الإخبات من أوائل مقامات الطمأنينة وهو ورود المأمن من الرجوع والتردد ، وهو على ثلاث درجات : الدرجة الأولى : أن تستغرق العصمة الشهوة وتستدرك الإرادة الغفلة . ويستهوى الطالب السلوى . والدرجة الثانية :

ألا ينقص إرادته سبب ولا يوحش قلبه عارض ولا يقطع الطريق عليه فتنة . الدرجة الثالثة : أن يستوى عنده المدح والذم . وأن تدوم لائمته لنفسه ويعمى عن نقصان الخلق عن درجته .

(والاخبات الميل الشديد كل الميل أو الركون إلى الحق وهنا دوام النظر إلى الحق ودوام النظر أيضاً إلى الحقيقة والانقطاع عن كل باطل . والرضوخ لموجبات مامن الله عليك به من تقريب ولذلك وصفه الشيخ بأنه من أوائل مقامات الطمأنينة التي توطد الأمن من خوف الرجوع . ومن التردد أيضاً . لأن السالك يكون قد اطمأن إلى صحة معتقده وسلامة يقينه ، وخلوص إيمانه ، وقد وصف الشيخ ذلك الأمن الوطيد فقال : الدرجة الأولى أن تستغرق العصمة الشهوة وتستدرك الإرادة الغفلة ويستهوى الطالب السلو .

والعصمة هى الحماية والحفظ ومنها الاعتصام وهو الدخول فى حدود تلك الحماية وذلك الحفظ . وبيان ذلك طبعاً الميل إلى مطالب النفس كالاهواء والشهوات . (والاستغراق للشىء الاحاطة به) وعلى هذا يجب أن يستغرق — الاعتصام الذى تليه العصمة استجابة من الله عز وجل للعبد فى سائر السلو عن الميول والشهوات التى تجنح إليها النفس ، فإن حدث ذلك استقامت حالة الاعتصام بالله تعالى وتوطدت مسالك العبد إليه بعد أن غلبت عصمته شهوته وقهرتها .

ثم قال وتستدرك إرادته غفلته : والإرادة عند أهل طريق الله تعالى أول منزلة من منازل طريق السلوك . ولا يسمى المريد مريداً حتى يخرج تدريجيا من طبعه وعادته ويأخذ فى السفر إلى الله تعالى مجداً . فإذا حالفه الاخبات أحاطت إرادته بغفلته حتى تتحكم فى مخالفة ميوله العارضة التى لا تتفق مع رتبة الإرادة .

وحينئذ يستمرىء السالك طعم العصمة فتستهويه السلوة من الشهوات والنقائص الموبقة . وحينئذ يكون قد غلبت فطنته شهوته ، وتحكمت إرادته فى سائر ميوله .

(ثم قال : والدرجة الثانية . ألا ينقض إرادته سبب : أى من الأسباب المغايرة العارضة على النفس فيثبت فى طريقه ولا تطغى عليه غفلة أو تزيله عن مسلكه فتنة فإذا تمكن السالك من ذلك الاخبات فارقته أمثال تلك الآفات ؛ لأن إرادته قد قويت وعزمه على الجد فى السير قد تحقق .

والنقض هو الرجوع كنقض ما كان يريد . والانصرف عما كان عليه عاهد — فيضطرب مسلكه فى سفره إلى الله أو يعدل عنه وقد قال أحد الأدباء رهو ابن المقفع فى بعض رسائله :

(من كانت رغبته فى طريق ، ومسلكه فى طريق آخر فما أحقه بشدة التبين لأنه يكون قد طلب الذى منه هرب ، وألغى الذى إليه سعى » فالاشتغال بالسلوك وبالعوارض التى تعرض من الشواغل القلبية والأهواء النفسية فى وقت واحد ضرب من الضلال والعمى يحتاج فيه المرء لشدة التبين لطريقه الذى أراد سلوكه فقد يكون متجها إليه ظاهراً ومنصرفا عنه باطنا وهى الفتنة التى تقطع عليه طريق الله تعالى ، فإذا صحح الإرادة وتمسك بالاخبات فمن المحال أن يقطع عليه طريق الله قاطع .

والطريق مبنى على العزم والصبر وشجاعة النفس والثبات ، فإن اعتلى السالك تلك الذروة وبلغ مثل هذا المقام العظيم ، وجب أن يعمل بشرط الشيخ الذى قال (فيه أن تستوى عنده المدح والذم وأن تدوم لائمته لنفسه ويعمى عن نقصان الخلق عن درجتــــه) وذلك هو مضمون الدرجة الثالثة .

وأنشدوا فى ذلك قولهم :

الا أيها المحسوب فى الحب حبنا لك الفتح والبشرى مع العز والهنا
فلا تخش من ضيم فقد جئت للحمى وأبشر بدفع السوء والهم والعنا
ومادمت فى حى الأحبة بالوفا وقلبك يسمو فى اليقين بحبنا
خليا من الدعوى وبالله واثقا فلا تنثنى عنـــا لرؤية غيرنا
فقد فزت بالاسعاد فى كل حالة وقد وافت بك الأفراح تهتف بالمنى
مريدى افتخر تيها على كل مغرم ولا تخش من عذل وجاهر بحبنا
وحاذر مريدى أن تميل مع الهوى فتصبح مقطوعا وتمسى طريدنا
وقل للذى أضحى سعيدا بحبنا خليا من الأغيار قد فزت بالمنا

باب الزهد

قال الله تعالى : « بقية الله خير لـكم » .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه « الزهد اسقاط الرغبة عن الشىء بالـكلية وهو للعامة قربة للمريد ضرورة وللخاصة خشية وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : الزهد فى الشبهة بعد ترك الحرام بالحذر من المعتبة والأنفة من المنقصة وكراهة مشاركة الفساق .

الدرجة الثانية : الزهد فى الفضول ومازاد على المسألة والبلاغ من القوت باغتنام التفرغ إلى عمارة الوقت وحسم الجاش والتحلى بحليه الأنبياء والأولياء الصديقين .

والدرجة الثالثة : الزهد فى الزهد وذلك بثلاثة أشـــياء باستحقار مازهدت فيه واستواء الحالات عندك والذهاب عن شهود الا كتساب ناظرا إلى وادى الحقائق .

ومعنى قوله : الزهد إسقاط الرغبة عن الشيء بالكلية ويريد بالرغبة هنا الحب للشيء وليس مجرد الحاجة إليه فإن الاحتياج إلى مقومات الحياة ضرورة حيوية لا يجب أن تدخل فى مفهوم الزهد المقصود ، لأن الزهد فى الدنيا معناه عدم حبها لرغبة ذاتية منها وإن ملكها والحال أن مثالها جميعاً إلى العدم والتلاشى ولكن الانتفاع بها فيما يسد الخلة أمر مشروع تركه لايسمى زهدا وإنما قد يسمى خروجا على الشرع لقول الله تعالى .

(قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق)

فالزهد فى الضرورى غير مباح ولا مشروع إنما المطلوب للشرع الزهد فى الحرام أو فيما فيه شبهة ثم الزهد فى البذخ والاحتكار للثروة أو للقوت أو حبس المنفعة كالبخل مثلا :

ومن ثم يكون المقصود بالزهد ماجاء فى قول الله تعالى « ماعندكم ينفد وماعند الله باق » وقوله تعالى « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى » والقرآن ملىء بمثل هذه المعانى الدالة على فناء الدنيا وانقطاعها .

وإذن فماذا عسى أن تكون حقيقة الزهد ؟ .

والجواب . تكون حقيقة الزهد بأن تكون الدنيا فى اليد وليست فى القلب وقد يكون زاهداً من يملك الدنيا جميعها وقلبه معلق بالله تعالى فهو غنى وقد يكون فقيراً من تعلق قلبه بالدنيا ملكها أو لم يملكها .

وعمر بن عبد العزيز مثلا كان ملكا وابن ملك وقد ورث من شئون الدنيا أعلاها نصيبا وأرحبها سعة ومع ذلك كان زاهدا فى الدنيا .

وكان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه وهو من بين من نعلم ثروته وتجارته من الصحابة وكذلك الزبير وعثمان رضى الله عنهما . أولئك كانوا من الزهاد مع ما كان لهم من ثراء ومتاع .

وكان الحسن بن على رضى الله عنه : من الزهاد وبلغ به زهده ان زهد فى الملك حقنا لدماء المسلمين بالفتنة .

ومن كلام أئمة الصوفية «ليس الزهد فى الدنيا بتحريم الحلام ولا إضاعة المال ولكن أن تكون بما فى الله تعالى أوثق منك بما فى يدك» .

وتكون حقيقة الزهد بهذا النظر هى : الزهد فى الزائد من المتاع الذى يحرص عليه محبو الدنيا ويتمنون الزيادة عليه ولو بحبسه عن الناس . وأما الزهد فى الحرام فلا يجوز أن يسمى زهداً . لأن الحرام معصية . والحلال لايجوز الزهد فى الانتفاع بنصيبك منه لأنه مباح ويظل معنا مافيه شبهة ، فإن من الورع تركة وكل مايشغل عن الله تعالى مما فيه حرمة ومن الزيادة فيما يباح فالزهد فيه مطلوب لسالك طريق الحق . ولذلك عرف الشيخ الزهد فى أول كلامه : بأنه إسقاط الرغبة فى الشيء وليس إسقاط الرغبة فيه عن القلب .

ثم قال وهوللعامة قربة وهذا واضح وللمريد ضرورة وهو واضح أيضاً وللخاصة خشية وذلك فيه نظر لأن الخاصة ارتفعوا عن زهد العامة وكانوا مريدين فارتفعوا عن رتبة الإرادة فزهدهم يكون بمجرد خشية لله تعالى لأن نفوسهم تكون قد طبعت على العزوف عن الزوائد من الحطام الفانى . فزهدهم يكون إمعانا فى الخشية من المسئولية امام بارئهم ومحبوبهم ومطلوبهم .

ولذلك يقول الشيخ رضى الله عنه : إن الزهد على ثلاث درجات الدرجة الأولى : الزهد فىالشبهة بعد ترك الحرام بالحذر من المعيبة والأنفة من المنقصة وكراهة مشاركة الفساق أى المارقين الذين فسقوا عن أمر الله تعالى والفسوق هو الابتعاد والخروج .

يقول الشيخ رضى الله عنه : الدرجة الثانية : الزهد فى الفضول وهذا مايؤيد قولنا السابق .

وأما قوله مازاد على المسألة والبلاغ يريد مازاد عن الحاجة والكفاية وجعل ذلك اغتناما أى مكسبا للتفرغ لعمارة الوقت بما يقرب إلى الله تعالى والدار الآخرة وللآخرة خير وأبق ، ولذلك أضاف وحسم الجأش ، والجأش هو الترغيب والتشوف (والحسم منعه) فلا يثنى عزيمته عن الله تعالى مطلب من مطالب الدنيا وذلك يكون تشبها وتحليا بحلية الأنبياء والأولياء والصديقين .

ثم قال والدرجة الثالثة : والزهد فى الزهد أى فى أن تزهد فى رؤيتك أنك زاهداً ثم قال وذلك بثلاثة أشياء : باستحقار ما زهدت فيه واستواء الحالات عندك وهذا كله ظاهر إلا أنه قال والزهد عن شهود الاكتساب وقد يخال لقارىء كلامه أن هذا معناه الزهد فى الاكتساب ولكن هذا يكون خطأ فإن الشيخ يريد لا ترى لنفسك كسبا فيما امتلكت يداك وإنما هو منة من الله تعالى عليك فيجب أن تزهد فى أنك اكتسبت بحيلتك وجهدك ، ولذلك قال الشيخ رضى الله عنه ناظراً إلى وادى الحقائق أى مرتفعا عن هذا المعنى إلى ماهو أعمق وأشمل ألا هو فعل الله تعالى ومشيئته ومنته عليك وأنشدوا :

إن لله عبـــادا فطنا   طلقوا الدنيـا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلـــا علموا   أنهـــا ليست وطنـا
جعلوها لجة واتخـــذوا   صالح الأعمال فيها سفنا

باب الورع

قال الله تعالى « وثيابك فطهر » .

ويقول الشيخ رضى الله عنه : الورع توق مستقص على حذر . أو تحرج على تعظيم وهو آخر مقام الزهد للعامة وأول مقام الزهد للمريد

وهو على ثلاث درجات : الدرجة الأولى تجنب القبائح بصون النفس وتوفير الحسنات ، وصيانة الإيمانوهذه الصفات الثلاث فى الدرجة الأولى وهو ورع المريد .

والدرجة الثانية : هى حفظ الحدود عند مالا بأس به إبقاء على الصيانة والتوقى صعوداً عن الدناءة وتخلصا من اقتحام الحدود .

الدرجة الثالثة : التورع عن كل داعية تدعو إلى شتات الوقت والتعلق بالتفرق وعارض يعارض حال الجمع .

(يقول الشيخ رضى الله عنه : الورع : توق مستقص على حذر أو تحرج على تعظيم .

(ويقول الشبلى رضى الله عنه : « الورع أن تتورع عن أن يتشتت قلبك عن الله تعالى طرفة عين ») .

والورع بهذه المثابة هو عدم الهبوط عن المقام لأنه ذخيرة السالك فإن هفا إلى الصغائر خرج عن الورع ووقع فى الشبهة .

وصورة الورع فى البدايات : تجنب القبائح ، وترك المكروهات فهو التوقى من الفضول الشاغلة عن المراقبة .

وهو أول الزهد وآخره وباب إلى التقوى فهو كمايقول الشيخ رضى الله عنه « تحرج على تعظيم » أى تحرج عن النقص وتعظيم للخالق وهو كما يقول الشيخ آخر مقام الزهد للعامة وأول مقام الزهد للمريدين .

ثم قال : وهو على ثلاث درجات .

الدرجةالأولى : تجنب القبائح بصون النفس ، وتوفيرالحسنات،وصيانة الإيمان وهذه الصفات الثلاث فى الدرجة الأولى من ورع المريد .

وفى مثل هذا المقام يقول سيدنا عمر رضى الله عنه :

« لا ينبغى لمن أخذ بالتقوى ووزن الورع أن يذل لصاحب دنيا » .

فالورع دليل الخوف ، والخوف دليل المراقبة،والمراقبة دليل المعرفة ، والمعرفة دليل القرب .

فالورع يصون النفس ويحفظها ويحميها مما يزرى بها عند الله تعالى فأما توفير الحسنات فهو عبارة عن الموازنة بين حسنات العبد وسيئاته ، لأن قليل السيئات قد يحبط الكثير من الحسنات ، فإذا كثرت السيئات استغرقت الحسنات بالكلية .

وأما قوله صيانة الإيمان : لأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وذلك ما قرره الشافعى عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم

والعبد كما جاء فى الحديث « إذا أذنب نكتت فى قلبه نكته سوداء فإذا استغفر وتاب صقل قلبه وإن عاد وأذنب نكتت فيه نكته أخرى حتى تعلو قلبه ، وذلك معنى قوله تعالى « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

وهذه الأمور الثلاثة فى رأى الشيخ رضى الله عنه ورأى جميع أهل طريق الله وهى صون النفس ، وتوفير الحسنات ، وصيانة الإيمان هى أرفع درجات الورع ، وبين الشيخ رضى الله عنه أنها للمريد خاصة إلزاما له فوق ذلك .

الدرجة الثانية . وهى حفظ الحدود عند ما لا بأس به إبقاء على الصيانة وصعودا عن الدناءة ، وتخلصا من اقتحام الحدود أى تجاوزها ، والحدود هنا حدود الشرع وحدود الطريق معا .

فالسالك الصادق يترك كثيراً من المباح إبقاء على صيانة الموجود من

الحسنات لاسيما ترك ما كان فيه شبهة فهو حينئذ يكون فى درجة بين الحلال والحرام فإن تجاوز الحدود فى طاعته إلى ما فيه شبهة فربما جره ذلك إلى ما فيه حرمه .

وجعل الشيخ رضى الله عنه لذلك ميزانا هو الصعود عن الدناءة لأن فيه التخلص من اقتحام الحدود ، ويقول الله تعالى « تلك حدود الله فلا تعتدوها » .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : الدرجة الثالثة : وهى أرفع تلك الدرجات التورع عن كل داعية تدعو إلى شتات الوقت أى التورع عن كل سبب يدعو إلى شتات وقت المريد لأنه حينئذ يكون سببا إلى التعلق بالتفرق أى داعية له ويكون أيضا عارضا فى الطريق يعارض حال الجمع على الله تعالى .

ولما كان الجمع على الله هو الغاية التى ليس بعدها مطلب فكل حال يتعلق به السالك يعارض تلك الجمعية يعتبر نقصا فاحشا . ويكون الورع هو الحارس الذى يحفظ الحال عن كل ما يزاحم مراد الله تعالى منك لأن كل ما يفسد الورع يحول بين المريد وبين القيام بالأمر فى الأعمال وكذلك يصرف القلب عن الشهود الخالص الذى هو مطلوبه وقالوا (لا شىء أسهل من ورع إذا رابك شىء فدع) وبهذا يسهل الورع .

وأنشدوا فى هذا المعنى أبياتا من تائية ابن الفارض الكبرى .

تقربت بالنفس احتسابا لها ولم أكن ... راجيا منها ثوابا فأدنت
وقدمت مالى فى مآلى عاجلا ... وما أن عساها أن تكون منيلتى
وخلفت خلفى رؤيتى ذاك مخلصا ... ولست براض أن تكون مطيتى
ويممتها بالفقر لكن بوصفه ... غنيت فألقيت افتقارى وثروتى
فأثنت لى إلقاء فقرى والغنى ... فضيلة قصدى فاطرحت فضيلتى
فلاح فلاحى فى اطراحى فأصبحت ... ثوابى لاشيئا سواها لطلبتى

باب التبتل

يقول الله تعالى « وتبتل إليه تبتيلا » .

ويقول الشيخ رضى الله عنه : التبتل هو الانقطاع إليه بالكلية وفسر ذلك بقوله تعالى « له دعوة الحق » أى التجريد المحض وهو على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى : الانقطاع عن الحظوظ واللحوظ إلى العالم خوفا أو رجاء بحال ، فحسم الرجاء بالرضى وقطع الخوف بالتسليم ورفع المبالاة بشهود الحقيقة .

والدرجة الثانيه : تجريد الانقطاع عن التعريج على النفس بمجانبة الهوى وتنسم روح الأنس وشيم برق الكشف .

الدرجة الثالثة : تجريد الانقطاع إلى السبق بتصحيح الاستقامة والاستغراق فى قصد الوصول ، والنظر إلى أوائل الجمع .

والغرض من التبتل عزوف النفس عن طلب العوض ، لأن هذا يكون من شأن الذى يعمل لأجل الثواب وليس لأجل وجه الله تعالى وهو خلاف العبد المتبتل الذى يخدم بمقتضى العبودية والحب .

وهذا هو معنى دعوة الحق أى الاستجابة إلى الحق لذات الحق لا لشىء زائد على ذلك وقد فسر المفسرون دعوة الحق بالتوحيد الخالص وبالاخلاص فى العمل .

وقال سيدنا على رضى الله عنه : « دعوة الحق هى التوحيد » وقال ابن عباس : (شهادة أن لا إله إلا الله) وقيل الدعاء الخالص لا يكون إلا لله أى مبنيا

على التجريد الخالص وهو تجريد العمل من الشوائب ليكون خالصا لوجه الله تعالى .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : وهو على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى . تجريد الانقطاع عن الحظوظ واللحوظ إلى العالم أى انقطاع صاحب هذه الدرجة عن الحظوظ فى غير الله تعالى واللحوظ إلى نافع أو ضار من أهل العالم لأن النفع والضر كله بيد الله تعالى ، فلا يخشى أو يرجو أو يبالى بما سوى الله من عمل أو شخص . ومعنى هذا لا يرى فعالا فى الحقيقة غير الله تعالى وأن تقبل الأسباب واحترامها من حيث أنها مرضاة لسيده .

وفى هذا المعنى يقول سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه لأبى العباس المرسى رضى الله عنهما « إن رمت التى لا لجاج فيها فليكن الفرق على لسانك موجودا . والجمع فى جنانك مشهوداً » ومعنى قوله رضى الله عنه أن يكون الجمع أى جمع الأسباب كلها من الله تعالى مشهودا لفؤادك . وإن كان اعتبار الأسباب واستعمالها منطوقا جاريا على لسانك ، فلا يغنيك الظاهر عن الباطن ولا يمنعك الباطن عن اعتبار الأسباب التى هى أفعال الله وجريان ذكرها على لسانك .

ومطلوب الشيخ رضى الله عنه مؤلف منازل السائرين من قارئه هو مطلق التفويض والتسليم لله تعالى فى سائر الشئون والحذر من أن تخدعه مظاهرها أى مظاهر الكون .

ثم قال والدرجة الثانية : تجريد الانقطاع عن التصريح إلى النفس بمجانبة الهوى وتنسم روح الأنس وشيم برق الكشف وفى الدرجة الأولى أراد الانقطاع عن رؤية الخلق فى جانب الحق . وفى هذه الدرجة أراد الانقطاع عن الركون إلى النفس نفسها وقد اعتبر المنجى أو السبب المنجى من هذا الركون ثلاثة أشياء .

« مجانبة الهوى لأن اتباعه يعارض التبتل ، ثم تنسم روح الأنس بالله وهو سبب عظيم آخذ عن الركون إلى هوى النفس لأن السالك يغنيه الأنس بالله تعالى والشعور بامداده ويجد فى ذلك روحا أى ارتياحا يغنيه عن كل تلذذ يحدث من اتباع هوى النفس . ثم شيم برق الكشف أى التطلع والترقب لنفحات الكشف الإلهى ، تلك النفحات التى تغنيه عن كل شيء سواها .

وهذا الكشف كما يؤنس بجمال الحق فإنه يظهر عيوب النفس ويشعر بظلمات غرائز الطبع » .

وهذه الثلاثة : الخلق والنفس والحق هى كل محتوى طريق السلوك بنفحات عقبات تقدم ، وتأخر وعليه يدور كل شأن من شئون الأحوال والمقامات فالخلق من واجبهم عدم رؤية أفعالهم مع أفعال الله تعالى مع التغاضى عن سيئاتهم واساءاتهم والنفس فإنها العقبة الكئود ، فمن خلصه الله من عيوب نفسه فقد فتح فى وجهه أبواب الوصول إليه . ثم استشعار الأنس بالله توصلا إلى حصول الكشف الذى يحدث عادة بعد فناء رؤية الخلق ورؤية النفس والتشبع من رؤية فضل الحق بالكشف وهو أقصى الدرجات وغاية الغايات .

أما الدرجة الثالثة وهى : تجريد الانقطاع إلى السبق بتصحيح الاستقامة والاستغراق فى قصد الوصول . والنظر إلى أوائل الجمع فمعناها الانقطاع أى التخصص فى رغبة السبق إلى الحق بتصحيح الاستقامة وهى الصفة المرادة من هذا الباب كله ، لأن يتبعها الاستغراق أو الفناء فى التشبث بقصد الوصول إلى الحضرة الإلهية وتصويب النظر : نظر القلب دائما إلى أوائل الجمع أى أوائل درجات الجمع على الله تعالى .

وأنشدوا لسيدى على وفا .

سكن الفؤاد فعش هنيئا ياجسد   هذا النعيم هو المقيم إلى الأبد
أصبحت فى كنف الحبيب ومن يكن   جار الحبيب فعيشه عيش رغد
عش فى أمان الله تحت لوائه   لا خوف فى هذا الجناب ولا نكد
لا تخش من فقر وعندك بيت من   كل المنى من أياديه مـــدد
رب الجمال ومرسل الجدوى ومن   هو فى المحاسن كلها فرد أحـــد

باب الرجاء

قال الله تعالى « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » .

ويقول الشيخ رضى الله عنه : الرجاء أضعف منازل المريد لأنه معارضة من وجه واعتراض من وجه وهو وقوع فى الرعونة فى مذهب هذه الطائفة لولا ما فيه من فائدة واحدة ولهذا نطق باسمه التنزيل والسنة ودخل فى مسالك المحققين وتلك الفائدة أنه يفنى حرارة الخوف حتى لا يدعو إلى اليأس .

والرجاء على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : رجاء يبعث العامل على الاجتهاد ويولد التلذذ بالخدمة ويوقظ سماحة الطباع بترك المنآى .

والدرجة الثانية رجاء أرباب الرياضات أن يبلغوا موقفا تصفو فيه هممهم برفض الملذات ولزوم شروط العلم واستيفاء حدود الحمية .

والدرجة الثالثة : رجاء أرباب طيب القلوب وهو رجاء لقانون الحق تعالى الباعث على الاشتياق المنغص للعيش المزهد فى الخلق .

بدأ الشيخ رضى الله عنه كعادته باب الرجاء بقوله الله تعالى « لقد كان

لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » والأسوة الحسنة هى التشبه بالاتباع والاقتداء . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر الناس رجاء فى الله وذلك هو الذى جعله يقول لعمه حينما عرض عليه أن يقبل رجاء قومه وما عرضوه عليه من قولهم « إن أردت ملكا ملكناك أو مالا مولناك أو سيادة سودناك على أن تدع سب آلهتناوالإيذاء بمعتقداتنا فأجاب عمه بذلك القول العظيم الذى جب الباطل ونصر الحق . والله ياعماه لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ماتركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » فكان رسول الله صلى الله عليه لثقته بالفتح ونصر الله أشد الخلق رجاء فى الله تعالى .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : الرجاء أضعف منازل المريد لأنه معارضة من وجه واعتراض من وجه إلى أن قال لولا مافيه من فائدة واحدة ولهذا نطق باسمه التنزيل والسنة ودخل فى مسالك المحققين . وتلك الفائدة أنه يفنى حرارة الخوف حتى لايدعو إلى الأياس .

والرجاء على ثلاث درجات . فأما ماقوله إن الرجاء معارضه من وجه واعتراض من وجه ، فقد أراد بذلك أن شأن القوم — أهل طريق الله مع مولاهم التسليم المطلق والتوكل المحض — ثم أثبت أن الرجاء فيه فائدة واحدة جعلته يدخل مسالك المحققين . وتلك الفائدة أنه يفنى حرارة الخوف وذلك لأن الخوف الزائد ربما دعا إلى اليأس ، والتباطؤ فى السير ثم قال أن الرجاء على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى : رجاء يبعث العامل على الاجتهاد ويولد التلذذ بالخدمة ويوقظ سماحة الطباع بترك النأى ، والنأى هو البعد بسبب اليأس . وقد قدمناه وأما قوله أن الرجاء يبعث العامل على الاجتهاد ويولد التلذذ بالخدمة ويدعو إلى سماحة الطباع فهو ظاهر لا يحتاج لشرح أو تأويل .

وأما قوله والدرجة الثانية : رجاء أرباب الرياضات أن يبلغوا موقفا

يصفو به همهم برفض الملذات فان من رجا شيئا ترك ما يتعارض معه فمن رجا الخير ابتعد عن أسباب الشر وهذا معنى قوله ولزوم شروط العلم أى العلم بموجبات الشرع والعلم بآداب السلوك فى طريق الله تعالى .

وأما قوله واستيفاء حدود الحمية أى ماظل يحتمى به السالك من الفضائل الموجبة للقرب .

ثم قال والدرجة الثالثة : « رجاء أرباب طيب القلوب وهى رجاء فى لقاء الحق تعالى ذلك الباعث على الاشتياق المنغص للعيش المزهد فى الخلق » وذلك لأنه إذا صفا القلب وطاب فتحت عليه نوافذ القرب وأسبابه ، فأصبح كأنه يعلم الحقيقة على اليقين ومن كان هذا حاله فى صفاء سريرته وسلامة صدره تشوق إلى زيادة التقرب ، فاذا حدثت فترة أو حصل بعد تنغص عيشه حتى يستقيم أمره ، وكذلك يزهد فى الاجتماع بالخلق إلا بمزيد له على الله تعالى والعلم بطريق الوصول إلى حضرته تعالى .

وأنشدوا فى الدخول من باب الرجاء :

أتيت إليـــك يارب العباد	بافلاسى وذلى وانفرادى
وهأنا واقف بالـــباب أبكى	زمانا قد بلغت به مرادى
عسى عوضى يبلغى الأمانى	وقد بعد الطريق وقل زادى
وأنت ذخيرتى وبك انتصارى	عليك توكلى وبك اعتقادى
وعنك إشارتى وإليك قصدى	ومنك مسرتى ولك انقيادى
ومالى حيـــلة إلا رجـــائى	وفيك على المدى حسن اعتقادى
ولو أقصيتنى وقطعت حبلى	وحقك لا أحول عن الوداد
فجد بالعفو يامولاى وارحم	عبداً ضل عن سنن الرشاد
وقد وافى لبابك مستجيرا	يخاف من القطيعة والبعاد
توسل بالنبى إليك ليشـــفع	شفيع الخلق فى يوم البعاد
عليه من المهيمن كل وقت	صلاة ماحدا بالركب حادى

باب الرغبة

قال الله تعالى (ويدعوننا رغبا ورهبا) الرغبة إلى لحقوا بالحقيقة من الرجاء وهى فوق الرجاء لأن الرجاء طمع يحتاج إلى التحقيق . والرغبة هى سلوك على التحقيق .

والرغبة على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : رغبة أهل الخبر تتولد من العلم فتبعث على الاجتهاد وتمنع صاحبها من الرجوع إلى غثاثة الرخص .

والدرجة الثانية : رغبة أرباب الحال وهى رغبة لا تبقى من المجهود إلا مبذولا ولا تدع للهمة ذبولا ولا تترك غير المقصود مأمولا .

الدرجة الثالثة : رغبة أهل الشهود وهى تشوق تصحبه تقية وتحمله همة نقية لا تبقى معه من التفريق بقية .

يقول الشيخ رضى الله عنه : « الرغبة إلى الحق بالحقيقة من الرجاء وهى فوق الرجاء لأن الرجاء طمع يحتاج إلى التحقيق والرغبة سلوك على التحقيق » . ومعنى قوله هذا رضى الله عنه . أن الرجاء أو الرغبة فى الشىء إن صحبه الجد والاجتهاد فى الطلب أصبح الرجاء رغبة لأنه بدأ فى سلوك الطريق إلى نيل ما كان يرجوه ، لذلك عد الشيخ الرغبة سلوكا ثم قال والرغبة على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : رغبة أهل الخير وتتولد من العلم فتبعث على الاجتهاد ويقصد بالخير هنا الإيمان بالخبر الوارد عن الله بلسان رسول الله ، ويكون مضمونه : العلم بالشريعة وهى أقوال وأعمال وأحوال وبوجه آخر هى تشريع ومعاملة وتحقيق . ولذا تتولد من العلم فتبعث على الاجتهاد أى تبعث صاحبها بواسطة إيمانه المتين إلى الاجتهاد فى عمله الذى يريد به وجه الله تعالى وذلك يؤدى إلى المعرفة لأن الرغبة الصادقة تمنح صاحبها من الرجوع إلى

غثاثة الرخص لاسيما وأن القوم بنوا أمرهم على العزائم وعلى الصدق فى السلوك وسبب الرخص من الشرع لطف من الله بالضعفاء من عباده ، فأهل الجد فى السلوك لا يركنون إلى الرخص ويعتبرونها جنوحا إلى البطالة .

والرخص قسمان : قسم مباح بل مطلوب كفطر المريض والمسافر وقصر الصلاة فى السفر وصلاة المريض قاعدا ، وفطر الحامل والمرضع إذا إذا خافتا على ولديهما .

وأما الرخص التى لا يركن إليها أهل طريق الله تعالى فهى :

الرخص الناشئة عن اجتهاد العلماء فى مذاهبهم ، فبعضهم أباحها والبعض الآخر منعها فهو يرون فى تلك الرخص غثاثة فيرجعون منها إلى العزائم إذا حدثت لهم ظروفها .

ثم قال « والدرجة الثانية : رغبة أرباب الأحوال وهى رغبة لا تبقى من المجهود مبذولا ولا تدع من المهمة ذيولا ولا تدرك غير القصد مأمولا فرغبة أرباب الأحوال رغبة اضطرارية لتلبسهم بأحوال السلوك التى لا تبقى من الجهد مبذولا إلا وتبذله طلبا لبلوغ الشهود فهى لاتدع بالهمة العلية ذيولا أو فضولا يرجع إليها لأنها لا تترك فى مجال السلوك الصادق لغير القصد المأمول مأمولا آخر سواه وصاحب الحال لا يرده عن مقصده سوى حال أقوى منه ولا بد أن يكون حالا أرفع من الذى كان فيه فيرتقى إليه .

ثم قال والدرجة الثالثة : رغبة أهل الشهود وهى تشوف يصحبه تقية تحمله عليها همة نقية لاتبقى معه من التفرق بقية .

ومعنى قوله رغبة أهل الشهود أى أهل شهود الحق وأصحاب مقام الإحسان . هذه الرغبة تشوف أو استشراف . أى تطلع يصحبه تقية من

الوقاية والتوقى والتقى . وتلك التقية أى معه المانعة تحمل عليها وتدعو لها همة فى صاحب ذلك المقام نقية لأن مقام الإحسان كما ورد فى حديث جبريل عن عمر رضى الله عنه حينما سأل الرسول عليه السلام ما الإحسان قال « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » .

فالدرجة الأولى فى الإحسان أن يعبد العبد ربه كأنه يراه وتلك مرتبة حق اليقين أى مرتبة الشهود الخالص حيث يعبد الله تعالى تماما كأنه يراه فان لم يبلغ السالك هذه المرتبة فليعبد الله تعالى على شريطة أن الله تعالى يراه وهى مرتبة وإن كانت أقل من الأولى ففيها من الشرف العظيم شرف المراقبة والإخبات والتقوى حيث أن العبد يعبد ربه على بصيرة دائمة وهى العلم بأن الله يرى .

ومما يمت إلى مثل هذا المعنى بصلة ماروى عن بعض شيوخ الطريقة الذى كان له من التلاميذ عدد لا بأس به . ثم قرأ عليهم طالب جديد وكان من خلوص السريرة وسلامة القلب بمكان . فرقاه شيخه فى بضعة شهور إلى درجة حسده عليها إخوانه وألهم الله الشيخ بذلك ، فجمع تلاميذه وقال لهم ليأتنى كل واحد منكم بطائر من الطيور « فراخ أو حمام » أو غير ذلك ثم يذبح كل واحد منكم طيره فى مكان لا يراه فيه أحد فانطلقوا وما لبثوا أن جاءوا بعد ساعات معدودة وقد ذبح كل واحد منهم طيره إلا ذلك المريد الجديد فجاء بعد يوم أو يومين ومعه طائره لم يذبحه فقال له الشيخ لم يا بنى لم تذبح طيرك وقد ذبح كل من إخوانك طيره . فقال : يامولاى قد أمرتنى بأن أذبحه فى مكان لا يرانى فيه أحد وكل مكان ذهبت إليه كنت أرى الله مشرفا على يرانى فيه فلم أخالف أمرك وجئت بالطير حيا لتأمر بما تريد فقال الشيخ للجميع يا أبنائى لهذا السبب « أى لكونه يعلم أن الله يراه فى كل مكان » ثم قال الشيخ مرة ثانية لهذا السبب قربه الله تعالى إليه فرقاه وإن أنا سوى خادم مأمور .

والنتيجة أن الشيخ صاحب منازل السائرين رضى الله عنه يشير إلى أحد حالين . إما حال الفناء والمشاهدة وإما حال اليقظة والمراقبة وهذا نفسه مادعا إليه حديث الإحسان الصحيح حيث قال الرسول الكريم إلى جبريل عليه السلام فى جوابه أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك أى فاعلم وتيقن بأن الله تعالى يراك .

وهذ الحال الذى أشار إليه الشيخ رضى الله عنه يجمع بين الشهود والتوقى والتقوى كما يشير إليها الحديث وفيه ضرب من الحذر للسالك المجد من الالتفات إلى كل ما سوى حضرة ربه حذرا تاما فيه تقية وهو ما يريده الشيخ رضى الله عنه من القول فى هذه الدرجة .

وأنشدوا فى هذا الباب قولهم :

سقانى ثم حيانى ... وبالتوحيد أحيانى
وقال ألست قلت بلى ... مجيبا حين نادانى
حبيبي واحد أحد ... وما فى ملكه ثانى
تجلى وأحيي ذكر ربانى ... فلاطفنى وآنسنى
وبالاحسان بيانى
فشوقى وقربى ... وبعد البعد أدنانى
فدع يا عاذلى عذلى ... فقلبى مغرم عانى
وشوقى زاد من حرقى ... إلى من ليس ينسانى
فكم لله من كرم ... ومن فضل وإحسان

قسم المعاملات

وهى عشرة أبواب: الرعاية ، المراقبة،الحرمة ، الإخلاص ،والتهذيب والاستقامة ، والتوكل ، والتفويض ، والثقة ، والتسليم .

باب الرعاية

قال الله عز وجل « فما رعوها حق رعايتها » .

وقال الشيخ رضى الله عنه : الرعاية صون بالعناية وهى على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : رعاية الأعمال .

والدرجة الثانية : رعاية الأحوال .

والدرجة الثالثة : رعاية الأوقات .

فأما رعاية الأعمال فتوفيرها بتحقيرها والقيام بها من غير نظر اليها وإجراؤها مجرى العلم الأعلى للتزين بها ، وأما رعاية الأحوال فهى أن يعد الاجتهاد مراءاة ، واليقين تشبعا والحال دعوى . وأما رعاية الأوقات فهى بأن تقف مع كل خطوة ثم أن تغيب عن خطواتك بالصفا من رسمه ثم إن تذهب عن شهود صفوه .

والرعاية رعايتان . رعاية العبد لأمر ربه ونهيه ورعاية الرب لعبده فى مقاماته وأحواله وحركاته وسكناته .

ثم إن رعاية العبد لأوامر ربه تكون بصون العمل عن الرياء وعن الفساد بالجهل وأول رعاية العبد رعايته بالعلم . وذلك بطلبه من مصادره الصحيحة وتطبيق قواعده بالعمل على مقتضى ماعلم ، فيكون ماقدر له من العلم قد تم رواية ودراية والعارفون بالله تكون هممهم معلقة برعاية العلم والعمل معاً لأن العلم والعمل وسيلتان لهم وهمة القوم تهفو دائماً إلى النتيجة السارة من العلم والعمل . تلك النتيجة المؤدية إلى رضاء الحق ،

فالعلم ثم العمل موقوفة نتائجهما على وجود الإخلاص فيهما . ولذلك قال الشيخ رضى الله عنه : الرعاية صون بالعناية وهى على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : رعاية الأعمال .

والدرجة الثانية : رعاية الأحوال .

والدرجة الثالثة : رعاية الأوقات .

أما رعاية الأعمال فتكون بتصفيتها من الشوب كالرياء والنفاق ثم توفيرها بعدم رؤيتها والافتخار بقيمتها واجرؤها على مجرى الاخلاص وليس على مجرى التزين والتفاخر بها . وعرفان الزيادة والنقصان فيها وايقاعها بشروطها على مقتضى العلم ثم استغلالها وتحقيرها بعد ذلك بالنسبة لعظمة خالقها الموجهة اليه . وقد قالوا من علامات رضا ربك عنك إعراضك عن رؤية نفسك ومن علامات قبول عملك استصغار شأنه عندك ومن شأن العارفين بالله أن يستغفروا الله عقيب الطاعة كما يستغفره غيرهم عقيب المعصية وهذه رعاية الأعمال .

وأما رعاية الأحوال فانها تكون مشبهة باليقين بعيدة عن الدعوى ثم فضلا عن أن السالك يتهم نفسه فيها منصرفا عن رأى الناس فيه وفى أحواله وإن كان رأيهم حسناً وهذا معنى قول الشيخ (بالابتعاد عن مرآة اليقين تشبهاً والحال دعوى والتشبه هنا معناه الافتخار : افتخار الإنسان بما يملكه ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم (المتشبه بما لم يعط كلابس ثوبى زور) فالسالك الحق يعتقد أن ماحصل له من يقين أو حال أو مقام إنما هى منة من الله تعالى عليه فلا يتشبه أى لا يفتخر بها كأنها صادرة عن قدرته ، وإنما التشبه والافتخار يكون بما من الله به على عبده من منن موجبة للشكر عليها بدل الافتخار بها وقد خص الشيخ اليقين بالذكر لأنه روح الأعمال وسناد الأحوال .

وأما عد السالك رؤية الأحوال دعوى فذلك يكون اتهاما لنفسه وتطهيراً لها من رعونة الادعاء .

وأما رعاية الأوقات : فذلك يغيب عن رسمه وكونه فاعلا فيقلل ذاك من شهود صفوه وفرحه بمواهب ربه سبحانه فيما تجلى عليه من أوقاته ويعتبر ذلك صيانة لها . بل ولا يجب أيضاً أن يقف عند هذا الصفاء لكيلا يعوق تقدمه بالوقوف معه فيغيب عن ذلك الصفو بمشاهدة المقصد الأعلى والغرض الأسمى ولكي يكون مع الله فى كل وقت وفى كل حال .

وأنشدوا فى النهى عن عدم الرعاية فقال قائلهم :

أتذكر اسمى باللسان تظاهرا ... بحبى ومنك القلب للغير يذكر
ألم تدر ياعبدى بأنى ناظر ... اليك وأدرى مابقلبك يخطر
لسانك يقول الله والقلب غافل ... يقول مكون وهو فيه مصور
فلا تدعى حبى وقلبك مظلم ... وحالك عن أمرى بعيد مكدر
وقلبك لم يشهد جلالى وعزتى ... ألم تعتقد أنى عظيم وناظر
خلقتك ياعبدى بفضلى ورحمتى ... وتعرض عنى هل لربك تهجر
وقلب به غيرى ففى الحب شرق ... وكل ذنوب ماخلا الشرك تغفر
فإن كنت تهوانى تجرد عن السوى ... تفز برضوانى وحظك وافر

باب المراقبة

قال الله تعالى « فارتقب إنهم مرتقبون » .

وقال الشيخ رضى الله عنه المراقبة دوام ملاحظة المقصود وهى على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : مراقبة الحق تعالى فى السير اليه على الدوام بين تعظيم مذهل ومداناة حاملة وسرور باعث .

والدرجة الثانية : مراقبة نظر الحق اليك برفض المعارضة وبالإعراض عن الاعتراض ونقض رعونة التعرض .

والدرجة الثالثة : مراقبة الأزل بمطالعة عين السبق استقبالا لعلم التوحيد ومراقبة ظهور اشارات الأزل على أحايين الأبد. ومراقبة الخلاص من ورطة المراقبة .

أما قول الشيخ رضى الله عنه : المراقبة دوام ملاحظة المقصود وقدمنا فى باب الرغبة حديث الإحسان الذى مضمونه « أن تعبد الله كأنك تراه » .

فالمراقبة دوام رعاية العبد لعلم ربه وتيقنه باطلاعه على قلبه وعمله وقصده القلبى والنفسى بهذا العمل فهو سبحانه وتعالى مطلع على ظاهره وباطنه . فاستمرار هذه المراقبة به تنمو الاعمال وتصلح الأحوال وهى ثمرة العلم وتمام قوام العمل ، والغفلة عن هذا الشأن أى عن المراقبة تفسد بدايات المريدين وقد « قيل من صحت بدايته صحت نهايته » .

ويقول الحريرى « من لم يحكم مابينه وبين الله تعالى بالتقوى والمراقبة لن يصل إلى الكشف والمشاهدة » .

وقال الجنيد « من تحقق فى المراقبة خاف على فوات لحظة من وقته لم يكن فيها مع ربه » وقال ذو النون المصرى « من علامات المراقبة إيثار ما أنزل الله وتعظيم ماعظم الله وتصغير ماصغر الله » وقيل المراقبة مراعاة القلب لملاحظة الحق مع كل خطوة وخطرة .

وقال ابراهيم الخواص « المراقبة خلوص السر والعلانية لله عز وجل وقد أجمع أهل طريق الله تعالى على ان مراقبة الله تعالى فى الخواطر والسنحات من أقرب الطرق وعلو الدرجات .

ولذا قال الشيخ رضى الله عنه فى الدرجة الأولى مراقبة الحق تعالى

فى السير اليه على الدوام بين تعظيم مذهل ومد اناة حاملة وسرور باعث فقوله : « تعظيم مذهل » معناه امتلاء القلب بتعظيم الله عز وجل . بحيث يذهله ذلك التعظيم عن تعظيم غيره . وأما قوله « ومدانات حامله » فيريد به دنوا وقربا حاملان لصاحبهما على استقامة السلوك فى الطريق .

وأما قوله « سرور باعث» فهوالفرحة والتعظيم واللذة التى يجدهاالسالك فى قلبه بتعظيم الحق الموجب للقرب منه .

وأما قوله رضى الله عنه والدرجة الثانية (مراقبة نظر الحق برفض المعارضة والاعتراض عن الاعتراض ونقض رعونة التعرض ذلك لأن المراقبة تجمع بين الباطن والظاهر لحفظ الظاهر بحفظ الحركات العملية كالعادات وصيانة الباطن بحفظ الخواطر والإرادات فيخلو الباطن من التعرض للنقض بمعارضة إرادة الحق وهذا التجريد فى التوحيد تجريد أرباب العزائم عند المريدين المجدين والعارفين على السواء .

وقد جعل الشيخ رضى الله عنه : فى قوله بالاعراض عن الاعتراض « لأن الاعتراض فتنة يعصم الله السالكين المخلصين منها وذلك بالاعراض عن مسببات الاعتراض .

وأما نقض رعونة التعرض فهو مكافحة أسباب الاعتراض وذلك بنقض الأسباب والحجاب وهى مايلقيه الشيطان من وساوس وشبهات فى أنفس السالكين .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه والدرجة الثالثة . مراقبة الأزل بمطالعة عين السبق استقبالا لعلم التو-يد ومراقبة ظهور إشارات الأزل على أحايين الأبد ومراقبة الخلاص من ورطة المراقبة .

أما قوله مراقبة الأزل بمطالعة عين السبق فهو شهود معنى الأزلية

والقدم الذى لا أول له بمطالعة عين السبق أى بشهود سبق الحق تعالى لـكل ما سواه إذ هو الأول الذى ليس قبله شيء فمتى راقب السالك ذلك السبق عرف معنى الأزلية والأبدية فى مقابلها فيبدو له حينئذ علم التوحيد الصحيح وهو شهود أفراد الحق فى أزليته وفى أبديته وأنه كان ولم يكن معه شيء ويبقى بعد فناء كل شيء ويكون الأمر كما يقول الله تعالى : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » .

وأما قوله رضى الله عنه : ومراقبة الخلاص من ورطة المراقبة ، فيريد بذلك غيبة المراقب عن شهود نفسه وعن أنه مراقب لربه إبعاداً للدعوى ومسببات الافتخار والمقصود هنا هو الغيبة عن الدعوى بالفناء فى سعة الحق .

وأنشدوا فى هذا :

سبيت الورى طرا وأنت محجب بفرط ظهور فى ظلام الدجنة
فهامت بك الأرواح من غير نظرة فكيف بمن يهواك لو زالت الحجب
وأصبحت معشوقا للقلوب بأسرها بلطف سرى فى الكل أظهره الحب
ومركز سر الأمر فى الشيء قلبه ولا ذرة فى الكون إلا لها قلب
فان سكر العشاق كنت نديمهم فشرب كئوس العلم فى خمرها القرب

باب الحرمة

قال الله تعالى « ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » .

ويقول الشيخ رضى الله عنـــه : الحرمة هى التحرج من المخالفات والمجاسرات وهى على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : تعظيم الأمر والنهى لا خوفا من العقوبة فيكون

خصومة للنفس ولا طلبا للمثوبة فيكون مستنزعا للآخرة ولا مشاهدة لأحد فيكون متدينا بالمراءاة فإن هذه الأوصاف كلها شعب من عبادة النفس.

والدرجة الثانية : إجراء الخبر على ظاهره وهى أن يبقى أعلام توحيـــد العامة الخبرية على ظاهرها ولا يتحمل البحث عنها تعشقا ولا يتكلف لها تأويلا ولا يتجاوز ظواهرها تمثيلا ولا يدعى عليها إدراكا أو توهما .

ثم قال والدرجة الثالثة : صيانة الانبساط عن أن يشوبه جرأة، وصيانة السرور عن أن يداخله أمن ، وصيانة الشهود عن أن يعارضه سبب .

والحرمة هنا بمعنى الاحترام المانع للمخالفات وأما قول الشيخ والمجاسرات فمعناه كل مايدعو إلى الجرأة وعدم صيانة الحرمة .

وأما قوله الدرجة الأولى : تعظيم الأمر والنهى لا خوفا من العقوبة وإنما حياء من الله وطاعة له فيبعد بذلك عن خصومة النفس التى كانت طيعة فإذا فتح لها باب الجرأة خاصمته بأمر الله وخاصمها وكما قال لا خوفا من العقوبة قال أيضاً ولا طمعاً فى المثوبة فيكون مستنزعا للآخرة أى طلب استحقاقها بعمله انتزاعا وأما قوله ولا مشاهدة لأحد فمعناه ألا يرى فى عبادته لله أحد سواه فيكون متدينا بالمراءاة أى يكون مرائيا فى عبادته وفى سلوكه للخلق ولذا قال رضى الله عنه فان هـذه الأوصاف كلها شعب من عبادة النفس .

قال والدرجة الثانية إجراء الخبر على ظاهره أى بحسب بيان الكتاب والسنة اتباعا لظاهر الشرع واحتراما لعقيدة العامة بإجراء الخبر على ظاهره ولا يتحمل تبعة الجدل فيها تعشقا للمناظرة والبحث ولا تكلفا للتأويل والتفسير بل لا يتجاوز ظاهرها أى ظاهر هذه الأحكام كما جاءت فى الكتاب ونطقت به السنة ولا يدعى أنه يدرك منها ما لا يدركه غيره فان ذلك يكون ادعاء أو بذرا للوهم وداعية للشك .

ثم قال والدرجة الثالثة : صيانة الانبساط أى التبسيط فى حضرة الحق من أن تشوبه جرأة الدلال والعجب ثم قال وصيانة السرور عن أن يداخله أى يخالطه امن من مكر الله تعالى . وقال وصيانة الشهود أن يعارضه سبب ومعناه صـــيانة حال الشهود للحق من أن يبدو فيه اعتماد على سبب من الأسباب الزائلة الفانية فيهبط عن هذا الحال وعن السرور الذى صح له بذلك الشهود .

وأنشدوا فى هذا الباب قولهم :

أيا نفس فى المأثور من خير مرسل وأصحابه والتابعين تمســكى
عساك إذا بالغت فى نشر دينه بما طلب من نشرله أن تمســكى
وخافى غدا يوم الحساب جهنما إذا لفحت نيرانها أن تمسكى

باب الاخلاص

قال الله عز وجل (ألا لله الدين الخالص) .

وقال الشيخ رضى الله عنه : الإخلاص تصفية العمل من كل شوب (والشوب ما يشوب صـــفاء الشىء من الكدر) ثم قال وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : إخراج رؤية العمل من العمل والخلاص من طلب العوض عن العمل والنزول عن الرضى بالعمل .

والدرجة الثانية : الخجل من العمل مع بذل المجهود وتوفير الجهد بالاحتماء من الشهود ورؤية العمل من نور التوفيق من عين الجود .

الدرجة الثالثة : إخلاص العمل بالتخلص من رؤية العمل وأن تدعه يسير مسير العلم وتسير أنت مشاهدا للحكم حراً من رق الرسم.

وقدمنا أن الشوب مايشوب صفاء الشيء من كدر وذلك الكدر يتأتى من الجهل أو من أهواء النفس كطلب مدح الناس والهرب من ذمهم أو طلب تعظيمهم وغير ذلك . فتلك كلها من العلل والشوائب التى تشوب إخلاص السالك .

قال الشيخ والإخلاص على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : إخراج رؤية العمل عن العمل ومعناه أن السالك إذا رأى عمله آت من نفسه ولم ير أنه من منن الله عليه فقد شوب إخلاصه فى عمله وكذلك يجب على السالك أن يتخلص من طلب العوض على عمله لأن طلب العوض على العمل يجعل رؤية العمل أنه صادر من العبد فيرضى عن عمله ويزعم فى نفسه أن عمله يستوجب أجراً محتوما لابد أن يناله .

ولذلك كانت هذه المحنة أشد ما يمتحن به السالكون لطريق الله تعالى والذى يخلصه من رؤية عمله ومن تجسيمه ومن طلب العوض عله مشاهدة منة الله تعالى فيه وأنها سبب التوفيق فى العمل والتوفيق كان من الله لا من نفسه لأن كل خير فى العبد هو مجرد توفيق وإحسان من الله تعالى إليه يحتاج للشكر ولمضاعفة الإخلاص . فالذى يخلصه من هذه الورطة معرفته بربه وفضل ربه عليه ومعرفة نقصه واعوجاج نفسه فسوء ظن العبد بعمله ورؤية أنه موقوف على القبول يحول بينه وبين الرضى عن ذلك العمل .

فإن أراد الله أن يتولى عبده أنهضه للعمل وصغره فى نفسه . وقال النهرجورى « من علامة من تولاه الله فى أحواله أن يشهد التقصير فى أفكاره واستذكاره والضعف فى صدقه فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية له فيزداد بذلك فقرا إلى الله وانكسارا له وإن كثرت أعماله » .

فالمراد من العمل القيام برسم العبودية وتعظيم جانب الربوبية وليس المراد من الأعمال عند المخلصين طلب الأعواض والأجور أو الرغبة فى الأحوال والمقامات فإن ذلك يكون قدحا فى إخلاصهم .

ولذا قال بعض الصادقين (اتقوا حلاوة الطاعة فإنها سموم قاتلة لمن وقف معها) .

والناس فى عبادة الله باعتبار إخلاصهم على ثلاثة أقسام : فمنهم من يعبد الله خوفا من عقوبته أو طمعاً فى رحمته وهم عوام المسلمين . ومنهم من يعبد الله محبه لذاته وشوقا إلى لقائه لاطمعاً فى جنته ولاخوفا من ناره وهم المحبون من السـائرين إلى الله تعالى ، ومنهم يعبد الله قياما بوظائف العبودية وأدبا مع عظمة الربوبية وهم المحبوبون المصونون .

وفى هذا المعنى تقول رابعة العدوية :

كلهم يعبدونك من خوف نار ويرون النجاة حظا جزيلا
أو بأن يسكنوا الجنان فيضحوا فى رياض ويشربون سلسبيلا
غير أنه ليس لى فى سواك حظ لا أرتجى غير من أحب بديلا

* * *

وعرف أبوطالب المكى الإخلاص بأنه إخراج الخلق من معاملة الحق وإخراج النفس من رؤية تلك المعاملة .

ثم قال الشيخ صاحب منازل السائرين الدرجة الثانية هى الخجل من العمل مع بذل الجهود وتوفير الجهد بالاحتماء من الشهود ورؤية العمل فى نور التوفيق من عين الجود .

ويريد رضى الله عنه بالخجل من العمل رؤية التقصير فيه وإن كان ذلك مع بذل الجهد فى إكثاره .

وأما قوله وتوفير الجهد أى صيانة هذا الجهد بالاحتماء من شهوده أى شهود أنه عامل وأن له جهدا فى العمل وذلك يتم بأن ينظر إلى عمله من زاوية واحدة هى نور التوفيق الواصل إليه من عين الجود الإلهى .

ويقول الله تعالى فى هذا المعنى « والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون» وفسر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله «هو أن الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه » .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه والدرجة الثالثة : إخلاص العمل بالخلاص من العمل فتدعه يسير سير العلم وتسير أنت مشاهدا للحكم حرا من رق الرسم » .

ومعنى قوله إخلاص العمل بالخلاص من العمل أى بالخلاص من رؤيته ورؤية أن لك عملا له قيمة ومن رأى الشيخ رضى الله عنه أن تدعه أى العمل يسير سير العلم أى سير العلم الظاهر فى أحكامه وتجويده والإتيان به على شرائط العلم بالشرع ثم تقف أنت مشاهدا للحكم الإلهى فيه من حيث أنه مقبول أو غير القبول — وتكون حرا من رق الرسم فى عملك أى خارجا عن أحكام الرسوم — والرسوم كل ماسوى الله تعالى من الفانيات ومن أمثال ذلك : قولك فى البيت ولم يبق إلا رسمه فالرسوم لها أحكام وأوهام تفضى إلى غير الحقيقة . ومن الرسوم رؤية الخلق ورؤية النفس فتخلص من كل ذلك هاربا إلى العبودية لله وحده فتكون مع القادر المريد . وليس مع آثار قدرته ومعالم إرادته فتكون مع الله فى كل حال لا مع عملك ولا مع نفسك ولا مع الأوهام التى هى عبودية لغير الله .

وأنشدوا فى ذلك :

الله ربى لا أريد سـواه ... هل فى الوجود الحق إلا الله
ذات إله الحق يا قوام ذواتنا ... هل كان يوجد غيره لولاه
لاغرو فى أنا رأيناه به ... فالنور يظهر ذاته فتراه

فالسالكون مشاهدون لصنعه   مستغرقون بفكرهم إياه
والعارفون مشاهدون لذاته   حتى كأن قلوبهم مثواه
يا غائبا والحق فيه حاضر   أتغيب عنه وما شهدت سواه
من لم يشاهد بالبصيرة ذاته   فلقد أحاط به حجاب عماه
من لا يرى فى كل حال غيره   فمن المحال عليه أن ينساه
سبحان من ملأ الوجود أدلة   ليلوح ما أخفى بما أبداه
سبحان من لو لم تتح أنواره   لم تعرض الأضداد والأشباه
مولاى أنت الواحد الصمد الذى   فى حضرة الملكوت شاهدناه
مولاى أنسك لم يدع لى وحشة   إلا محا ظلماتها بسناه
مولاى عبدك لا يخاف تعطشا   ايخافه والحق قد رواه
مولاى لا آوى لغيرك إنه   قد حرم الهدى من لم تكن مؤواه
أنت الذى خصصتنا بوجودنا   أنت الذى عرفتنا معناه
لم أفش ما أودعتنيه فإنه   ما ذاق سر الحق من أفشاه
كل من يعلم أنك الفرد الذى   بهر العقول فحسبه وكفاه

باب التهذيب

قال الله تعالى « فلما أفل قال لا أحب الآفلين »

وقال الشيخ رضى الله عنه : التهذيب محنة أرباب البدايات وهو شريعة من شرائع الرياضات وهى على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : تهذيب الخدمة بأن لا يخالطها جهالة ولا يشوبها عادة ولا تقف عندها همة :

الدرجة الثانية : تهذيب الحال من أن يجنح الحال إلى علم ولا يخضع لرسم ولا يلتفت إلى حظ .

الدرجة الثالثة : تهذيب القصد وتصفيته من ذل الإكراه وحفظه من مرض الفتور ونصرته على منازعات العلم .

أما قوله التهذيب محنة أرباب البدايات وهو شريعة من شرائع الرياضات فيريد بمحنة التهذيب ومعناه التلطيف والتنظيف وإزالة مايكدر الصفاء أن فيه محنة للعبد وبهذا الوصف يكون التهذيب محنة للمبتدئين يمتحنون بها لما فيها من الصعوبة التى يجب عليهم تذليلها وهو أيضا طريقه للمرتاضين الذين يمرنون أنفسهم عليها فتنقاد للحق وتستسلم لصواب التهذيب .

ثم قال وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : تهذيب الخدمة من أن يخالطها جهالة أو تشوبها عادة أو تقف عندها همة ، فالمطلوب من السالك الجد تصفية خدمته من هذه الأنواع الثلاثة : مخالجة الجهالة ومعنى المخالجة المخالطة وشوب العادة ووقوف همة السالك عند رؤية الخدمة .

أما الجهالة : فانها إن خالطت العبودية أوردت العبد غير مواردها ووضعته فى غير موضعه فقد تكون الأفعال أفعالا مفسدة للعبودية ، ويظن العبد لجهله صلاحها فيسكن فى موضع التحرك ويتحرك فى موضع السكون وقد يجمع فى موضع الفرق ويفرق فى موضع الجمع بالنسبة للمعرفة .

فالخدمة الخالية من العلم بآدابها وحقوقها قد تبعد صاحبها بدلا من أن تقربه وإن كان مقصده بها القرب .

وأيضا يجب تخليص الخدمة من شوب العادة بأن يجعل السالك من عاداته محكا لعبوديته فيتحاكم إلى عوائده النفسية لا إلى العلم بآداب السلوك وواجباته فان النفس قد تتدخل بعاداتها ومألوفاتها فى عبودية صاحبها لله فتركن إلى بسائط الأعمال ظنا منها أنها من كرائم الطاعات . أو أن النفس

تألف مافيه هوى من المألوفات صارفة النظر عما هو أكرم من نظر الشرع أو ما هو أقرب فى طريق الحقيقة .

ثم قال والدرجة الثانية : تهذيب الحال بألا يجنح الحال إلى علم ولا يخضع لرسم ولا يلتفت إلى حظ . فان حكم السالك علمه الذى قد يكون مخدوعا بعلمه الناقص والحال فوق العلم وإن كان من الدرجات التى يوصل إليها بالعلم . وقد يوحى إليه علمه الناقص بكمال حاله وتعتبر الحقيقة إن حاله ناقص .

وقد قيل للجنيد رضى الله عنه « إن أهل المعرفة قد يصلون إلى حال تترك فيه الحركات من باب البر والتقرب إلى الله » فقال الجنيد (كلا إنما هذا كلام قوم تكلموا باسقاط الأعمال عن الجوارح وهى عندى عظيمة والذى يزنى ويسرق أحسن من الذى يقول هذا . فان العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه رجعوا فيها ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البرذرة إلا أن يحال بى دونها) . ومعنى قوله والذى يزنى ويسرق الخ فان الإنسان قد يزنى ويسرق وهو يجهل وأما هذا فيشرع مع شرع الله افتئاتا على الشرع .

فالحال الصحيح روح العلم الخالص ، والعلم الخالص ينتج العمل المثمر فان أنتج الحال عملا غير مثمر عارض الحال حق العلم الصحيح وحق العمل الخالص بعلم ناقص فأفسد الحال والعلم والعمل جميعا .

وأما قوله « لا يخضع لرسم أى لا يخضع لقاعدة مرسومة تصدر من غير طاعة أهل طاعة الله ، فان صاحب الحال الجيد طالب للحقيقة وليس للرسوم .

وأما قوله ولا يلتف لحظ أى أن صاحب الحال الكامل لا يشتغل عن حاله لفرحه بحاله فان ذلك يكون من حظوظ النفس .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه الدرجة الثالثة : تهذيب القصد وهو

تصفيته من ذل الإكراه وحفظه من مرض الفتور ونصرته على منازعات العلم .

فأما تهذيب القصد من ذل الإكراه فهو تصفيته من أن يكون صاحب العمل كالمكره عليه باعتبار أن الله قد أسره به فيعمله كالأجير المكره الذى أكرهته الحاجة على طلب العمل ومن شأن العمل لله أن يكون خالصا لوجه الله يحدوه الحب ويدفعه الإخلاص فهو عمل محبب يصدر عن عامل محب لعمله وبهذا يكون القصد فى العمل خالصا لوجه الله .

ثم قوله وحفظه من مرض الفتور أى بصيانة حسن القصد فى العمل مما قد يؤدى إلى الفتور ومن خلق النبي صلى الله عليه وسلم (أنه كان يصوم ويفطر وينام ويسهر) .

وكل ما يؤدى إلى النشاط فى العمل كالاستجمام والترويح بين أوقات العمل يجعل العمل مرغوبا فيه وكل اقحام فى العمل وإرهاق الطاقة مؤد إلى الفتور فيه .

والمراد تصفية العمل وتجريده عن الشوائب بخلوصه لله دون علة أو غرض فان من عمل لأجل الأجر فقيمته اجره ومن أحبك لمنفعة أو فائدة فحبه مقصور عليها ومن أحبك لذاتك فهذا هو المحب الصادق الموجب لكرامتك وإحسانك .

وفرض الشيخ رضى الله عنه تهذيب قصد المريد وتصفية مسلكه وصدق عبوديته فتكون محبته لله خالصة دون علة من رهب أو رغب أو رؤية إرهاق .

وبهذا وذاك ينتصر السالك على منازعات العلم وذلك بمعنى الجدل فيما يستحق على عمله من ثواب وتقدير ذلك الثواب أو رؤية مايفوته من ملذات الدنيا فى سبيل حبه لله فتلك المنازعات والمجادلات التى قد يأتى بها العلم

المظنون ينتصر السالك عليها بصفاء حبه لله وخلوص مقاصده فى الله تعالى وذلك هو الحال الجيد .

وأنشدوا فى هذا الباب قولهم

طرف الذى طلب التحقيق سهران وعقله بشراب الله سكران
وقلبـــه فيه أخلاق مطهرة حميدة وهو بالتوفيق ملآن
إن رمت أخلاقه الحسنى تعددها فلتصغ منك لما أبديه آذان
هى الوقار كذا التقصير فى أمل وشبه رحمة أيضا وإيمـان
نصيحة غيرة شكر مجاهـــدة تصوف ثم إخلاص وإحسـان
خوف من الله مع صحو له أدب وذكر موت وتفويض وإيقان
وغبطة فى التقى رشدا مرابطة شجاعة ثم تحقيق وإمعان
وكظم غيظ وعفو والخشوع كذا أنس وشوق إلى المولى وأشجان
والحب فى الله ثم البغض فيه به رفض وصدق وما تبديه فتيان
وحسن ظن وزهد وعفة وحيا أمانة ثم تســـليم وإذعان
صلابة الدين ثم الاستقامة مع قناعة وعـلى الرحمن تكلان
ورقة والتأنى والتعلق فى تحصيل علم لدى شيخ له شان
سلامة الصدر من حقـد مراقبة فراسة وذكر أن الله منان
والمدح والذم فيهما الاستواء كذا تفـكر وحكمة تنمو وتزدان
مروءة واعتقاد والإنصياع به حب الخمول فلا يدريه إنسان
صبر وسعى وحلم توبة وترجح محو حتى يأتى عنه رضـوان
وفاء عهد وإنجاز لموعدة عقاب نفس عتاب فيه تبيان
تواضع ثم إيثار مشاركة حساب نفس له فى العدل ميزان
كذا عبودية لله وحرية كذا إرادة والسخا مافيه نقصان

وقصد طول حياة للتقى أبدا خير مبادرة إذ فيـه إمكان
فخذ حميدة أخلاق ثمانية وسبعين عقـد فيه سرجان

باب الاستقامة

قال تعالى الله « فاستقيموا إليه » .

وقال الشيخ رضى الله عنه قوله تعالى إليه إشارة إلى عين التفريد والاستقامةروح تحيا بها الأحوال كما تربو للعامة عليها الأعمال وهى برزخ بين وهاد التفرق وروابى الجمع وهى على ثلاث درجات .

ثم قال الدرجة الأولى : الاستقامة على الاجتهاد فى الاقتصاد لاعاديا رسم العلم ولا متجاوزا حد الإخلاص ولا مخالفا نهج السنة .

الدرجة الثانية : استقامة الأحوال وهى شهود الحقيقة لاكسباورفض الدعوى لا علما . والبقاء مع نور اليقظة لاتحفظا .

والدرجة الثالثة : الاستقامة بترك رؤية الاستقامة ، بالغيبة عن طلب الاستقامة بشهود إقامة الحق وتقويمه عز وجل .

الاستقامة كلمة جامعة وهى الكون فى السير بين حدين : حد التفريط وحد الإفراط وتكون الاستقامة بمعنى أوسع هى طريق السداد فى السلوك : السداد فى النيات والسداد فى الأقوال والسداد فى الأعمال وصاحب الاستقامة الصادقة يكون بين يدى مولاه قائما بحقيقة الصدق والوفاء بالعهد ، ويقول بعض العارفين ولعلهالشبلى « كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة فان نفسك متحركة فى طلب الكرامة وربك يطالبك بالاستقامة » .

وأما قول الشيخ رضى الله عنه إشارة إلى عين التفريد فمعناه شهود تفريد الحق عز وجل فى الأمر والنهى والخلق والإرادة فلا يرى السالك غير فردانية الحق يستضيء بها فى سلوكه فقوله عن التفريد إشارة إلى هذا الجمع ، والجمع عكس الفرق فالفرق أن يرى الحادث والقديم والأسباب والمسبب فى حين واحد وأما الجمع فلا يرى فيه سوى الفاعل المختار وهو الله عز وجل فى سائر الأحوال ولذا قال الشيخ إن الاستقامة روح تحيا بها الأحوال كما تربو للعامة عليها الأعمال وهى برزخ بين وهاد التفرق وروابى الجمع ، والبرزخ هو الحاجز بين شيئين متغايرين والوهاد هى الأمكنة المنخفضة من الأرض وقد استعارها الشيخ رضى الله عنه لحالة الفرق لأن الفرق حجاب ، والسائر فى وهاد الفرق لا يرى أعلى من تلك الوهاد وليس الذى هو على الروابى وهوصاحب الجمع وإستعار له كلمةالروابى لأن الكائن فى أعلى الروابى ينظر مافى الوهاد ومافى غيرها فشهوده أرقى وأعلىضرورة من صاحب الوهاد ، الذى يسير فى مسالك الفرق فإذا الخط السالك هذا المعنى علم أنه يكون فى أول سلوكه متفرقا فى وهاد الفرق وطالبا لروابى الجمع فيستقيم فى سيره بين التفريط الذى يسببه شهود الفرق وهو رؤية المظاهر المتعددة دون حقائقها فيختلط عليه الأمر ويدعوه إلى التفريط المغاير للاستقامة المؤدية به إلى الجمع الذى هو مقصوده ومطلوبه .

وأما الإفراط فهو الإفراط فى رؤية الجمع والمفرط فى جمعه لا يميز بين الأسباب والمسببات ولا بين الحقيقة ومظاهرها وهذا إفراط فى المعرفة قد يوقع فى الحلول أو الاتحاد فيكون كالذى قال شعرا :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
ونحن روحان حللنا بدنا

أو كالذى قال : —

فما صلى لى سواى ولم تكن صلاتى لغيرى فى إدا كل ركعة

فالأول قال بالحلول والثانى قال بالاتحاد .

والعارفون الكمل يميزون بين الحقيقة ومظاهرها وبين الأسباب ومسببها مع تجردهم من إدعاء الأسباب ومن رؤية أنفسهم بشهود بارئهم المتعالى الأوحد دون غيره والأبدى قبل خلقه .

ولأجل الاستقامة بين التفريط والإفراط فى السلوك وفى الشهود قال شيخنا أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه لتلميذه أبى العباس المرسى رضى الله عنهما ليدربه على المعرفة الحقة والجمع الصحيح على الله قال : ويا أبا العباس إن رمت التى لاجمجمة فيه أى الأمر الصواب الخالص الذى لا تردد فيه « ليكن الفرق فى لسانك موجودا والجمع فى جنانك مشهودا » معنى القول أن ترى الفرق والجمع بعين واحدة فى وقت واحد ثم ترد الفرق إلى الجمع والمظاهر إلى الحقيقة فترى الفعال المتوحد بفعله ظاهرا وفى الوقت نفسه ترى الأفعال التى لامصدر لها سواه .

ولذا قال الشيخ صاحب منازل السائرين رضى الله عنه عند التقسيم أن لدرجة الأولى فى الاستقامة هى الاستقامة على الاجتهاد وفى الاقتصاد لاعاديا رسم العلم ولا متجاوزا حد الإخلاص أى لا متعديا على رسوم الذى يفرق بين الأشياء لتقريرها . بأفكارها ولا متجاوزا حد الإخلاص اللتوحيد بأفكار مقتضياته لأنك حينئذ تكون متعديا حدود الشريعة ومقتضيات الحقيقة : ولذا قال فى آخر الجملة ولا مخالفا نهج السنة أى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إقرار التوحيد عاملا بقوله تعالى (إياك نعبد) وهو حد الفرق (وإياك نستعين) وهو عين الجمع .

نن عدم الاقتصاد فى الإجتهاد قد يؤدى تكون النتيجه و ةأوألىإد

الفترة وهى الفتور نتيجة للمبالغة أو التقصير أو الإخلاص المقرون بالاتباع يؤدى بصاحبه إلى روابى المعرفة .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه والدرجه الثانية : استقامة الأحوال وهى شهود الحقيقة لا كسبا ورفض الدعـــوى لا علما والبقاء مع نور اليقظة لا تحفظا .

وقدمنا أن صاحب الجمع الصحيح يشهد الفرق فى الجمع والكثرة فى الوحدة فهو الموحد المستقيم .

وقوله لا كسبا أى لا ترى لك كسبا فى ذلك الشهود جابته بعملك لأن الحقيقة أنه منة من الله تعالى عليك والكسب من أعمال النفس . ومادامت النفس موجودة ترى نفسها فلا تشهد الفردانية فى الجمع لظلمة النفس ورؤية كسبها وهذا يكون أثنينية لا تفريد يؤدى إلى جمع وشهود .

وأما قوله رفض الدعوى لا علما فالدعوى هى نسبة الحال إلى نفسك، والاستقامة لا تصح إلا بترك رؤية النفس لأن رؤية النفس تغطى نور المعرفة .

هذا ولا يكون الحاصل لك على ترك الدعوى مجرد العلم فتكون قد تركت الدعوى ظاهرا لأنه منهى فى السلوك عنها بل يجب ترك الدعوى بالحال لا بالعلم ولا بالمقال .

وبهذا يترك السالك الدعوى حالا أى فى حال الشهود وحقيقة أى تجريدا خالصا للحقيقة .

وأما قوله البقاء مع نور اليقظة فمعناه أن هذه الاستقامة على الشروط التى قدمنا موجبة لليقظة ضرورة أى يقظة السالك فى سلوكه فيجب أن يتجرد من نسبة هذه اليقظة لنفسه لأنها منة من الله عليه فإن رآها من

نفسه اطفأ تلك اليقظة بظلمة الغفلة لأن الذى جعل اليقظة وهى سبب الحفظ هو الله عز وجل فهو الموقظ الحافظ .

ويشير الشيخ بذلك إلى أن هـــذه الحال إنما هى من مواهب الله ولا تصلح فى حال رؤيته للاجتهاد لأن الاجتهاد ودواعيه من الاقتصاد وغيره من شئون البداية والسلوك للمقامات أما استقامة الأحوال فمواهب من مواهب التقريب فلا يصح فيها إدعاء لكسب وإلا هبط صاحب الحال من درجة الحال إلى شهود الاكتساب والعمل .

ولذلك قال الشيخ فى الدرجة الثالثة الاستقامة بترك رؤية الاستقامة والغيبة عن تطلب الاستقامة بشهود إقامة الحق وتقويمه أى السالك فى سلوكه لأن رؤية الاستقامة تحجبه عن شهود الحقيقة وقوفا مع الاستقامة .

ولذا قال الشيخ الغيبة عن تطلب الاستقامة بشهود إقامة الحق للعبد وتقويمه إياه .

ويؤخذ من هذا الباب ثلاثة أمور :

الأمر الأول : أن يستقيم السالك لطريق الله غير مبالغ فى الأعمال ولا مقصر فيها .

الأمر الثانى : ألا يدعى لنفسه فى استقامته جهدا أو فعلا لأن الذى هداه للاستقامة هو مولاه عز وجل استجابة لنيته فى ابتغاء الوصول إليه بسلوكه ويكون التحقيق أنه وإن كان هو السالك فإنه الله هو المسلك أى الميسر للسلوك على التحقيق .

الأمر الثالث : إذا من الله تعالى عليه نتيجة لاستقامته فى سلوكه بحال جليل فيجب أن يشهد ذلك ولا يرى لنفسه كسبا لهذا الحال بسلوكه فيحجب ويقع فى وهاد الاجتهاد ودركة الرسوم لأن الحال حينئذ لا يكون إلا منحة من المحول وهو الله سبحانه وتعالى .

وأنشدوا فى ذلك قولهم :

قلبي بكم متصلب متسكن متقلب … وخيال حبكم أبدا يجيء ويذهب
ما أنتم منى سوى … نفسى فأين المهرب
ألقيت نفسى فاغتدت … فيما لكم تتقلب
وتركتنى فوجدتنى … لا أم لى ثم ولا أب
وجحدت ما قبلى وما … بعدى ولا أتريب
ونفيت عنى الاختصا … ص فوجهه أتقرب
أنا ذلك القدوس فى … قدس العلا متحجب
أنا ذلك الفرد الذى … فيه الكمال الأعجب
وأنا العجيب ومن به … مما حوى ذا المعجب
لى فى العلا فوق المكا … ن مكانة لا تقرب
فى كل منبت شعره … منى كمال معرب
وبكل صوت طائر … فى كل غصن يطرب
وبكل مرآى صورتى … تبدو وقد تتحجب
حزت الكمال بأسره … فلأجل ذا أتقلب
وأقول أنى خلقه … والحق ذاتى فاعجب
نفسى أنزه عن مقا … لة التى لا تكذب
الله أهلا للعلا … وبروق برقى طلب
أنا لم أكن هو لم يزل … ألأى شىء أطنب
ضع الكلام فلا كلا … م ولا سكوت معجب

* * *

هذه الأرجوزة ولو بدا فيها التسامى والمبالغة فى العلو فلا تجنح نحو الحلول ولا نحو الاتحاد بدليل قول قائلها :

وأقول إنى خلقـــه والحق ذاتى فأعجب

إلى أن قال :

الله أهـل للعـــلا وبروق برقى طلب
أنا لم أكن هو لم يزل فلأى شىء أطنب

ويريد بذلك التوسط وهو الاستقامة بين وهاد الرسوم والاغيار وروابى الجمع وشهود الحقيقة التى لاثمة غيرها .

باب التوكل

قال الله تعالى (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه التوكل كلة الأمر كله إلى مالـكه والتعويل على وكالته وهو من أصعب منازل العامة عليهم وأوهى السبل عند الخاصة ، لأن الحق قد وكل الأمور كلها إلى نفسه وآيس العالم من تملك شىء منها وهو على ثلاث درجات كلها تسير مسير العامة :

قال الدرجة الأولى التوكل مع الطلب ومعاطاة السبب على نية شغل النفس ونفع الخلق وترك الدعوى .

الدرجـــة الثانية التوكل مع إسقاط الطلب وغض الطرف عن السبب اجتهادا لتصحيح التوكل وقمعا لشرف النفس وتفرغا لحفظ الواجبات .

الدرجة الثالثة : التوكل مع معرفة التوكل والمنازعة إلى الخلاص من علة التوكل وهو أن تعلم ملـكة الحق تعالى للأشياء ملـكة عزة لا يشاركه فيها مشارك فيـكل شريكه إليه فإن من ضرورة العبودية ان يعلم العبد أن الحق تعالى هو مالك الأشياء وحده .

أماقوله رضى الله عنه التوكل كلة الأمر إلى مالكه والتعويل على وكالته وهو من أصعب منازل العامة عليهم وأوهى السبل عند الخاصة .

ومعنى قوله رضى الله عنه : كلة الأمر إلى مالكه فإن المالك الحقيق لأفعالنا وأقوالنا وأحوالنا هو الله سبحانه وتعالى فكل ما يأتى به المتوكل عرف من تلك الحقيقة فيعول على المالك فيما يملك من الأسباب والمسببات .

ثم قال وهو من أصعب منازل العامة عليهم فإن العامة قد تشغلهم الأسباب المتعددة عن المسبب المتوحد، لذلك رد الأمر إلى صاحبه بالاتكال عليه أمر صعب على العامة لتعلقهم بالأسباب وأما قوله وأوهى السبل عند الخاصة لعرفانهم بعلم اليقين بل بعين اليقين أن الأمر كله لله وليس للعبد من الأمر شيء فلا يكون ثمة شيء يوكل مولاه فيه وإلا فكيف يوكلون المالك على ملكه وهم يعلمون أنهم ملك لله دون غيره .

فالخاصة لما تحققوا من ذلك علموا حقيقة التوكل فى أعلى ذراه وهو تفويض الأمر إلى مالكه . وذلك لأنه مادام الأمر كله لله عز وجل وليس للعبد منه شيء فيكون معنى توكلهم التسليم والتسليم أعلى درجة من التوكل لأن التوكل قد يكون فيه إبهام فى المعرفة ولكن التسليم واضح دون إبهام أو تفصيل من حيث أنه تسليم الأمر لمالكه الحقيق ويكون المراد هنا اعتماد العبد على الله فى سائر أموره بخروجه عن رؤية التصرف بنفسه أو بحوله وقوته .

لذا يقول الله تعالى (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) ويقول سبحانه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) باعتبار أن الأمر جار عليهم ولكنهم منه وإليه .

ثم قال الشيخ وهو على ثلاث درجات كلها تسير مسير العامة :

الدرجة الأولى : التوكل مع الطلب ومعاطاه السبب على نية شغل النفس بالسبب مخافة ونفع الخلق وترك الدعوى فأما قوله فى الدرجات الثلاث أنها تسير مسير العامة لانخلاع العارفين عن هذا التوكل بالتسليم وتفويض الأمر إلى مالكه فى كل كبيرة وصغيرة .

وكانت أول تلك الدرجات التوكل مع الطلب ومعاطاة السبب وأن تعاطى الأسباب لاينافى التوكل إذا رجع فيها المرء إلى المسبب . ومن فائدة التوكل مع تعاطى الأسباب شغل النفس عن البحث مخافة التهمة والشك وبالخلط بين الأسباب والمسببات وكذلك من فوائد الاشتغال بالأسباب نفع الخلق وترك الدعوى فى أنه متوكل وله وكيل فصاحب هذه الدرجة متوكل على الله لا يترك الأسباب بل بمعاطاتها بنية فعل الخير وشغل النفس والسعى على العيال ومعنى شغل النفس أن الإنسان إذا لم يشغل نفسه بالحق شغلته بالباطل ولا سيما إذا كان عاطلا عن العمل ومن سمو المعتقد لدرجة التيقين ويتبع كل ذلك طبعا ترك دعوى التوكل فالاشتغال بالأسباب من حق الله على عبده وهى الأعمال التى يترتب عليها الثواب والعقاب .

ثم قال والدرجة الثانية : التوكل مع إسقاط الطلب وغض الطرف عن السبب اجتهادا لتصحيح التوكل وقمعا لشرف النفس وتفرغا إلى حفظ الواجبات .

أما قوله مع إسقاط الطلب ليس قوله الطلب من الله وإنما المراد الطلب من الخلق أو من الأسباب نفسها يرتفع عن ذلك تصحيحا لتوكله وقمعا لشرف نفسه والشرف هنا إما من الاستشراف وهو تطلع النفس وهو أمر مذموم وإما أن يكون القصد من شرف النفس برفعتها بالغنى أو بالمنصب أو بالعشيرة وهو أمر مذموم أيضاً يجب التخلص منه بتصحيح التوكل وتصحيحه إن الكل من الله وبالله وإلى الله وفى هذا راحة وفيه تفرغ لحفظ الواجبات الاعتقادية والعبادية .

ثم قال والدرجة الثالثة. التوكل مع معرفة التوكل والنزوع إلى الخلاص من علة التوكل ومعناه معرفة حقيقة التوكل والرضى بما يفعله الوكيل ليس اختيارا أو منازعة وذلك هو الخلاص من علة التوكل وهو أن تعلم أن ملكة الحق تعالى للأشياء ملكة عزة لا يشاركه فيها مشارك فلا تجعل لك اختيارا فتتوكل على الله فيما تحب وتكره . لذلك قال فإن من ضرورة العبودية أن يعلم العبد أن الحق تعالى هو مالك الأشياء وحده .

وأنشدوا فى ذلك المعنى قولهم .

توكل على الرحمن حق توكل فليس لما فى علمه من مبدل
ونحن ولا تعجب لفى غفلة عما يراد بنا فى عاجل أو مؤجل
نسير ولا ندرى كركب سفينة وعمر الفتى كالفىء حم التنقل

باب التفويض

قال الله تعالى حاكيا عن مؤمن آل فرعون (وأفوض أمرى إلى الله).

التفويض ألطف إشارة وأوسع معنى من التوكل فإن التوكل بعد وقوع السبب والتفويض قبل وقوعه وبعده وهو عين الاستسلام والتوكل شعبة منه وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : أن يعلم أن العبد لا يملك قبل عمله استطاعة فلا يأمن من مكر ولا ييأس من معونة ولا يعول على نية .

الدرجة الثانية : معاينة الإصرار فلا يرى عملا منجيا ولا ذنبا مهلكا ولا سببا حاملا .

الدرجة الثالثة : شهود انفراد الحق بملك الحركة والسكون والقبض والبسط ومعرفته بتعريف التفرقة والجمع .

أما قول الشيخ رضى الله عنه إن التفويض ألطف إشارة وأوسع معنى من التوكل فإن التوكل يحصل بعد وقوع السبب أى التعامل مع الأسباب .

والتفويض قبل وقوعه وبعده ولذلك قال وهو عين الاستسلام والتوكل شعبة منه .

فإن المفوض يتبرأ كلية من الحول والقوة ويفوض الأمر إلى مالكه من غير أن يقيمه وكيلا عنه فى مصالحه .

فالتفويض على هذا المعنى أعم من التوكل ويقول سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه : «العلم كله باب من التعبد ، والتعبد كله باب من الورع ، والورع كله باب من الزهد ، والزهد كله باب من التوكل » .

فالتفويض يجمع كل ذلك مع التوكل وينفرد بانخلاع العبد من الحول والقوة قبل أن يستعمل الأسباب وبعد ان يستعملها . فلا يتخذ من الرب وكيلا وهذا يجعل من العبد مفوضا كل الأمور إلى مالكها والميزة هنا أى ميزة التفويض كما يقول الشيخ أن التوكل يقع بعد السبب ، والتفويض قبل وقوعه وبعـــده ويعنى طبعا بالسبب الاكتساب والتعامل مع الأسباب ويؤيد ذلك قوله فى التفويض أنه عين الاستسلام والانقياد بالكلية إلى الحق سبحانه وتعالى فيما يريد سواء كان ما يريده الحق فى صالحه أو فى غير صالحه ثقة بعلم الله لما ينفعه وما يضره فهو لا ييأس من معونته لأنه فوض أمره إلى من بيده الخلق والأمر .

وأما قوله ولا يعول على نية أى لا يعتمد على نيته وعزمه إن تمسك بهما على أن نيته وعزمه أيضا بيد الله لا بيده يجريها الله على يديه مشيئة وتسبيبا .

ثم قال والدرجة الثانية : معاينة الاضطرار فلا يرى عملا منجيا ولا ذنبا

مهلكا ولا سببا حاملا ، وذلك لمعاينة افتقاره وحاجته إلى الله فى كل حال ولهذا لا يرى العبد أن عملا من أعماله منجيا .إلا ما شاء الله تعالى ولا ذنبا أيضا مهلكا ولا سببا حاملا فتفويضه إلى الله تفويض إلى علم الله القديم ومشيئته لا إلى علمه هو ولا إلى عمله وكذلك لا يرى ذنبا مهلكا لأن فضل الله وسعة رحمته ومغفرته مع فاقته إليه أوسع من أن يجعل الذنب مهلكا لرجائه فى رحمة الله الواسعة بحيث لا يصر على الذنب قط . وذلك نفسه أى علمه باحاطة الله بكل أعماله يمنعه من اقتحام الذنوب المهلكة من حيث أن هذا يجعله لا يصر على ذنب أبدا .

وأما قوله ولا سببا حاملا معناه أن السبب بيد المسبب لا بيده ولا بيد السبب نفسه فأنه هو وفعله والأسباب التى يقوم بها تجرى تحت مشيئة الله وحده .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه والدرجة الثالثة : شهود إنفراد الحق بملك الحركة والسكون والقبض والبسط لما تقدم من التوحيد للحق فى الفعل والأمر وأما قوله ومعرفته بتصريف التفرقة والجمع فذلك بأن يشهد جمعا فى فرق وفرقا فى جمع بمعنى أنه يشهد الأسباب بتصريف المسبب . وهذا هو الفرق ثم أنها آيلة إليه جميعا وهذا معنى الجمع ومعنى ذلك أن يكون السالك مشاهدا لمواضع الفرق ومواطن الجمع وذلك بنسبة أفعال الخلق جميعا إلى مراد الحق فإنه موجدها ومسببها وهو المنفرد بها .

وأنشدوا فى ذلك :

قل للمحب إذا أتى لطريقنا ... إن كنت تهوانا وتطلب قربنا
لا تلتفت بعد الوصول إلى الحمى ... للغير تطرح فى زوايا بعدنا
واطرح شكوك النفس لا تحفل بها ... واملأ فؤادك باليقين تفز بنا
وتعاين الأسرار يسطع نورها ... وتشاهد المعنى بحضرة قدسنا

وسبيل قربى فى اتباع المصطفى فهو الصراط المستقيم لحينا
فاسلك على آثاره متمسكا بشمائل المختار تظفر بالمنـــا
والنفس فاحذر من هواها إنه يلقيك فى جب القطيعة والعنا
وانهض إلى حب الحبيب مجاهدا شهواتها بصفو الفؤاد بحبنا
وإرادتى سبقت فلا تك طامعا فى الخلق تجنى الذلواحذر مقتنا

باب الثقة بالله

قال الله تعالى (فإن خفت عليه فألقيه فى اليم) قال الشيخ رضى الله عنه : الثقة سواد عين التوكل ونقطة دائرة التفويض وسويداء قلب التسليم وهى على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : هى درجة الأياس وهو يأس العبـد من مقاومة الأحكام ليقعد عن منازعة الأقسام وليتخلص من قحة الأقدام .

والدرجة الثانية : درجة الأمن وهى أمن العبـد من فوت المقدور وانتقاض المستور فيظفر بروح الرضى وإلافبعين اليقين وإلا فبلطف الصبر .

والدرجة الثالثة : معاينة أزلية الحق ليخلص من محن القصود وتكاليف الحمايات والتعريج على مدارج الوسائل .

يقول الشيخ رضى الله عنه إن الثقة سواد عين التوكل ونقطة دائرة التفويض وسويداء قلب التسليم ومراده رضى الله عنه أن الثقة خلاصة التوكل كما أن سواد العين أشرف ما فيها .

وأما قوله ونقطة دائرة التفويض فـكما أن التفويض عليه مدار التوكل فيـكون وجوده بالنسبة للتوكل كوجود النقطة بالنسبة للدائرة فالثقة بالله هى النقطة المركزية التى يدور عليها مدار التفويض وهى أيضا قوام التوكل

وكذلك كانت الثقة بالله أيضاً سويداء قلب التسليم والسويداء (نقطة الشعور من القلب وهى المهجـــة) فلو كان التوكل محتاجا إلى التفويض والتفويض محتاجا إلى التسليم كانت الثقة بالله سويداء قلب هذا التسليم .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه وهى على ثلاث درجات أى أن الثقة بالله على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : درجة الأياس وهى أياس العبد من كل نافع أو ضار سوى الله . ويأسه أيضا من مقاومة الأحكام أى أحكام الله فيقعد بهذا وذاك عن منازعة الأقسام التى قسمها الله له ولغيره فيخلص بذلك من قحة الإقدام على المنازعة لعباد الله فى أنصبتهم من الله وذلك لأن الواثق بالله لاعتقاده أن الله إذا قضى أمرا أو حكم حكما فلا مرد لقضائه ولا معقب لحكمه .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه الدرجة الثانية درجة الأمن وهو أمن العبد من فوت المقدور أو انتقاض المستور فيظفر بروح الرضى وإلا فبعين اليقين وألا فبلطف الصبر وذلك إنما حصل عنده ذلك الأياس مما دون الله للثقة بربه والتحقق بمعرفته علم أن ما قضاه ربه لامرد له فأمن من فوت نصيبه من الدنيا أو الآخرة أو من القرب إلى الله فيظفر حينذاك بروح الرضى وبما فيه من لذة ونعيم .

ويروى عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله (إن الله بعدله وقسطه جعل الروح والفرح فى اليقين والرضى وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط) فإن صاحب الثقة بالله أو صلته ثقة بربه إلى الرضى فيظفر بقوة الإيمان ودخل بإيمانه عين اليقين وعين اليقين هى مباشرة القلب للشيء كأنه واقع .

فإذا لم يصل السالك لهذه الدرجة وذاك المقام من الثقة والتفويض والتسليم فليعتصم بلطائف الصبر وما يؤدى إليه الصبر من حسن العواقب كما ورد فى الحديث (إن استطعت أن تعمل فله بالرضى مع اليقين فافعل فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره النفس خيراً كثيراً .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : الدرجة الثالثة : معاينة أزلية الحق ليتخلص من محن القصود وتكاليف الحمايات والتعريج على مدار الوسائل .

ومعناه أن المشاهد لأزلية الحق وانفراده بالمشيئة والفعل منذ الأزل فيتخلص حينذاك من محن القصود الشخصية التى تغاير مراد الحق وايضا يخلص من تكاليف الحمايات وهى أن يحتمى من فعل الله بأسباب يتوهمها فإن تنق فؤاده من ذلك بواسطة الثقة بالله بعد عن الركون لمدارج الوسائل والمدرجة قد تكون مؤدية إلى النفع أو إلى التهلكة وهذا لا يعلمه سوى الله وحده .

وأنشدوا فى حال الواثق المتثبت بفضل الله :

أنا فى حالة النوى والتدانى ... لست ألوى عن الغرام عنانى
لا يروم السلو قلبى ولا يفـ ... ـتر عن ذكر من أحب لسانى
فاقتراب الديار لفظ وقرب الـ ... ـود معنى فاسلك سبيل المعانى
يا خليلىّ خليانى ووجـدى ... وامزجا لى بذكره واسقيانى

٭ ٭ ٭

باب التسليم

قال الله تعالى (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : وفى التسليم والثقة والتفويض ما فى التوكل من علل وهو من أعلى درجات سبل العامة .

وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : تسليم ما يزاحم العقول مما يشق على الأوهام من الغيب والاذعان لما يغالب القياس من سير الدول والقسم والإجابة لما يزع المريد عن ركوب الأحوال .

قال والدرجة الثانية : تسليم العلم إلى الحال والقصد إلى الكشف والرسم إلى الحقيقة .

والدرجة الثالثة : تسليم ما دون الحق إلى الحق مع السلامة من رؤية التسليم بمعاينة تسليم الحق إياك إليه .

أما قوله رضى الله عنه وفى التسليم والثقة والتفويض ما فى التوكل من علل وهو من أعلى درجات سبل العامة فهو يريد بذلك ما فى التوكل من دعوى نسبة الشيء إلى نفسه وأنه وكل ربه فيه ثم توكل عليه وفى ذلك من الدعوى ما فيه لأن الأمر كله لله: العبد والأسباب والمسببات كلها آثار لأفعال الله . وهو يقضى فى خلقه بما يريد . وفى الثقة والتفويض أيضا الواثق والموثوق به والمفوض والمفوض إليه وكلها من علل الدعوى وإن كان ذلك من أعلى درجات سبل العامة الذين لم يبلغوا بعد إلى حقائق المعرفة .

والتسليم ليس فيه من تلك العلل إلا علة واحدة وهى ألا يكون

تسليمه صادرا عن محض الرضى والاختيار وذلك بما يشوبه من إكراه النفس عليه .

وأما التسليم عن طواعية ورضى وعند شهود للحقيقة فإن أعلى هذه المقامات كلها فعلى صاحب التسليم أن يتخلص حتى من رؤية التسليم لأن العارفين قد شغلهم الاستغراق فى رؤية الجمع عن رؤية النفس فضلا عن نسبة الفعل إليها .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه وهو على ثلاث درجات :

االدرجة الأولى : تسليم ما يزاحم العقول مما سبق على الأوهام من الغيب والاذعان لما يغالب القياس من سير الدول القسم والإجابة لما يذع المريد وفى نسخة لما يفزع المريد من ركوب الأحوال .

والتسليم هو الخلوص من كل شبهة تعارض الخبر أو تعارض المشيئة ومعنى هذا أن ما جاء به الشرع عن الله ومعنى المشيئة الإرادة الكونية التى لا تأثير فيها إلا لله وحده فإذا تخلص العبد مما يعارض الشرع أو القدر كان هو صاحب القلب السليم المقصود بقول الله تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) فصاحب القلب السليم وبعبارة أخرى التسليم الخالص لله فإن صاحب هذا التسليم ينجو بفضل الله يوم القيامة لأنه قد نجا فى حياته من ضروب المنازعة وأسبابها ومن ذلك ترك الجدل فى الدين وشبهات المجادلين والمتكلمين والإيمان إيمانا خالصا محضا بذات الله وأسمائه وصفاته كلها تسليما لا تشوبه شبهة معارضة أو شهوة من الوهم عارضة فتعارض إرادة الرب بما يرى العبد وقد يسلم العبد مرغما بإرادة الرب فالتخلص من تلك الشبهة ومن ذلك التسليم أيضا أقرب إلى سلامة الصدر وخلوص القلب الموصل لمعرفة حقوق الرب وشهود ذاته فى أسمائه وصفاته وأفعاله وعلى هـذا يكون التسليم الخالص من أرفع مقامات

العبودية بل هو المقام الموصل لمقام الصديقية ، وكل هـــذا معنى قول الشيخ ما يزاحم العقول مما سبق على الأوهام أو فى الأفهام فالتسليم يقتضى ترك ما يزاحم به العقل أحيانا بتقديراته لأوامر القلب وفطرته فمثلا أن العقل قد يرى أن الأسباب هى كل شىء وبذا يسمو عن رؤية المسبب ويأبى القلب بفطرته لا الاعتماد على المسبب دون الأسباب فيصدق بقلب السالك معارضا لتوهم العقل لغير الحق الذى استقر فى القلب والتسليم الخالص ينفى التجرد من ذلك التوهم وفى قوله والإذعان لمـا يغالب القياس من سير الدول أو القسم فالقياس فيما تجرى به الأقدار خلال الدهور على الدول والقسم ليس قياساً يصح دائماً فإن الله مقسم القسم ومدول الدول وقد يرى العقل وجود ملك باذخ وسلطان وطيد وفى علم الله سرعة زواله وقد يكون فيما يقسم الله للناس من فقر خيرا وقد يكون فيما يقسم من غنى شرا والله يعلم وأنتم لا تعلمون فالقياس هنا بعقلنا الضعيف قد يكون قياساً مع عظيم الفارق فلا يعترض الإنسان العارف على أفعال الله بما يقع فى الذهن من شبهات القياس .

قال الشيخ والإجابة لمـا يفزع المريد من ركوب الأحوال قد تـكون صحتها لمـا يذع المريد عن ركوب الأهوال وبهذا يكون القول واضحا لأن صاحب التسليم — لا يقتحم أهوال الوهم أو الفرض أو القياس فإن كان المراد مايفزع المريد من ركوب الأحوال فيـكون معناه أن المسلم لله الواثق به قد يركب ما يفزع غيره من المطالب العالية والأحوال الـكريمة التى يجبن عند اقتحامها .

ثم قال والدرجة الثانية : تسليم العلم إلى الحال والقصد إلى الـكشف والرسم إلى الحقيقة .

ويعنى تسليم العلم إلى الحال عـــدم الوقوف عند ظواهر العلم والانصراف إلى حقائقه التى قد يتذوقها صاحب الحال الرفيع ثم ترك

التقليد فى الخبر إلى اليقين الذى يشبه العيان فيقع العلم الصحيح مطابقا للحال الصحيح وسلطان الحال أقوى من سلطان مجرد العلم وأعظم استكشافا للحقيقة وأما قوله تسليم القصد إلى الكشف أى يجعل قصده دائما ما يبين الكشف الصحيح من معالم الطريق وبهذا يصح العلم ويصح السلوك ويصير القصد مطابقا لما يظهره الحال من الكشف للحق وبهذا وذاك يتم ترك الرسم إلى الحقيقة كما يقول الشيخ وهكذا يكون تسليم صاحب الفناء فى الله التسليم الذى يقضى إلى شهود الحقيقة فيفنى الرسم بنور الحقيقة كما يفنى الظلام بالنور الطبيعى كنور الشمس .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه الدرجة الثالثة تسليم ما دون الحق مع السلامة من رؤية التسليم بمعاينة تسليم الحق إياك إليه وهذا شيء واضح بما قدمنا لأن تسليم مادون الحق إلى الحق معناه الخلوص خلوص العبادة وخلاص المشاهدة لله وهذا نفسه يضمن السلامة من رؤية التسليم نفس التسليم وذلك بمعاينته أو مشاهدة تسليم الحق إياك إليه أى أنه هو الذى دعاك إليه وهو الذى جعلك تسلم له وهو الذى أوصلك إلى حضرته .

وأنشدوا مخمسة الشيخ عليش رضى الله عنه .

إلزم باب ربك واترك كل دون　　　واسأله السلامة من دار الفتون
لا يضيق صدرك فالحادث يهون　　　الله المقـــدر والعالم شئون
لا تكثر لهمك ما قدر يكون

الذى لغيرك لا يصـــل إليك　　　والذى قسم لك حاصل لديك
اشتغل بربك والذى عليك　　　من فرض الحقيقة والشرع المصون
لا تكثر لهمك ما قدر يكون

نحن والخلائق كلنا عبيـــد　　　والإله فينا يفعل ما يريد

همك واهتمامك ويحك لا يفيد　　القضـــاء تحتم فالزم السكون

لا تكثر لهمك ما قدر يكون

فكرك واختيارك دعهما وراك　　والتدبير أيضا واشهد من يراك

مولاك المهيمن إنه يـــراك　　فوض له أمورك وأحسن الظنون

لا تكثر لهمك ما قدر يكون

* * *

(القسم الرابع وهو قسم الأخلاق)

وفيه عشرة أبواب

باب الصبر، وباب الرضى ، وباب الشكر ، وباب الحياء ، وباب الصدق، وباب الآثار ،وباب الخلق، وباب التواضع ،وباب الفتوة،وباب الانبساط .

باب الصبر

قال الله تعالى (واصبر وما صبرك إلا بالله) .

قال الشيخ رضى الله عنه . الصبر حبس النفس على جزع كامن من الشكوى وهو أيضا من أصعب المنازل على العامة وأوحشها فى طريق المحبة وأنكرها فى طريق التوحيد وهو على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى : الصبر عن المعصية بمطالعة الوعيد ابقاء على الإيمان وحذرا من الحرام وأحسن منها الصبر عن المعصية حياء .

الدرجة الثانية : الصبر على الطاعة بالمحافظة عليها دواما وبرعايتها اخلاصا وبتحصينها علما .

الدرجة الثالثة الصبر فى البلاء بملاحظة حسن الجزاء وانتظار روح

الفرج وتهوين البلية بعد رؤية أيادى المنن وتذكر سوالف النعم وفى هذه الدرجات الثلاث نزل قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اصبروا) يعنى فى البلاء (وصابروا) يعنى عن المعصية (ورابطوا) يعنى على الطاعة . وأضعف الصبر الصبر لله وهو صبر العامة وفوقه الصبر بالله وهو صبر المريد وفوقهما الصبر على الله وهو صبر السالكين .

ويقول الشيخ رضى الله عنه فى الدرجة الأولى : الصبر حبس النفس على جزع كامن من الشكوى وهو أيضا من أصعب المنازل على العامة وأوحشها فى طريق المحبة وأنكرها فى طريق التوحيد .

أما معنى قوله الصبر حبس النفس على جزع لأن الصابر لا يخلو فى صبره من الألم ، ولكن إذا حبس النفس على ما تكره انتظارا للفرج أو انصافا بمكارم الأخلاق أو تقربا لله عز وجل هان ذلك الجزع ولمح الصابر فى صبره بريق الرضى وإن لم يكن من مقامه وحينئذ يكون صبره بالله وهذا معنى الآية التى صور بها الشيخ كلامه فى الصبر (واصبر وماصبرك إلا بالله) فبعد أن يتحامل الصابر على نفسه بالصبر والمصابرة يأخذ الله بعد أصدقه فيكون صبره بالله وهذا معنى الآية وهى مما خوطب به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم سـيد الأولياء والصديقين وأكمل رسل الله أجمعين .

ووقف رجل على الشبلى رضى الله عنه : وسأله أى صبر أشد على الصابرين فقال الصبر فى الله قال السائل لا : قال الصبر لله ، قال السائل . لا قال الصبر مع الله قال السائل : لا . قال الشبلى : فأى صبر أشد قال الصبر عن الله فصرخ الشبلى صرخة كادت تزهق روحه مسلما بقول السائل وذلك لأن الصبر بالله والصبر فى الله كلها من مراضى الله إلا الصبر عن الله فماذا يكون بها إلا المروق من باب الله وهذا مستحيل أو من عين

الله وهو مستحيل أيضا ولا ثم إلا مفارقة مرضات الله وهذا أقصى الصبر وأشنعه ولذا صرخ الشبلى .

وقيل فى قوله تعالى «اصبروا وصابروا ورابطوا» أنه انتقال وتدريج من الأدنى إلى الأعلى فالصبر باب لايدوم إلا بالمصابرة فتكون المصابرة هى القاعدة وأما المرابطة فهى من الربط والشكر ولذا سمى المرابط على الثغور مرابطا فتكون هى الحزم فى الصبر وفى المصابرة ايضا .

وقيل اصبروا بنفوسكم على طاعة الله وصابروا بقلوبكم على البلوى فى الله ورابطوا بأسراركم على الشوق إلى الله تعالى . .

وقيل اصبروا على النعماء وصابروا فى البأساء والضراء ورابطوا للأعداء ومن الأعداء أعداء ظاهرون وهم الأعداء فى الله وأعداء مستبطنون وهم الهوى والنفس والشيطان .

ومن دأب الصابر الصادق إلا يظهر شكواه إلا إلى الله تعالى وقد رأى بعضهم رجلا يشكو إلى آخر فقال له يا هذا إنما تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ثم أنشد :

وإذا عرتك بلية فاصبر لها   صبر الكريم فإنه بك أعلم
وإذا اشتكوت إلى ابن آدم إنما   تشكو الرحيم إلى الذى لا يرحم

ولذا قال صاحب منازل السائرين رضى الله عنه الصبر حبس النفس على المكروه وعقل اللسان من الشكوى وهو من أصعب المنازل على العامة وأوحشها فى طريق المحبة وأنكرها فى طريق التوحيد .

أما قوله إن الصبر من أصعب المنازل على العامة فذلك لأن عامة الناس

رأيهم الجزع لدى المحن حتى وأن علموا أنه لا يفيد شيئاً ويصعب عليهم احتمال الابتلاء وأن كانوا لا يعلمون أنه قد يكون حسن العاقبة .

وأما قوله وأوحشها أى أشدها وحشة فى طريق المحبة لأن أهل المحبة لله يجدون أنساوالتذاذا فى الصبر على مرادهوالجزع وحشة والوحشة تناقض الأنس وبالتالى فهى مناقضة للحب . وأما قوله وأنكرها فى طريق التوحيد لأن الصابر يدعى الصبر بنفسه ومن نفسه حالة أن الصبر ما لم يكن بالله لا يكون صبرا صادقا والصابر الصادق يعلم أن لاحول ولا قوة له إلا بالله ولذا يكون ذلك منكرا فى طريق التوحيد لأن التوحيد الخالص يكون فى رد الأمور كلها إلى الله تعالى دون شريك فلو أن الصابر رأى صبره بنفسه يكون صبره مناقضا لتوحيده .

وأما من رأى صبره بالله تعالى أو فى الله أو لله تعالى فهو مشاهد لوجود صبره بالله لا بنفسه .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه وهو على ثلاث درجات :

الصبر عن المعصية بمطالعة الوعيد إبقاء على الإيمان وحذرا من الحرام وأحسن من ذلك الصبر عن المعصية حياء من الله ،

ويريد رضى الله عنه أن يقول : فى الدرجة الأولى أنها الصبر عن المعصية بمطالعة الوعيد أى خوفا من الجزاء وذلك إبقاء على الإيمان وأيضا حذرا من الوقوع فى الحرام .

ثم قال وأحسن من ذلك الصبر عن المعصية حياء واراد بالصبر عن المعصية الخوف من وعيد الله المترتب على الوقوع فيها وخوفا على نقص الإيمان بها .

قال وأحسن من ذلك وأشرف الصبر حياء من الله عز وجل وذلك

من رتبـة الإحسان فضلا عن صيانة الإيمان والخوف من الوقوع في المعاصي » .

ولما كان الحياء من مقامات الصديقين كان أحسن حالا من الخوف والحذر .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه والدرجة الثانية الصبر على الطاعة بالمحافظة عليها دواما وبرعايتها إخلاصا وبتحسينها علما وذلك يكون بالمثابرة على الطاعة وبالإخلاص فيها وبإيقاعها على مقتضيات العلم وهو معنى قوله وتحسينها علما .

ثم قال رضى الله عنه الدرجة الثالثة الصبر فى البلاء بملاحظة حسن الجزاء وانتظار روح الفـــرج وتهوين البلية بعد أيادى المنن وذكر سوالف النعم .

ويريد الشيخ أن يقول مما يعين على الصبر ملاحظة عواقبه الجميـلة وحسن الجزاء عليه وانتظار روح الفرج من الله مسببة ، وكذلك أن ممـا يهون البلية الفكرة فيما يسبقها من لواحق منن الله وسوالف نعمه .

وفى معانى الصبر كلها أنشد ابراهيم الخواص رضى الله عنه :

صبرت على بعض الأذى خوف كله ودافعت عن نفسى لنفسى فعزت
وجرعتها المكروه حتى تدربت ولو لم أجرعها إذن لاشمـأزت
إلا رب ذل ساق للنفس عزة ويارب نفس بالتذلل عـــزة
إذا ما مددت الكف ألتمس الغنى إلى غير من قال اسألونى فشلت
سأصبر جهدى أن فى الصبر عزة وأرضى بدنياى وإن هى قلت

وبهذه الأبيات جعل الشيخ ابراهيم الخواص رضى الله عنه : الصبر مدرجة للرضى وباب له ولا بد أن يكون مقام الرضى من جزاء الصابرين .

وأنشدوا فى ذلك :

يا من ألح عليه الهم والفكر　　وغيرت حاله الأيام والغير
أما سمعت بما قد قيل فى مثل　　عند الأياس فأين الله والقدر
ثم للخطوب إذا أحداثها طرقت　　واصبر فقد فاز أقوام لها صبروا
فكل ضيق له من بعده سعة　　وكل فوت وشيكا بعد الظفر

وأنشدوا أيضا :

وإنى لأدعو الله والأمر ضيق　　على فما ينفك أن يتفرجا
ورب فتى سدت عليه وجوهه　　أصاب لها فى دعوة الله مخرجا

* * *

باب الرضا

قال الله تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية) .

قال الشيخ رضى الله عنه لم يدع فى هذه الآية للمتسخط إليه سبيلا وشرط للقاصد الدخول فى الرضا . والرضا اسم للوقوف الصادق حيث ما وقف العبد لا يلتمس متقدما ولا متأخرا ولا يستزيد مزيدا ولا يستبدل حالا وهو من أوائل مسالك أهل الخصوص وأشقها على العامة وهو على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى : رضا العامة وهو الرضا بالله ربا وبسخط عبادة مادونه وهو قطب رحى الإسلام وهو مطهر من الشرك الأكبر وهو يصح بثلاث شرائط أن يكون الله تعالى أحب الأشياء إلى العبد وأولى الأشياء بالتعظيم وأحق الأشياء بالطاعة .

قال والدرجة الثانية : الرضا عن الله تعالى وبهذا الرضا نطقت آيات التنزيل وهو الرضا عنه فى كل ما قضى وقدر وهذا من أوائل مسالك أهل الخصوص ويصح بثلاث شرائط باستواء الحالات عند العبد وسقوط الخصومة مع الخلق وبالخلاص فى المسألة من الإلحاح .

والدرجة الثالثة الرضا برضا الله تعالى فلا يرى العبد لنفسه سخطا ولا رضاء فيبعثه أى ذلك على ترك التحكم وحسم الاختيار وإسقاط التمييز ولو أدخل النار .

والرضا من جملة المقامات الكريمة بل هو أوسطها ودرة عقدها ، وحسبنا فى هذا من ثناء الله على أهل الرضا أن قال (رضى الله عنهم ورضوا عنه) ويقول النبى صلى الله عليه وسلم (ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا) فالرضا عن الله يدعو إلى محبته وخوفه ورجائه والإنابة إليه وذلك من أكمل الإيمان. وأما الرضا بالإسلام دينا فحسب الإسلام أن يكون مشتقا من السلم ومن السلام ومن المسالمة وأما الرضا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم رسولا فيتضمن حسن الانقياد وكماله إلى ما جاء به من عند الله فضلا عن أن الرضا يتضمن الصبر والتسليم والتفويض جميعا وأنه مقام الرضا ومن أعظم أسباب الرضا عند العبد أن يلتزم كل ما جعل الله مرضاة فيه من قول وعمل وفكر وإرداة واتجاه وغاية .

وسئل يحي بن معاذ (متى يبلغ العبد مقام الرضا) فقال :

(إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه) فيقول ربى إن أعطيتنى قبلت وإن منعتنى رضيت وإن تركتنى عبدت وأن دعوتنى أجبت .

وقال أحمد بن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه :

(الرضا سكون القلب إلى سابق اختيار الله للعبد فيرى أنه ما اختار له إلا الأفضل الذى يوافقه فيرضى به) . وثمرة الرضا السرور بقرب الرب سبحانه وتعالى .

ويقول الواسطى (استعمل أنت الرضا ولا تدع الرضا يستعملك فتكون محجوبا بلذاته عن حقيقته) .

وسأل الفضيل بن عياض بشرا الحافى (الزهد أفضل أم الرضا) فقال (هذا شيء ظاهر — فالراضى لا يتمنى فوق منزلته) .

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه (أما بعد فإن الخـــير كله فى الرضى فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر) .

وعند كلام الشيخ رضى الله عنه فى باب الصبر وكونه آخره عن التوكل والثقة والتسليم والتفويض مثلا ، وكان من حقه أن يقدم ولكن يظهر أن الشيخ رضى الله عنه جعل من مقام الصبر آخر معقل لهذه الصفات الكريمة وكأنه كان يقول كما أراد عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأبى موسى الأشعرى (إن لم تستطع الرضا فى الصبر خير كثير فاصبر ، لأن فى الصبر خيراً كثيرا ، وكأن الشيخ رضى الله عنه جعل من مقام الصبر لمقام الرضا كحرس الحدود وموقفه الذى هو آخر ما يجب الدفاع عنه .

وأما قول الشيخ رضى الله عنه أن الرضا من مسالك الخصوص ومن أشقها على العامة فقد يكون فيه تأييدا لذلك أى لأن الصبر مقام وأن لم يكن فى مقام الرضا فإنه بالأقل آخر معقل له .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : رضا العامة وهو الرضا بالله ربا وبسخط عبادة مادونه وهو قطب رحى الإسلام وبما أن الدخول فى الإسلام من شرطه

أن يرضى المسلم بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا . فهذا شرط فى الدرجة التى يصح بها كل مقام ، وهى الإسلام والإيمان وبدونها لا يصح لأحد مقام .

ولذلك اعتبره الشيخ من رضا العامة ولم يكن من رضا الخاصة أهل المقام نفسه ولذلك يعتبره أى رضا العامة بالدخول فى الإسلام مطهرا من الشرك الأكبر والشرك الأكبر مفهوم لأهل الإسلام وأما الشرك الأصغر هنات قد يرتكبها المسلم تعتبر خروجا عن شرائط الإسلام كالاستعانة بغير الله مثلا وهو يعتقد أن من يعتمد عليه معين له ، على أن المعين الحق هو الله تعالى :

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : أن مقام الرضا يصح بثلاث شرائط أن يكون الله تعالى أحب الأشياء إلى العبد ، وأولى الأشياء بالتعظيم ، وأحق الأشياء بالطاعة وكلها أمور يأمر بها الإيمان الخالص . على قله أو على كثرة بحسب معتقد الشخص المؤمن وهنا يريد الشيخ أن يكون من شرائط الرضا عن الله الرضى بالله تعالى وأن يكون أحب موجود إليه وأولى موجود بالتعظيم وأحقه بالطاعة .

فصاحب هذا المعتقد السليم يكون أول الدخول فى معانى الرضا .

قال والدرجة الثانية : الرضا عن الله تعالى فاعلا مختارا على حد قوله تعالى (ماكان لهم الخيرة) .

قال (وبهذا الرضا نطقت آيات التنزيل وهو الرضا فى كل ماقضى وقدر وهذا من أوائل مسالك أهل الخصوص) .

قال ويصح بثلاث شرائط : باستواء الحالات عند العبد ، ذلك لأن المشاهد لأفعال الحق أزلا وحالا تستوى عنده الحالات من غنى وفقر ونفع وضر لأنها كلها مرادة من الله له ومواجهة من الله إليه .

قال وبهذا الرضا نطقت آيات التنزيل وذلك مثل قوله تعالى (قل أغير

الله أبغى ربا وهو رب كل شىء) وفى قوله وهو من أوائل مسالك اهل الخصوص وأن مسلك أهل الخصوص منحصر فى الخروج بالله عن النفس إلى مراد الله تعالى وبذلك يكون هـــذا المسلك من أوائل مسالك أهل الخصوص .

وأما قوله وأشقها على العامة فذلك لمشقة خروج العامة عن خطوطهم مهما ادعوا الرضا ولو ادعوا الرضا لرأوا أن الرضا منهم صادر منهم إلى مولاهم والحق أن الرضا سابق من الله إليهم .

وكثير من الناس يرضى بالله ربا ولكنه لا يرضى به وحده وليا ونصيرا والحق ألا يوالى السالك مع الله أحدا وإنما يوالى من والى الله مثله فيعينه على التوحيد من غير أن يتخذ من دون الله أولياء .

وقوله وهو قطب رحى الإسلام . ذلك لأنه لا يتم الإسلام والإيمان إلا به ومعنى ذلك بأن يكون الله وحده وهو المعظم المحبوب المطاع وهذه الدرجة من معاملات أهل القلوب وأهل الخصوصية الذى ارتفع بهم إسلامهم وإيمانهم لأن يسلكوا تلك المسالك العظيمة الباعثة على مقام الرضا والدالة على خروج العبد عن حظوظ نفسه وأوهامه ووقوفه مع مراد الله عز وجل .

والرضا بالله ربما يستلزم ضرورة الرضا عن الله فاعلا مختارا فيكون قد رضى الله عنه ورضى العبد عن ربه فيقال حينئذ (يا أيتها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية) هذا ما يصف به الرب العبد فى طمأنينته برضاه عنه أى برضا العبد عن الله تعالى (اطمأنت نفسه إليه) .

وهذا الرضا وتلك الطمأنينة كان سابقا عليها رضا الله فى قوله (رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) ،

وللمفسرين رأى فى قوله تعالى للنفس المطمئنة : (إرجعى إلى ربك راضيه مرضية) قال بعضهم عند الخروج من الدنيا وقال بعضهم بعد الموت والحساب وقال بعضهم يوم القيامة . إن الخطاب منصب على يوم القيامة وكل هذاليس بمانع من أن يكون ذلك الرضا فى الدنيا وفى الآخرة وعند الموت وبعده وقبله لاسيما وأن القرآن إنما يخاطب الأحياء . وأهل طريق الله يؤمنون بذلك كله .

وتكون النتيجة أن الراضى عن الله تعالى تستوى عنده الحالات جميعها من النعم والمحن لفنائه فى رضاه بحسن اختيار الله له .

ويقول عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه (أصبحت ومالى شرور إلا فى موقع القدر) .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه (ما أبالى على أى أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء) .

وقال سفيان الثورى يوما عند رابعة العدوية (اللهم إرض عنا) فقالت أما تستحى أن تسأله الرضا عنك وأنت غير راض عنه .

وقوله وسقوط الخصومة مع الخلق فهو أمر ظاهر لأن الراضى بأفعال الحق لا خصومه له مع الخلق فإنه دائما يعذرهم ويتسامح معهم وذلك لأن الأمور كلها بيد ربه وبهذا أيضا يخلص من المسألة للخلق فضلا عن الإلحاح فيها لأنه يسأل الرب دون الخلق فيسخر الله له الدنيا وأهلها وسكانها من الخلق وفى مثل هذا المقام يقول الشاعر الصوفى الذى حظى بمقام الرضا .

لا تسألن بنى آدم حاجــــة وسل الذى أبوابه لا تحجب
فالله يغضب أن تركت سؤاله وبنى آدم حين يسأل يغضب

ولهذا قال الشيخ رضى الله عنه فى الدرجة الثالثة من الرضا (الرضا

بما يرضى الله تعالى فلا يرى العبد لنفسه سخطا ولا رضا فيبعثه أى ذلك على ترك التحكيم وحسم الاختيار واسقاط التميز ولو أدخل النار . وذلك لفنائه عن الكون بالمكون وعن الخلق بالخالق وعن نفسه بمنشئها فلا اختيار له مادام فى شهود حضرة الحق ، وعلمه بأن أرحم الراحمين ولو ادخل النار .

وأنشدوا فى ذلك :

رضيت بما قسم الله لى   وفوضت أمرى إلى خالقى
كما أحسن الله فيما مضى   كذلك يحسن فيما بقى

وأنشدوا أيضا .

إن شئت أن تقضى محياك طيبة   فاعط الرضا الذى رضى الله
واختر إرادته فيما كرهت وما   أحببت فالخير فيما الله أولاه

وأحسن ما قيل فى هذا المعنى ما أنشده الجيلانى رضى الله عنه

مرادى منك نسيان المراد   إذا رمت السبيل إلى الرشاد
وأن تدع الوجود فلا تراه   وتصبح ما سكا حبل اعتمادى
فهل رب سواى فترتجيه   غدا ينجيك من كرب شداد
ووصف العجز عم الخلق طرا   فمفتقر بمفتقر ينادى
أفى دارى وفى ملكى وملكى   توجه للسوى وجه اعتمادى
لحدق أعين الإيمان وأنظر   نرى الأكوان تؤدن بالنفاد
فمن عدم إلى عدم مصير   وأنت إلى الفناء لا شك غادى
وها هى خلعى عليك فلا تزلها   وصن وجه الرجاء عن العباد
ببابى أوقف الأمال طرا   ولا تأتى لحضرتنا بزاد

ووصف فالزمنه وكن ذليلا ... ترى منا المنى طوع القياد
وكن عبدا لنا والعبد يرضى ... بما تقضى الموالى من مراد
أأستر وصفك الأدنى بوصفى ... فتجزى ذاك جهلا بالضاد
وهل شاركتنى فى الملك حتى ... غدوت منازعى والرشد بادى
فإن رمت الوصول إلى جنابى ... فهذى النفس فأحذرها وعادى
ولا تستهدى يوما من سوانا ... فما أحد سوانا اليوم هادى

* * *

باب الشكر

قال الله عز وجل (وقليل من عبادى الشكور)

ثم قال الشيخ رضى الله عنه الشكر اسم لمعرفة النعمة لأنها السبيل إلى معرفة المنعم ولهذا المعنى سمى الله تعالى الإسلام والإيمان فى القرآن شكرا ومعانى الشكر ثلاثة أشياء معرفة النعمة ثم قبول النعمة ثم الثناء بها وهو أيضا من سبل العامة وهو ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : الشكر على المحاب وهذا الشكر تشاركت فيه المسلمون واليهود والنصارى والمجوس ومن سعة بر البارى أنه عده شكرا ووعد عليه الزيادة وأوجب فيه المثوبة .

والدرجة الثانية : الشكر فى المكاره وهذا ممن يستوى عنده الحالات إظهارا للرضى وممن يميز بين الأحوال ككظم الغيظ والشكوى ورعاية الأدب وسلوك مسلك العلم وهذا الشاكر أول من يدعى إلى الجنة .

الدرجة الثالثة : ألا يشهد العبد إلا المنعم فإذا شهد المنعم عبودة

استعظم منه النعمة فإذا شهده حباً استحلى منه الشدة فإذا شهده تفريدا لم يشهد منه نعمة ولا شدة .

أما قول الشيخ رضى الله عنه : الشكر اسم لمعرفة النعمة وأنها سبيل معرفة المنعم فهذا ظاهر واستشهد الشيخ على ذلك بقوله ولهذا المعنى سمى الله تعالى الإسلام والإيمان فى القرآن شكراً وذلك فى قوله تعالى (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) فاقرارهم بمنة الله عليهم يعتبر شكراً لله على ماهداهم . لأن الإسلام والإيمان من أجل نعم الله على أهل القران والإسلام وقد عرفوا الله بهذه الرسالة بل قل بتلك النعمة ، فكانت النعمة : نعمة الإسلام والإيمان سببا فى معرفة المنعم .

ثم قال ومعانى الشكر ثلاثة أشياء : معرفة النعمة ثم قبول النعمة ثم الثناء بها فبحصول النعمة يعرف المنعم ثم يحصل الثناء من المنعم عليه إلى المنعم .

والأصل فى معنى كلمة الشكر لغة : الزيادة أو السمن ومنه قولهم (شكرت الدابة) سمنت والمعنى المقصود هنا ظهور نعمة الله على العبد ، فالثناء باللسان هو الحمد وإظهار نعمة الله بالعمل وبالجوارح وبالحال هو الشكر ،والشكر أعم من الحمد والحمد تعبير عن الشكر فإذا تحدث العبد بنعم الله وأظهر بالعمل والحال فقد حمد الله وشكره ولذلك قال الله تعالى (وقليل من عبادى الشكور) .

وأما الحمد فالكل يحمدون المنعم ويشترك فى ذلك المسلم وغير المسلم لأن النعم من الأمور المحمودة ، وبكون الشكر وهو الأعم تحقيقا لذلك بالفعل :

ولذا قال الشيخ أن معانى الشكر ثلاثة أشياء . معرفة النعمة لأنها

سبيل إلى معرفة المنعم ثم قبولها ومعناه تقديرها ثم الثناء بها أى على المنعم ثم قال وهو أيضا من سبيل العامة أى داخل فيه العموم وانما عبر الشيخ بقوله العامة يريد عامة الناس وبالأخص عامة المسلمين ولا يقع فى ظن القارىء أنه يريد بالعامة عوام الناس لأنه لم يخصص .

ثم قال وهو على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى : الشكر على المحاب وبهذا الشكر قد تشارك فيه جميع الناس من مسلمين وغير مسلمين لأن مجرد الميل إلى المحاب أى الأمور المحبوبة وتقديرها يعتبر ضربا من الشكر، وهذا ما يشترك فيه جميع الناس ثم قال ومن سعة بر البارى : سعة فضله ورحمته وأنعامه أنه عده شكرا لأن التلذذ مثلا بطعم التفاحة فيه ضرب من الشكر لخالق التفاحة . ومن سعة فضل الله على الناس أن اعتبره شكرا ووعد عليه الزيادة وأوجب فيه المثوبة حتى لغير المسلم فإن قيل ثواب غير المسلم إنما يقع فى الدنيا بنعمها أو فى الآخرة فهذا شيء موكول أمره إلى الله تعالى :

ثم قال والدرجة الثانية : الشكر فى المكاره فإن كانت الدرجة التى تقدمت شكرا على المحاب فتلك الدرجة شكر على المكاره ، والمكاره غير المحاب ضرورة فهى درجة أعلى .

ووضح الشيخ رأيه بقوله وهذا مما يستوى عنده الحالات إظهارا للرضى ومما يميز تلك الحالات كظم الغيظ وكتم الشكوى مع إظهار الرضى ورعاية الأدب، قال الشيخ وهذا سلوك مسلك العلم أى ما يأمر به العلم الشرعى الدينى والعلم الباطنى العرفانى - ويكون من حازه أى شكر على النعمة والبلوى من أعظم الشاكرين . ولذلك كان فى رأى الشيخ ان هذا الشاكر أول من يدعى إلى الجنة .

ثم قال والدرجة الثالثة : ألا يشهد العبد إلا المنعم فإذا شهد المنعم

عبودة استعظم منه النعمة أى إذا شهد العبد أنه مجرد عبد للمنعم ، إذ أن العبدالصادق لا يملك طلب الإنعام من سيده بل يترك له الأمر أنعم أو لم ينعم فهو راض بحكمه وفى ذلك كمال العبودية فإذا شهده حبا أى زاد العبد على عبوديته لسيده بأن كان يحبه استحلى منه الشدة فى رأى الشيخ وهو صادق لأن الشدة من المحبوب محببة، وبهذا تكون برهانا على صدق الحب، ثم قال الشيخ فإذا شهده تفريدا لم يشهد منه نعمة ولا شدة وهنا يتجرد العبد من كينونته فيفنى وجوده فى وجود سيده فيصير إلى مشاهدة التوحيد والتفريد فإذا شغلته تلك المشاهدة مرت عليه النعمة والشدة وهو مستغرق فى شهود مولاه عنها وهذا ذروة مقام الشكر .

وأنشدوا فى هذا المعنى قولهم :

يا منتهى الآمال أنت كلفتنى وحفظتنى
وعدا الزمان على كى يجتاحنى فمنعتنى
فانقاد لى متخشعا لما رآك نصفتنى
وكسوتنى ثوب الغنى ومن المطالب صنتنى
وإذا سئلت بدأتنى وإذا سألت أجبتنى
وإذا شكرتك زدتنى فمنحتنى وبهرتنى
أو أن أجد بالمال فا لأموال أنت أفدتنى

باب الحياء

قال الله تعالى (ألم يعلم بأن يرى)

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : الحياء من أول مدارج أهل الخصوص ويتولد من تعظيم منوط بود وهو على ثلاث درجات

الدرجة الأولى : حياء يتولد من علم التوحيد لنظر الحق فيجذبه إلى تحمل المجاهدة ويحمله على استقباح الجناية ويسكته عن الشكوى .

الدرجة الثانية : حياء يتولد من النظر فى علم القرب فيدعوه إلى ركوب المحبة ويربطه بروح الأنس ويكره إليه ملابسة الخلق .

الدرجة الثالثة : حياء يتولد من شهود الحضرة وهى التى لا يشوبها هيبة ولا يقربها تفرقة ولا يوقف لها على غاية .

أما قول الشيخ رضى الله عنه : الحياء من أول مدارج أهل الخصوص لأن المستحى من الله حاضر معه فهو دلالة على القرب الذى يتولد من العظيم الذى يصحبه الأدب وهذا معنى قوله منوط بود والحياء لا يكون إلا فى حضور من يستحى منه والمستحى من الله بهذا المعنى يكون حاضرا معه وإذا كان الحياء أول شروط المودة فيكون هو نفسه أول درجات سلوك أهل الخصوص الذين يروا دائما أن الله حاضر معهم . وهذه المراقبة التى عبر عنها الشيخ بالتعظيم ووصفها بالحياء والحضور لاشك أن مثل هذه الحالة يتولد منها التعظيم المنوط بالود وقد سئل الجنيد رضى الله عنه عن معنى الود فأجاب :

(إنه مشاهدة النعم ورؤية التقصير) .

ثم قال الشيخ وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : حياء يتولد من علم العبد بنظر الحق إليه وتوحيد العبد إياه لأن العبد متى علم أن الرب ناظر إليه أورثه ذلك العلم الحياء منه ضرورة والرب لا يغيب عن عباده فى المعتقد ولكنه قد يغيب عن نظر القلب فى تلفته لسوى الحق فلو صحا القلب ونظر إلى الحقيقة لرأى أن الله معه حيثما كان والمعية قسمان : معية نظر وعلم وهى معية مطلقة ومعية قرب وشهود وهى معية خاصة بأهل مخافة الله مثل قول الله

الله تعالى (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) فهذه المعية تقتضى القرب ضرورة وبالتالى تقتضى الحفظ والنصر .

وعن أبى موسى الأشعرى قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فى سفر وقد ارتفعت أصواتنا بالتكبير فقال عليه الصلاة والسلام :

يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم أنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً أن الذى تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته .

وكلما ازداد المرء لله حبا إزداد منه قربا . وهذا القرب موجب للأنس والتعظيم وإن كان مانعا للتكلف ولذلك يقول الشيخ فى الدرجة الثانية حبا يتولد منه النظر فى علم القرب ويربطه بروح الأنس ثم زادعلى ذلك ويكره إليه ملابسه الخلق وذلك لأن القريب من الله المؤتنس بحبـــه وقربه يكره ملابسه الخلق ضرورة ويريد بالملابسة الدخول فى شئونهم وهمومهم وأوهامهم تلك التى هى حجب عن الله فى الحقيقة فكيف يميل من أنس بقرب الحق إلى ملابسة الخلق فيما يحجبهم عن ربهم من شئون .

ولما دخل الشيخ فى الدرجة الثالثة من درجات الحياء قال حياء يتولد من شهود الحضرة بالحالة التى لا يشوبها تهيب لأن الأنس والتهيب لا يجتمعان وهذا معنى قوله (لا يشوبها هيبة) ثم قال ولا يقاربها تفرقة وهذا أمر ظاهر ثم قال: ولا يوقف لها على غاية، ذلك لأنه ليس لله غاية وكذلك محبته لا تنتهى إلى غاية إلا أن تكون الغاية هى الفنـــاء فى حضرة الحق وحضرة الحق حضرة مطلقة .

وأنشدوا فى هذا المعنى :

يامن يشير إليهمو المتكلم ... وإليهمو يتوجه المتظلم
وعليهمو يحلو التأسف والأسف ... ويلذ لوعات الغرام المغرم

هذا الوجود وإن تعدد ظاهر　　وحياتكم مافيه إلا أنتم
فشغلتمو كلى بكم وجوارحى　　وجوانحى أبدا تحن اليكمو
وإذا نظرت فلست أنظر غيركم　　وإذا سمعت فمنكمو أو عنكم
وإذا نطقت ففى صفات جمالكم　　وإذا سألت الكائنات فعنكم
وإذا سكرت فمن مدامة حبكم　　وبذكركم فى سكرتى أترنم
أنت حقيقة كل موجود بدا　　ووجود هذى الكائنات توهم

باب الصدق

قال الله تعالى (فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم)

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : (الصدق اسم لحقيقة الشى حصولا ووجودا) وهو ثلاث درجات :

الدرجة الأولى . صدق القصد وبه يصح الدخول فى هذا الشأن ويتلافى به كل تفريط ويتدارك به كل فائت ويعمر به كل خراب وعلامة هذا الصادق ألا يحتمل داعية إلى نقص عبد ولا يصبر على صحبة ضد ولا يقعد عن الجد بحال .

والدرجة الثانية. ألا يتمنى الحياة إلا للحق ولا يشهر من نفسه الا اثر النقصان ولا يلتفت إلى ترقية الرخص .

ثم قال والدرجة الثالثة . الصدق فى معرفة الصدق فان الصدق لا يستقيم فى علم أهل الخصوص إلا على حرف واحد وهو ان يتفق رضا الحق وعمل العبد فيكون راضيا مرضيا فأعماله إذن مرضية وأحواله صادقة وقصوده مستقيمة وان كان العبد قد كسى ثوبا معارا . فأحسن أعماله ذنب وأصدق أحواله زور وأصفى قصوده قعود .

أما قول الشيخ الصدق اسم لحقيقة الشيء حصولا ووجودا وذلك ليكون الصدق صدقا فإن لم يصاحبه الحصول أو الوجود فهو كذب أو تضليل أو تزييف وبهذا الاعتبار لا يكون صدقا والغرض من الصدق الدلالة على حقيقة الشيء أو وجود حقيقة الشيء فى الإخبار عنه أو فى التلبس به .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : صدق القصد أى صدق النية فإن النية أساس الأعمال وبغيرها لا يصح عمل ويدل على ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى) .

الصدق احتواء القلب على نفاذ القصد وبذا تكون النية روح الأعمال ثم قال الشيخ رضى الله عنه وبه أى بصدق القصد وتوجه النية يصح الدخول فى هذا الشأن والشأن هنا شأن طريق الله والعزم على سلوكه . ثم قال ويتلافى به (أى بالصدق) التفريط فان صدق العبد فى عمله خرج ضرورة عن نطاق التفريط .

ثم قال يتدارك به كل فائت لأنه إذا اذهب التفريط تدارك المرء صلاح أمره ، وتلافى حصول التفريط بالاجتهاد فيما قصد إليه فإذا كان شأن النية كذلك لا تحمله داعية إلى نقص فى نفسه أو فى غيره فالصادق لا يلتفت لصدق الصادق لأنه مثله ولا لغير الصادق لأنه بعيد عن خلقه . فهو فى الناحيتين من الصدق لا يحتمل النقص ولا يصبر على صحبة الضد وطبعا كما يقول الشيخ لا يقعد عن الجد بحال .

ثم قال والدرجة الثانية : ألا يتمنى الحياة إلا للحق فإن السالك الجد لا يطلب الحياة إلا لطاعة الحق وحبه وشهوده وعند أهل طريق الله إن الحياة عـدا ذلك تكون أمرا باطلا ولذلك يتورط أكثر أهلها فى النقائص ولذا لا يشهد السالك من نفسه إلا من آثار النقصان المتخلفة فيها من بيئته وعاداته .

ثم إن السالك المجد كما يقول الشيخ لا يلتفت إلى ترقب الرخص لأنه والصدق شأنه لا يتطلب إلا العزائم والرخصة غالبا لا يلتفت إليها الصادقون ولو كانت الرخصة منصوصا عليها من كتاب أو من سنة لا يترقبها إلا الضعفاء .

ثم قال والدرجة الثالثة : الصدق فى معرفة الصدق بمعنى أن يعرف الصادق حدود الصدق وحقيقته التى أشرنا إليها ، فإن لم يتحقق من حقيقة الصدق كيف نسميه صادقا ، ومن لا يعرف معنى النية كيف نتبين صحة نيته .

لذلك قال الشيخ رضى الله عنه إن الصدق لا يستقيم إلا بمعرفة الصدق ولاسيما فى علم أهل الخصوص لأن أهل الخصوص لايستقيم معهم الصدق بمعنى أن يكون صـــدقا خالصا إلا على حرف واحد أى إلا على أمر وشرط واحد .

قال وهو أن يتفق رضا الحق وعمل العبد فيكون العبد راضيا عن ربه ومرضيا عند ربه وإن كان السالك كذلك فأعماله إذن تكون مرضية وأحواله تصير صادقة وقصوده تصبح مستقيمة .

ثم قال وإن كان العبد قد « كسى ثوبا معارا » أى إذا كسى العبد نفسه من الصدق وتوجيه النية ثوبا معارا أى ليس صادقا حقيقيا وقال الشيخ فأحسن أعماله ذنب أى يكون ذنبا فاحشا وأصدق أحواله زورا أو رياء ويكون أصفى قصوده ، أى مقاصده ونواياه قعودا محققا عن السير فى الله وصحبة أهل الخصوص الذين جعل الشيخ الصدق شرطا للدخول فى شأنهم أى شأن الصادقين الذين جعلهم الشيخ من أهل الخصوص بجعله الصدق أول طريق أهل الخصوص .

وأنشدوا فى هذا المعنى الدقيق فقالوا :

كذبتك نفسك ليس ذا   سنن الطريق الصادقة
حتى تكون بعين من   عنه العيون مغلقة
تجرى عليك صروفه   وهموم سرك مطرقة

ثم زدنا هذه الأبيات بيتا ليكمل المعنى فقلنا :

تمسى وتصبح عبده   وتكون منه على ثقة

باب الإيثار

قال الله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : الإيثار تخصيص واختيار والأثرة تحسن طوعا وتصح كرها وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : أن تؤثر الخلق على نفسك فيما لا يحرم عليك دينا ولا يقطع عليك طريقا ولا يفسد عليك وقتا ويستطاع هذا بثلاثة أشياء : بتعظيم الحقوق ومقت الشح والرغبة فى مكارم الأخلاق .

ثم قال والدرجة الثانية إيثار رضا الله تعالى على رضا غيره وإن عظمت فيه المحن وثقلت به المؤن وضعف عنه الطول والبدن ، يستطاع بثلاثة أشياء بطلب العود ، وحسن الإسلام ، وقوة الصبر .

ثم قال والدرجة الثالثة : إيثار الله تعالى فإن الخوض فى الإيثار دعوى فى الملك ، ثم ترك شهود رؤيتك إيثار الله تعالى ثم غيبتك عن الترك .

الإثار تخصيص واختيار ومعناه أن تخص غيرك بالإيثار عن نفسك فيما تملك من متاع .

وقال والأثرة تحسن طوعا وتصح كرها ومعناه ألا يحسن الإيثار واستعمل الأثرة إذا تعارضت حقوق الله وإيثار أمره مع إيثار الخلق على نفسك ولا سيما فيما تحتاجه للاستعانة به على طاعة الله كأن يكون عندك قوت يومك ويعينك على طاعة الله ذلك اليوم فتؤثر به غيرك الذى هو أكثر احتياجا منك فيصح على كره ويمكنك أن تعارض الايثار وهو وجه قول الشيخ إن الأثرة تحسن طوعا وتصح كرها .

فالمسألة هنا . إيثار وأثرة ، فالأول إيثار حقوق الله على حقوقك ومن حقوق الله الجود على المحتاج بما يزيد ، فهذا إيثار ولكنه إيثار الله والأمر المبغوض هنا إيثار الخلق على الله . وتجوز للسالك الأثرة فى حالات : إذا كان الإيثار يشوش وقته أو يعطل طريقه أو يزيل طمأنينته فى التسليم والتوكل فالأثرة تحسن طوعا لأنه يكون فيها مختارا ، وتصح كرها وهى هنا بمعنى توجد كما ضربنا المثل من يملك قوت اليوم ليستعين به على طاعة الله فيناضل عنه أو يعطيه فهو هنا مكره على الأثرة التى تقوم بها مصلحة الدين والدنيا .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه والإيثار على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : أن تؤثر الخلق على نفسك وذلك فيما لا يحرم عليك دينا كما ضربنا المثل بالذى آثر غيره على نفسه بما يقيم صلبه فى طاعة الله أو يؤثر غيره بما لو امتنع عن عياله من قوت أضرهم وهو مسئول عنهم شرعا فهنا لا يحمد الإيثار .

وهذا معنى قول الشيخ فيما لايحرم عليك دينا ولا يقطع عليك طريقا ولا يفسد عليك وقتا ومعنى فساد الوقت تشتت القلب المجتمع على الطاعة بالانشغال بهم الرزق وقد آثر غيره بما عنده مما كان يطمئن قلبه به من هذه الناحية .

ثم قال ويستطاع هذا بثلاثة أشياء : ويريد الإيثار بما لا يضر بثلاثة أشياء بتعظيم الحقوق أى حقوق الله ، وحقوق الخلق لأنها من حقوق الله ومقت الشح ، ولو لم يمقت العبد الشح لم يكن من أهل الإيثار وهذا مفهوم ضرورة .

ثم قال والرغبة فى مكارم الأخلاق . لأنه لا يسر بالإيثار إلا من أحب مكارم الأخلاق . والشح ليس من مكارم الأخلاق .

ثم قال والدرجة الثانية : إيثار رضا الله تعالى على رضا غيره .

ونعتقد أن هذا مفهوم وواضح فليس من الإيثار المحمود إيثار رضا الخلق على رضا الرب بل إيثار رضا الرب على رضا الخلق أولى . ولذا قال الشيخ وأن عظمت فيه المحن وثقلت به المؤن فإن من أثر رضا الله على رضا الخلق قد يصادف فى ذلك محنا قد تثقل عليه لأن الخلق فى غالب أمورهم يؤثرون الرضا من أنفسهم وأن تعارض ذلك مع إرضاء الله .

والمؤن هنا بمعنى المسئوليات وما يقتضى التحمل من تصرفات الخلق . وقوله وإن ضعف عنه الطول والطول بمعنى الطاقة فإن أمد الطول بالصبر والرضا انقلبت المحن إلى منن بأمر الله واتسع الطول واستراح البدن .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم مخاطبا الحق سبحانه وتعالى :

(اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى إلى آخر الحديث) .

يفسر هذا المراد من قول الشيخ رضى الله عنه :

ثم قال ويستطاع بثلاثة أشياء : إيثار رضا الله تعالى على رضا غيره بطلب العود ومعناه التعود لأن العادة ما يتعود عليه من فعل مرارا ثم قال وحسن الإسلام (ومن حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه) والمشغول بإرضاء الله لا يعنيه فى هذا السبيل إرضاء غيره من الخلق .

ثم قال وقوة الصبر : فبحسن الإسلام والعود للتعود وقوه الصبر بأولئك يستعين الطالب لرضا الله على عدم رضا الخلق .

ثم قال الشيخ والدرجة الثالثة . إيثار الله تعالى على نفسه وعلى كل شيء ثم قال فان الخوض فى الإثار دعوى فى الملك وإذن فمن واجب السالك لسبيل الحق ألا يرى نفسه من أهل الإثار لأن الإنسان لا يؤثر غيره على نفسه إلا بما يملك ولله على التحقيق ملك السموات والأرض فهو ومايملك ملك لله تعالى فلا يخوض فى دعوى الايثار أى يدعيه فيترك شهود أنه آثر الله تعالى فعلى العبد أن ينسى هذا الإثار وينسى ما آثر به لأنه لا يملك مع الله شيئا على التحقيق فيؤثر به .

وأنشدوا فى هذا الباب قولهم :

شفيت قلبى بمالديك فلا ينفك طول الحياة عن فكر
آنستنى منك بالوداد وقد أوحشتنى من جميع ذا البشر
ذكرك لى مؤنس يعارضنى ويعدنى منك بالظفر
وحيثما كنت يامدى هممى فأنت منى بموضع النظر

باب الخلق

قال الله تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم)

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : الخلق مايرجع إليه المكلف من نعته واجتمعت كلمة الناطقين فى هذا العلم على أن التصوف هو الخلق وجماع الكلام فيه يدور على قطب واحد هو بذل المعروف وكف الأذى وإنما يدرك إمكان ذلك فى ثلاثة أشياء : فى العلم والجود والصبر وهو ثلاث درجات :

ثم قال الدرجة الأولى : أن يعرف مقام الخلق أنهم بأقدارهم مربوطون وفى طاقتهم محبوسون وعلى الحكم موقوفون وتستفاد هذه المعرفة بثلاثة أشياء: أمن الخلق منك حتى الكلب ومحبة الخلق إياك ونجاة الخلق بك .

والدرجة الثانية : تحسين ظنك مع الحق وتحسينه منك أن تعلم أن كل مايأتى منك يوجب عذرا وأن كل ما يتأتى من الحق يوجب شكراً وألا ترى له من الوفاء بدا .

ثم قال الدرجة الثالثة التخلق بتصفية الخلق ثم الصعود عن تفرق التخلق ثم التخلق بمجاوزة التخلق .

أما قوله رضى الله عنه ، الخلق ما يرجع إليه المكلف من نعته أى ما يرجع إليه المكلف إن كان من ذوى الأخلاق من صفاته المكتسبة بهذا التخلق وهو معنى قوله من (نعته) ثم قال واجتمعت كلمة الناطقين فى هذا العلم أى علم التصوف على أن التصوف هو الخلق أى التخلق بسائر الخلال الكريمة . ومن زاد عنك بالخلق زاد عنك فى التصوف .

ثم قال وجماع الكلام فيه يدور على قطب واحد وذلك القطب هو جماع الأخلاق أى الدرة الكريمة فى عقد التخلق ألا وهى (بذل المعروف وكف الأذى) فبذل المعروف يشمل نصف علم الأخلاق وإن شئت بعض الأمثال فقل . مثل الحلم والجود ، وكرم النفس ، وإسعاف الملهوف وهكذا وكف الأذى يحوى النصف الثانى من مكارم الأخلاق وضروب كف كثيرة ومعلومة فلا تحتاج إلى ضرب الأمثال .

ثم قال الشيخ وإنما يدرك إمكان ذلك فى ثلاثة أشياء . فى العلم والجود والصبر . أما العلم فإن خير ما فيه عرفان ما ينفع وعرفان ما يضر فبالعلم تتضح جميع أوجه الخير وأوجه الشر . والجود فمن لا يكون الجود من سجيته لا يقوى على التخلص ببذل المعروف .

ثم قال واصبر وحسبك أن الصبر نصف الإيمان كما فى الحديث لأن الصبر يقيم العبد على الطاعة ويقوم طريقه إلى الله تعالى ويحسن تعامله مع الخلق .

ثم قال والدرجة الأولى : أن يعرف مقام الخلق نهم بأقدارهم مربوطون اى بأقدارهم المقدرة لهم من الله بها موثوقون هذا ناحية ومن الناحية الثانية هم فى طاقاتهم محسوسون أى داخل طاقاتهم المحدودة وعلى حكم الله فيهم لا يستقدمون ولا يستأخرون .

ثم قال وتستفاد هذه المعرفة بثلاثة أشياء أولها أمن الخلق منك حتى الكلب ويعنى بهذا جميع المخلوقات من إنسان وحيوان .

ثم قال ومحبة الخلق إياك وفى هذه المحبة محبة الخلق لك دليل على حسن الخلق لاسيما وأن الكلام فى الخلق .

ثم قال ونجاة الخلق بك ويريد أنك مادمت عالما تفرق بين الخير والشر والحق والباطل وأنت ذو خلق كريم يحوى بذل المعروف وكف الأذى كل هذا يوجب عليك العمل على نجاة الخلق بك .

ثم قال والدرجة الثانية : تحسين ظنك مع الحق أى حسن ظنك بالله فى كل ما تحاول وتزاول وقد بين المعنى الذى يريده بقوله وتحسينه منك أن تعلم أن كل ما يأتى منك يوجب عذرا لوجود نفسك وشيطانك وهواك فاجتهد حتى تتخلص من ذلك وأن كل ما يأتى من الحق يوجب شكرا لأنه لا يأتى منه إليك إلا الهداية والنعمة والعفو والمغفرة مما يجعلك لا ترى له من الوفاء بدا أى الوفاء بشكر الله فان عرفت شكر الشكر تكون قد عرفت معنى اسمه الشكور من ناحية ومن الناحية الأخرى تكون قد شكرت الله بحقيقة الشكر وقد قال نبى الله داود مخاطبا ربه (يارب إنى لا أدرى كيف أشكرك . قال الآن قد شكرتنى) وهذا معنى وفاء الشكر الذى لاتجد منه بدا على رأى الشيخ .

ثم قال والدرجة الثالثة التخلق بتصفية الخلق أى من الشوائب ومما يظهر لك أنه من مكارم الأخلاق وهو ليس كذلك لما فيه من هوى النفس أو حصول الفخر — أو استجلاب الشكر من الناس.

ثم قال والصعود عن تفرق التخلق أى الاستعلاء على هذه العوامل كلها تصفية وتحسينا لأخلاقك.وفوق هذا وذلك قال ثم التخلق بمجاوزة التخلق أى أن تتخلق بأن لا ترى أنك متخلق منعا لرؤية النفس أوموجبات الفخر والتظاهر بحسن الخلق .

وأنشدوا فى هذا المعانى قولهم :

إن المكارم أخلاق مطهرة وعصمة للذى فى النفس يحويها
فالجود أولها والصدق ثانيها والصبر ثالثها والعزم تاليها
والعفو خامسها والحزم سادسها والنفس تعلم أنى لا أصدقها
ولست أرشد إلا حين أعصيها

باب التواضع

قال الله تعالى : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا)

ثم قال الشيخ رضى الله عنه التواضع أن يتواضع العبد لصولة الحق . ومعناه أن يكون العبد عبدا صادقا تحت صولة سيده ومالك أمره وهو الحق سبحانه وتعالى :

وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : التواضع للدين وهو ألا يعارض بمعقول منقولا ولا يقيم على الدين دليلا ولا يرى إلى الخلاف سبيلا ولا يصح له ذلك إلا بأن يعلم أن النجاة فى النصرة والاستقامة بعد الثقة وأن البينة وراء الحجة .

الدرجة الثانية : أن يرضى بمن رضى الحق به لنفسه عبداً من المسلمين أخا ولا ترد على عدوك حقاً ولا تقبل من المعتذر معاذيره .

ثم قال الدرجة الثالثة : أن تتضع للحق فتنزل عن رأيك فى الخدمة ورؤية حقك فى الصحبة وعن رسمك فى المشاهدة .

التواضع ضد التعالى والكبرياء وهو الخضوع لصولة الحق بأن يتلق الحق بالخضوع له والانقياد بحيث أن الحق يعلو عليه ولا يعلو هو على الحق وبهذا يحصل خلق التواضع ضد العبد ولما كان للحق صولة وسلطان فإن النفوس المتكبرة تريد التعالى على هذا السلطان بصولة الكبرياء التى تحتوى عليها نفوسهم فتريد أن تحل صولة الكبرياء وباطل الكبرياء محل صولة الحق والتواضع لايتم إلابخضوع العبد للحق وانقياده له ويكون من علامات التواضع رضوخ العبد وانقياده لصولة الحق .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى التواضع للدين وهو ألا يعارض بمعقوله منقولا ولا يتهم للدين دليلا ولا يرى إلى الخلاف سبيلا .

والتواضع للدين هو الانقياد لما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من عند الله والإذعان والاستسلام له ثم قال ويتم ذلك بثلاثة أشياء . الأول : ألا يعارض شيئا مما جاء به بشىء من المعقول أو القياس أوالسياسة، والصفة الأولى ظهرت فى جماعة المتكلمين كالمعتزلة والشيعة وغيرهم من حيث إنهم قد عارضوا الوحى بآرائهم الشخصية أو بما ينقلوه عن غيرهم من المناطقة أو الفلاسفة وقد ظهر ذلك التعارض نفسه فى بعض المنتسبين المذاهب الفقهية حيث يعارضون مذهب غيرهم لمجرد التحيز لمذهبهم وكذلك المعارضين للحق الشرعى من أهل المصالح السياسية فإذا تعارضت سياستهم مع الشريعة لم يلتفتوا إلى الشريعة تأييدا لسياستهم .

أما قوله ولا يتهم للدين دليلا بظنه فيتعارض ظنه مع الوحى وقد يكون ذلك من نقص الفهم فمن حدث له ذلك فليتهم فهمه هو بعدم وصوله إلى حكمة الشارع .

الواقع أنه ما اتهم امرؤ دليلا من أدلة الدين إلا لتعصبه أو نقص فهمه أو فساده ذهنه .

وقد قال الشافعى رضى الله عنه (وقد أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل له أن يدعها لقول أحد من الناس بعد ذلك) .

قال ولا يصح المعتقد السليم إلا بأن يعلم أن النجاة فى البصيرة والإستقامة بعد الثقة وأن البينة وراء الحجة .

والبصيرة نور يجعله الله فى القلب فيفرق به العبد بين الحق والباطل ونسبة هذا النور إلى القلب كنسبة ضوء العين إلى العين .

قال والثانى أى يعلم أن الاستقامة إنما تكون بعد الثقة ومعنى ذلك ألا يكون حصول الاستقامة فى القول والعمل والحال إلا بعد الثقة بصحة مامعه من الحق وأن الشرع مقتبس من مشكاة نور النبوة ومن تعدى ذلك فلا تصح له استقامة لأنه يكون قد أضاع الأساس ،

أما قوله والثالث أن يعلم أن البينة وراء الحجة فمعناه أن استبانة الحق ووضوحه إنما يكون بعد الحجة . والحجة تكون قد قامت على المسلم بعد إسلامه وإيمانه .

ثم قال والدرجة الثانية : أن ترضى بمن رضى به الحق لنفسه عبدا من المسلمين أخا لقوله تعالى (إنما المؤمنون أخوة) وأما قوله ألا ترد على عدوك حقا أى لا تمنعك عداوة من عاديت من أن تقبل منه الحق إذا ظهر

عنـــده ومعناه ألا تصح لك درجة التواضع حتى تقبل الحق ممن تحب وممن تكره .

وأما قوله وقبولك من المتعذر معاذيره أى فمن اعتذر إليك من باطله رجوعا إلى الحق فاقبل منه عذره وكذلك من أساء إليه واعتذر من إساءته فإن التواضع يوجب عليك هذه وتلك .

ثم قال والدرجة الثالثة : أن تتضع للحق فتنزل عن رأيك فى عوائدك وعن رؤية ماتظن أنت أنه حق ظنا .

وأما قوله وعن رسمك فى المشاهدة ومعنى الرسم هنا كل ماسوى الله من شىء أى أن تتضع عن رسمك فى المشاهدة إذا بدت لك أنور الحق سبحانه وتعالى وتنفذ ما أمرك به وعلى مقتضى أمره وليس على مقتضى حالك أو ماتراه من رأيك فلا يكون باعثك على العبودية لله مجرد رأى أو هوى أو عادة وكذلك لا ترى لك حقا على الله لأجل عملك فإن هذا مفسد لعبوديتك بل يجب أن تسير مع الله بمحض الإنكسار لحضرته والخضـــوع لأمره عالما أن كل حسنة تبدو منك فهى من بره ورحمته وإحسانه وهذا معنى قوله وتنزل عن رسمك فى المشاهدة لأن الهداية منه إليك نازلة وليست منك إليه صاعدة وتكون النتيجة : أن التواضع للحق فناؤك عن نفسك وشهود فضله عليك .

وأنشدوا فى معنى التواضع :

قف بالخضوع وناد ربك ياهو ... إن الكريم يجيب من ناداه
واطلب بطاعتك رضاه فلم يزل ... بالجود يرضى طالبين رضاه
شملت لطائفه الخلائق كلهـــا ... ما للخلائق كافل إلا هـــو
فعزيزها وذليلهـــا وغنيها ... وفقيرها لا يرتجون ســـواه

ملك تدين له الملوك وترجى يوم القيامة فقرهم بغناه
سبحان من عنت الوجوه لوجهه وله سجدنا أظـــلة وجباه
وإليه إذا رنت العقول فآمنت بالغيب تؤثر حبها إياه
طوعا وكرها خاضعين لعزه وله عليها الطوع والإكراه

باب الفتوة

قال الله تعالى (إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) .

ثم قال الشيـخ رضى الله عنه الفتوة ألا تشهد لك فضلا ولا ترى لك حقا وهى على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى . ترك الخصـــومة والتغافل عن الذلة ونسيان الأذية والدرجة الثانية : أن تقرب من يعصيك وتـكرم من يؤذيك وتعتذر إلى من يجنى عليك سماحا لا كظما وتوادا لا مصابرة .

ثم قال والدرجة الثالثة : أن لا تتعلق فى السير بدليل ولا تشوب إجابتك بغرض ولا تقف فى شهودك على رسم . واعلم أن من أحوج عدوه إلى شفاعة ولا يخجل من المعذرة إليه لم يشتم رائحة الفتوة ثم فى علم أهل الخصوص من طلب نور الحقيقة على قدم الاستدلال لم تحل له دعوى الفتوة ابداً .

والفتوة هي التفتى . والتفتى هو التكرم على الإخوان بالإيثار وعلى الفضائل بالـكتمان وألا ترى لك حقا على الناس وتثبت حقهم عليك ومن شأن أهل الفتوة كتمان الـكمال وإظهار النقص لينمو كمالهم فى بواطنهم وكنا ضربنا لأهل الفتوة مثلا بغير هذا الموضوع (فى كتاب جمهرة الأولياء) ببائع

الورد الذى يظهر ما ذبل منه إلى الناس وما حسن بيطنه إلى حبيبه وبهذا المثل يظهر لك كيف يستر أهل الفتوة فضائلهم ويبدون للناس نقائصهم حفظا على نمو تلك الفضائل (وجعلها لمحبوبهم).

وهذه لمعة من تعريف أهل الفتوة من سالكى طريق التصوف وقد أطلق على جماعتهم إسم الملامتية أو أهل الملامة للومهم دائما لأنفسهم وكان منهم الصائم الذى دخل بلدا قبل الإفطار فانكب عليه الناس يعظمونه ويقبلون يديه وكتفيه وكان هو يريد الخلوة مع الله فى آخر اليوم منتهزا فرصة صفاء النفس بالصوم فطلب من الله أن يخرجه من هذا المأزق أى من تكريم الناس له واشتغالهم به واشتغاله بهم وهو يريد الخلوة مع الله. فطلب من الله أن يغير هذا الحال إذا شاء فألهمه الله أن يمد يده فى جيبه فمدها فوجد تمرة واحدة فأكلها وقلنا (إن الوقت كان رمضان) ولكن لا ننسى الرخصة الشرعية للصائم إذا سافر بالفطر لاسيما وأن أكثر الصوفيه يكون أغلب وقتهم صوما فلما أكل صاحبنا التمرة انفض عنه الناس وقالوا لقد أفطر الشيخ. ثم انصرفوا عنه وهو يقول فى نفسه اشكرك يارب على انصرافهم والحظوة بنورك.

ومن أهل الفتوة أيضاً لص الحمام، ولص الحمام هذا رجل كان قد شكا لشيخه إقبال الناس عليه لأنهم يشغلونه عن الله فقال له الشيخ إذهب إلى الحمام وافعل ما يلهمك الله به هناك فذهب إلى الحمام وخلع ثيابه واستحم ثم عاد ليلبس ثيابه لكن لم يلهمه الله بعد بشىء فتلفت حوله فوجد ثيابا لشخص آخر ظاهرة البذخ والترف فى خامتها وفى ألوانها فألهمه الله أن يلبسها فوق ثيابه وكان صاحبها فى تلك اللحظة قد فرغ من استحمامه وعاد للبس ثيابه هو الآخر فبحث عن الثياب فلم يجدها فى موضعها ثم أجال بصره فى المكان باحثا عنها فرآها على صاحبنا الصرفى الملامتى الذى لبسها فوق ثيابه ولم يتحرك.

فقال له صاحب الثياب تعال يا لص يا من سرقت ثيابى فأفلت منه إلى باب الحمام وذهب الرجل وراءه صائحا يقول تعال يالص الحمام فسمعه الأطفال الذين هم فى الشارع فصاروا يقولون (لص الحمام أهه) وكان صاحبنا الصوفى بنفسه يحدوهم قولوا لص الحمام أهه ثم خلع الثياب وتركها لصاحبها واعتذر إليه فأخذ الرجل ثيابه بعد أن تأسف الصوفى له ثم ذهب الصوفى إلى شيخه فرحا مسرورا وهو يقول له لقد كسرت صولة النفس يا شيخى قال الشيخ نعم : وأنعم بك وأكرم . كواحد من أهل الفتوة يبطن لله أحسن ما عنده ويظهر للناس أردأ ما عنده) .

وقد أوردنا هاتين الحكايتين أولا لأن الباب الذى نحن بصدده باب الفتوة وثانيا لأنه مسبوق بباب التواضع والحكايتان تؤيدان معنى التواضع ومعنى الفتوة فى وقت واحد وإذن فلنرجع إلى شرح كلام الشيخ صاحب منازل السائرين رضى الله عنه حيث قال وهى أى الفتوة على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى ترك الخصومة والتغافل عن الذلة ونسيان الأسية وقد جعل الشيخ رضى الله عنه أولى خصائص الفتوة ترك الخصومة لأن من شأن الفتى الترقى بفتوته عن الخصومات وكذلك التغافل عن الذلات ولما كان الأذى أذى الخلق من دناءة النفس كان من دلائل الفتوة ترك الأذية .

ثم قال الدرجة الثانية : أن تقرب من يعصيك وتكرم من يؤذيك ومعناه أن تقرب من يعصيك ليطيعك بحسن أوبك وجميل كرمك وأيضا أن تكرم من يؤذيك بحلمك فتدفعه إلى رؤية نفسه فى فعله السيء فيترفع عن الأذى متأثرا بأدبك . ناظرا فى حلمك وفى سوء عمله . وتعتذر إلى من يجنى عليك سماحة لا كظماً وتوادا لا مصابرة ، وهنا قد يستغرب كيف يتعذر الإنسان إلى من يجنى عليه . يعتذر له فى نفسه بالمقدور عليه من الله ولا ننسى

قول الشيخ فى باب سبق (الناس بأقدارهم موثوقون) فالواحد من أهل الفتوة يكون من طبعه إعذار الناس بالقدر وليس بمعنى الإعتذار الحقيقى إلى من جنى عليك .

وكان على زين العابدين رضى الله عنه (تصب عليه فى وضوئه جارية فسقط منها الإبريق فأحدث به جرحا فقالت الجارية حين رأت ذلك له والكاظمين الغيظ فقال رضى الله عنه وقد كظمت غيظى قالت والعافين عن الناس قال وقد عفوت عنك فأنت حرة لوجه الله تعالى) . وهذه النكتة الظريفة من المكارم التى قد تظهر معنى الإعتذار لمن يجنى عليك وهى من أعلى ضروب الفتوة أى الاعتذار له بتقدير الله ويكون ذلك كرما لا كظما أى للغيظ وتوادا بفعل مكارم الأخلاق لا مصابرة من الصبر والمصابرة هى استمرار الصبر وتجديده على مضض من النفس.

ثم قال الشيخ رضى الله عنه والدرجة الثالثة : ألا تتعلق فى السير بدليل أى لا تحتاج فى السير إلى الله إلى برهان أو دليل عقلى أو ظنى ولا تشوب إجابتك إلى الله بغرض أى بحاجة نفسية لك كزيادة الإنعام أو شهوة الوصول وألا يترتب شهودك للحقيقة إذا شاهدت على رسم أى لا تجعل فى شهودك لحقيقة الحقائق وهى الألوهية وتأثيرها فى الخلق إبداعا وفعلا لا تجعل شهودك هذا يتوقف على رسم أو سبب. والرسوم ظلال الحقائق ، فالرسم لا يغنى عن الحقيقة .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه واعلم أن من أحوج عدوه إلى شفاعة ولم يخجل من المعذرة اليه لم يشم رائحة الفتوة وهذا من الشيخ تعقيب على ما سبق من باب الفتوة وقد سبق شرح ذلك، ومعناه أن الفتوة مجموعة مكارم وترفع عن الزلات بالأعذار جميعا .

ثم قال الشيخ وعلى الخصوص من طلب نور الحقيقة على قدم الاستدلال لم تحل له دعوى الفتوة أبدا وهذا أيضا تعقيب على قوله لا تشوب إجابتك بغرض ولا تقف فى شهودك على رسم لأن من طلب نور الحقيقة على قدم الاستدلال بالفعل أو بالظن . لا تجوز له دعوى الفتوة أبدا لا سيما وأن الفتوة أساسها اليقين فى عمله أو عينه أو حقه واليقين يبدأ بالعلم فيسمى علم اليقين أى أن يكون فى عالم اليقين فاذا باشر اليقين قلبه صار فى عين اليقين فاذا شاهد الحقيقة بيقينه الخالص صار فى رتبة حق اليقين .

وأنشدوا فى هذا المعنى من شعر ضياء الدين على بن محمد الغرناطى السكندرى :

هى المنازل فانزل بمنة العلم ... ودع سؤالك عن سلمى وذى سلم

وإن انخت بوادى السرحتين فغب ... عن الخيام تشاهد صاحب الخيم

متى بادلك فى المصنوع صانعه ... فقد تجلت لك الأنوار فى الظلم

وان اشافك ريح بالعذيب فقل ... ثكلت قلبى إن أرى حقا لغيرهم

فكل من صقلت مرآة باطنة ... أرته شمس الهدى من مطلع الحكم

فغابت عن رؤية الأكوان واتصلت ... أوصافه بصفات الواله الفهم

فذاك الذى سرحت فى العز همته ... وأن يأتى ى الأغيار فى حرم

سما عن الوجد لما لاح موجده ... فالذات منبته والابن فى عدم

قد نال منها خليل الله مرتبة ... نجته من لفحات النار حين رمى

إذ قال جبريل فى أفق الهواء له ... لعل حاجة لك والنيران فى ضرم

فقال من وقته أما إليك فلا ... فقال سل ، قال حسبي علمه ألمى

باب الانبساط

قال الله تعالى (حاكيا عن موسى) (أفتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى بها من تشاء) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : الانبساط إرسال السجية والتحاشى عن وحده الحشمة وهو السير مع الجبلة وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : الانبساط مع الخلق وهو ألا تعتزلهم ضنا على نفسك أو شحا على حظك وتسترسل لهم من فضلك وتسعهم بخلقك وتدعم يطئونك والعلم قائم وشهودك للمعنى دائم .

الدرجة الثانية: الانبساط مع الحق وهو ألا يحبسك خوف ولا يحجبك رجاء ولا يحول بينك وبينه آدم وحواء ثم قال الدرجة الثالثة الانبساط فى الانطواء عن الانبساط وهو رحب الهمة لإنطواء انبساط العبد فى بسط الحق عز وجل .

والبسط حال من أحوال السالكين ويفسر بسلامة القلب وهو الاسترسال مع سجية الفطرة وأما التحاشى من وحشة الحشمة فمعناه التكلف لأن التحاشى تكليف السجية وحكمها بأمر زائد عليها .

وقالوا إن السجية معناها الطبع لغة ولكن المعنى عند الصوفيه أعمق من هذا بكثير لأنهم يردون الطبع إلى النفس بالتطبع ، ويفسرون السجية بالسليقة أو بالفطرة الأصلية التى جعل عليها القلب السليم لا سيما إذا دخل فى حال الانبساط ويكون إرسال السجية معناه تركها تجرى فى مجراها وهو مجرى الفطرة الذى فطرت عليه .

ويفسر هذا المعنى بوضوح قول الله تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) .

ثم قال وهو على ثلاث درجات : أى البسط أو الانبساط البعيد عن الوحشة والاحتشام والتكلف فإن من بسطه الحق فقدم إليه بساطا من رحمته يرتقى به إلى هذا الحال فتنبسط إلى مولاك مع الإجلال وليس مع الوحشة ومع الحشمة وهذا نفسه ما يوجب الانبساط مع الخلق وعدم اعتزالهم ضنا على نفسك أى ضنا بنفسك عن تفهم وليس هذا فقط. بل و تسترسل لهم فى فضلك أى يسعهم فضلك و أنت مسترسل فى توسيعه وذلك بما مر فى المتن مما ذكره الشيخ فى أبواب التواضع والخلق والفتوة وما إلى ذلك فوجب أن يأخذ البسط خطة من تلك النعوت .

وأما قوله وتدعهم يطئونك لا يريد المباشرة وإنما يريد المجاز ومعناه أن تدعهم يطئون بساطك هذا المتسع الذى بسطه الله لك وأوجب عليك به الانبساط إليهم بالفضل والمنفعة والمعرفة ، وما كان من حق الشيخ أن يلجأ هنا إلى الكناية والاستعارة ليصعب درك المعنى على القارىء فينصب الوطء على الإنسان نفسه بمثل تلك الطريقة وهـذا ليس من غرضه طبعا .

واعلم أن الله ما بسطك بحال البسط إلا لتفرغ نفحات هذا البسط على عباده وما وهبك الفضل إلا لتسعهم به فتكون قد أظهرت من خصائص الله ومكارمه أنوارها على عباده فلا يحملك الشح بذلك طلب حظك من الله بالخلوة وقد ندبك إلى أن تشاركهم فيما أنت فيه من بسط وفضل فتتكرم عليهم بحظك من عزلتك إيثارا منك لنفعهم . وبهذا يتضح قول الشيخ وتسترسل لهم فى فضلك وتسعهم بخلقك أى — باحتمال ما يبدو منهم من مغايرة ، وبهذا وذاك تكون قد أفسحت لهم فى بسطك فيطئونه بفضل الله لا بفضلك .

الدرجة الثانية : الانبساط مع الحق وهو ألا يحبسك فيه خوف ولا يحجبك رجاء (أى عنه) ولا يحول بينك وبينه آدم ولا حواء .

والشيخ يريد أن يقول ويجب أن يكون انبساطك مع الحق بطريقة لا يحبسك فيها خوف ذلك لأن الخوف والقبض أيضا من الأمور المباينة للانبساط .

وأما قوله ولا يحجبك رجاء أى لا يشغلك الرجاء فى حاله أعلى من البسط إذ البسط وهو السرور والانبساط فالرجاء فى هذه الحاله يخرج صاحب حال البسط من الانبساط .

وأما قوله لا يحول بينك وبينه آدم ولاحواء فهو استعارة يريد بها مطلق الجنسين من بنى آدم ومعناه ألا يحول بينك وبين الله تعالى فيما أمدك به من حال قرابة ولا رحم فلا توسط للخلق بينك وبين الحق .

ثم قال والدرجة الثالثة : الانطواء عن الانبساط أى الانطواء عن أن ترى البسط وسعة الفضل من نفسك للناس لأن الله هو الباسط وأنت المنبسط بما أنك لست صاحب هذا الفضل العظيم أو إنه منسوب إلى نفسك فتنطوى فى نفسك عن أن ترى الانبساط منك إليهم بل إنه لك ولهم من الحق عز وجل وبهذا تتمكن من حال الانبساط فيثبت ظل هذا الحال عليك وعلى الناس من الله فضلا ونعمة . والحال ما سمى حالا ألا لكونه قد يحول أو قد يثبت ليحول بحال أرفع منه وهكذا،فمثلا نرى حال البسط يسلم لحال الأنس ولحال الأنس وشيجة قوية بحال الحب والحب داع إلى حال الفناء وفناء الفانى فى الباقى هو غاية الوصول . والبقاء معا ، وكلامنا هنا ينصب على السالكين أو الواصلين من جهة المقامات والأحوال وليس على المبتدئين من المريدين والتائبين ونرى القلم قد شطح هنا إلى مقامات وأحوال سيتكلم فيها الشيخ وسنشرحها بإذن الله تعالى .

وأنشدوا فى معانى البسط والانبساط من قول ابن بنت الميلق المغربى حيث يقول :

من ذاك طعم شراب القوم يدريه ... ومن دراه غدا بالروح يشريه
ولو تعوض أرواحنا وجاد بها ... فى كل طرفة عين لا يساويه
فقطرة منه تكفى الخلق لو طعموا ... فيشطحون على الأكوان بالتيه
وذو الصبابة لو يسقى عدد الأ ... نفاس والأكوان كأس ليس يرويه
يروى ويظمأ لا ينفك شاربه ... يصحو ويسكر والمحبوب يسقيه
فى ريه ظمأ والصحو يسكره ... والوجد يظهره طورا ويخفيه
يبدو له السر من أفق وجهته ... وليس الإله ما كان يبديه
له الشهادة غيب والغيوب له ... شهادة والفناء المحض يبقيه
له لدى الجمع فرق يستضىء به ... كالجمع فى فرقه ما زال يبقيه
يدنو ويعلو ويرنو وهم مصطلم ... فى الحالتين بتمييز وتوليه
له الوجودات أضحت طوع قدرته ... وما شاء من الأوطار يقضيه
للقوم سر مع المحبوب ليس له ... حد وليس سوى المحبوب يحصيه
به تصرفهم فى الكائنات فما ... شاء شاءوا وماشاءوا يقضيه
أن كنت تعجب من هذا فلا عجب ... لله فى الكون أسرار ترى فيه
لاشىء فى الكون إلا وهو ذو أثر ... فما المؤثر غير الله قاضيه
ليس التضادد مناعا لقدرته ... من حيث قدرته يأتى تعاليه
وللفقير وجوه ليس يحصرها ... عد وكل وجود فهو واديه
لو كنت تدرى وجود العبد كنت ترى ... فيه الكمال كما النقصان ينفيه

والعبدهذا هوالحر الذى حصلت — له الخلافة جل الله معطيه
أوصافه ظهرت من وصف مبدعه — وكل مظهر يبـدى تجليـــه
إذا رؤى ذكر المولى برؤيته — وفاز بالسعد والتقريب رائيه
عبد عليه سمات العز لائحـة — وخلفه العز والتحـكيم عاليـه
إن كنت تقصد أن تحظى بصحبته — فاسلك على سيد طابت مساعيه
أخلص ودادك صدقا فى محبته — وحصل الدر والياقوت من فيه
واستغرق العمر فى أدب بصحبته — وحصل الدر والياقوت من فيه
وابذل قواك وبادر فى أوامره — تر الوفاق وبالغ فى مراضيه
واحذر بجهده أن تأتى ولو غلطا — ما لايحب وباعد عن مناهيه
وكن محب محبيـه وناصرهم — والزم عداوة من أضحى يعاديه
واعـلم يقينا بأن الله ناصره — إن لم تـكن ناصرا فالاله يـكـفيه
وأنزل الشيخ فى أعلى منــــازله — واجعله قبـلة تعظيم وتنزيه
وليست تفعل هذا إن ظننت به — نقصـــا ولا خللا فيما يعانيه

وفى هذا القصيد فضلا عن بيان معانى البسط بيان صحبة أهل الله ومحبيه.

القسم الخامس وهو قسم الأصول

وفيه عشرة أبواب

وهى : القصد ، والعزم ، والإرادة ، والأدب ، واليقين ، والأنس ، والذكر ، والفقر ، والغنى ، ومقام المراد .

باب القصد

قال الله تعالى (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله).

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : القصد : الإزماع على التجرد للطاعة وهو على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى : قصد يبعث على الارتياض ويخلص من التردد ويدعو إلى مجانبة الأغراض .

الدرجة الثانية : قصد لا يلقى سببا إلا قطعه ولا يدع حائلا إلا منعه ولا تحاملا إلا سهله .

والدرجة الثالثة : قصد الاستسلام لتهذيب العلم وقصد الإجابة لدواعى الحكم وقصد الاقتحام فى بحر الفناء .

يقول الشيخ رضى الله عنه . القصد هو الإزماع وعندنا الإزماع أول القصد والقصد غاية الإزماع من حيث أن الأزماع جمع النية على قصد الفعل ويكون القصد بالتجرد للطاعة كما يقول الشيخ .

ولذلك استدل الشيخ على قوله بقول الله الذى صدر به باب القصد (ومن يخرج من بيته مهاجرا) أى مزمعا الهجرة قبل فعلها وقاصدا بالفعل فهنا لو مات وقع أجره على الله تعالى لتوفر الإزماع وهو جمع النية والتوجه بالقصد المصمم إلى الهجرة فى سبيل الله بأى نوع من أنواع المهاجرة الشرعية للحج أو لغيره من ضروب الجهاد لأن المقصود من الآية بذل الجهد بالإزماع ثم النية ثم القصد لذلك يقع أجره على الله إذا انقطع عمله بالموت أو بغيره .

ثم قال الشيخ وهو على ثلاث درجات :

قال الدرجة الأولى: قصد يبعث على الارتياض وهو الدخول فى الأمر نية وسلوكا وتحصيلا : ويخلص من التردد وذلك بالأسباب المذكورة التى ذكرت ويدعو إلى مجانبة الأعراض ولعل الشيخ يريد الأغراض وعلى كلا الوجهين تكون الأغراض النفسية الشخصية داعية إلى الإعراض عما أزمع وقصد إليه السالك .

قال والدرجة الثانية : قصد لا يلقى سببا إلا قطعه أى سببا مانعا عن القصد فى السير والغاية فى الوجهة إلا قطعه أى أبعده وأزاله وقال (ولا يدع حائلا إلا منعه) والغرض من هذا الترادف تأكيد المعنى ولذا قال أيضا (ولا تحاملا إلا سهله) ويريد بالتحامل هنا أن يكتمل الشخص القاصد المجد على نفسه بالجد ليسهل ذلك التحامل برده إلى الغاية التى إليها يقصد ولها يسير ويسلك .

قال والدرجة الثالثة : قصد الاستسلام لتهذيب العلم ويريد الشيخ والله تعالى أعلم ألا يترك السالك فى قصده اصطحاب العلم لما فيه من تهذيب وتنوير يبعث على التثبيت بالغاية وفى مثل هذا المعنى يكون قد أجاد من يقول بهذا الصدد :

فأحببتهم والشيخ ما لم ينتفع بالعلم غر

ثم قال الشيخ وقصد ولعلها يقصد إجابة دواعى الحكم وقصد اقتحام بحر الفناء .

ويريد أن يقول إذا استصحب السالك فى طريقة العلم دائما لما فيه من تهذيب وإرشاد فعل ذلك استجابة لدواعى الحكم الشرعى والخلقى وهو معنى قوله (إجابة دواعى الحكم) .

ثم قال وقصد اقتحام بحر الفناء أى وذلك أيضا رغبة فى تصفية السلوك

وأحكامه لاقتحام بحر الفناء. ومعنى الاقتحام هنا إعداد العدة بالعزيمة والقصد والسير لخوض بحر الفناء وهو الغاية التى لا مطلب وراءها ولا رجوع من ربوعها .

وأنشدوا فى معنى هذا الباب قولهم :

لقد وضح الطريق إليك قصدا فما أحد أرادك يستدل
فإن ورد الشتاء ففيك صيفا وإن ورد المصيف فأنت ظل

وأنشدوا أيضا :

ولما أدعيت الحب قالت كذبتنى فما لى أرى الأعضاء منك كواسى
فما الحب حتى يلصق الجلد بالحشا وتذبل حتى لا تجيب المنادى
وتنحل حتى لا يبقى لك الهوى سوى مقله تبكى بها وتناجيا

هذا وفى الأبيات الأخيرة مجاز هو كناية عن الفناء أى فناء الرسوم والأغيار فى القصد إلى الله وليس المراد الضعف والنحول والذبول للجسم وما إلى ذلك .

باب العزم

قال الله تعالى (فاذا عزمت فتوكل على الله) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : العزم الحقيقى القصد طوعا وكرها وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : إباء الحال على العلم لشيم برق الكشف واستدامة نور الأنس والإجابة لأمانة الهوى .

الدرجة الثانية : الاستغراق فى لوائح المشاهدة واستنارة ضياء الطريق واستجماع قوى الاستقامة .

الدرجة الثالثة : معرفة علة العزم ثم عزم التخلص من العزم ثم الخلاص

من تكاليف ترك العزم فان العزائم لم تورث أربابها ميراثاً أكرم من وقوفهم على علل العزائم .

وقد عرف الشيخ رضى الله عنه فى أول كلامه العزم الحقيقى بأنه العزم طوعا وكرها أى طوعا بالرغبة والإرادة أو رضوخا لأحكام الشريعة وآداب الطريقة وهدى الحقيقة .

ونحن كنا نرى أن باب العزم يجب أن يكون قبل باب القصد ودليل ذلك نفس الآية التى استشهد بها من قول الله تعالى (فإذا عزمت فتوكل على الله) المراد منها والله أعلم فاذا نويت وكملت النية فكانت عزما فتوكل على الله واقصد وسر فيما تقصد إليه لأن القصد توجه ، والعزم صدق النية فى هذا التوجه . ولكن الشيخ فى باب العزم الذى جعله بعد باب القصد قد أراد أن يقول إن القصد الثابت المصمم لا يكون إلا باستصحاب العزم فى سائر خطوات القصد سواء كان القصد طواعية وإلزاما بحكم من الشرع أو من موجبات الحقيقة ولعله لهذا السبب قدم القصد على العزم . وما الشرع فى الواقع إلا ظاهر الحقيقة وما الحقيقة إلا باطن الشرع فهما يلتقيان ويتوحدان ضرورة ، وتعال معى لنرى (البطيخة) مثلا هل هى خضراء كما فى ظاهرها أم هى حمراء كما يتضمن باطنها ؟ والجواب على ذلك يكون : إن البطيخة خضراء وحمراء فى وقت واحد باعتبارها كلا ، فهى خضراء باعتبار ظاهرها وحمراء باعتبار باطنها لأنها فى ذاتها شىء متوحد . وقد ضربنا هذا المثل التوضيحى البسيط لتوضيح مابين الشريعة والحقيقة من صلة فهما شىء واحد لا يتعدد فى حقيقته وأن تثنى بالتعبير عنهم .

والشيخ جعل القصد قبل العزم لأنه فى رأيه المركز الذى ينطلق إليه العزم وأن القصد لا يتم إلا باستصحاب العزم فهو لذلك عقب على القصد بالعزم كما تريد أن تعبر عن باطن الشىء وظاهره والشىء واحد فالعزم رغبة الدخول فى القصد : والقصد السير مع اصطحاب العزم وهما بالنسبة للغاية

أمر واحد له ظاهر وباطن فظاهره العزم وباطنه القصد وسواء فى الشىء المتوحد أن تقدم أحد شطريه على الآخر أو تأخر . وهذا يقوم منا عذرا للشيخ رضى الله عنه ولنسر فيما قصدنا إليه من شرح العزم حيث يقول وهو على ثلاث درجات :

فالدرجة الأولى : إباء الحال على العلم لشيم برق الكشف واستدامة نور الأنس ويريد به الحال وأن كان مستفادا من العلم فان العلم لا يقاوم الحال كمن يصف بعلم ظل شجرة فهو عليم بذلك ومن جلس تحتها بالفعل وتذوق معنى ذلك الظل وانه مستظل به لابد أن يكون حال المستظل أقوى تأثيرا وتأثرا من العالم به بمجرد العلم ، لذلك علل الشيخ رضى الله عنه إباء الحال على العلم أى استعصاء كنهه لوقوعه بالفعل والتذوق وجعل الشيخ سببه شيم أى لحظ برق الكشف المتأتى عن الحال . فالحال هنا غالب على العلم لوقوع صاحب الحال فيه بالفعل ولذلك عقب بقوله تأييدا لرأيه واستدامة نور الأنس لأن صاحب الحال مأنوس بحاله وهو غير العليم به ثم قال والإجابة لأمانة الهوى فتمكن صاحب الحال فى حالة يكون أبعد من الاستجابة إلى الهوى هوى النفس من صاحب مجرد العلم بالحال فانه أقرب للانخداع بالهوى وذلك لعدم كمال التذوق .

ثم قال الدرجة الثانية: الاستغراق فى لوائح المشاهدة فإن الأول صاحب شيم برق المشاهدة كان لا يملك منها إلا اللحظ وهو الشيم ولكن صاحب الدرجة الثانية استغرق فى لوائح المشاهدة واللائح ما يلوح ويبدو بالفعل وهو غير من لحظ أوشام ثم قال واستنار بضياء الطريق لأنه أكثر تمكنا فى الطريق من المبتدىء اللاحظ أى الذى ليس عنده إلا مجرد اللحظ والشيم .

وبهذا وذاك يكون الأمر كما يقول الشيخ من أن صاحب الدرجة الثانية أكثر استجماعا ولطرائق الاستقامة وهو مأخوذ من قوله (استجماع قوى الاستقامة) .

ثم قال والدرجة الثالثة : معرفه علة العزم ، ذلك لأن العزم وأن كان به قيام استمرار القصد له علل ومن علله رؤية العازم والقاصد دون أن يفكر فى أن عزمه وقصده هداية ومنة من الله عليه وتلك علة من علل العزم ويقاربها غيرها طبعا ولذا قال الشيخ ثم العزم على التخلص من العزم اى من رؤية هذا العزم ومن نسبتك لنفسك وقال الشيخ ثم الخلاص من تكاليف ترك العزم أى تكاليف فكرة الرجوع عن القصد بترك العزم ولذا قال فان العزائم تورث أربابها ميراثا أكرم من وقوفهم على علل العزائم وذلك لأن المتجرد من رؤية نفسه فى العزم والقصد أيضا قد خلص من الإدعاء وهو أكبر العلل فيكون المتخلص من الدعوى دعوى العزم والقصد قد تخلص من تكاليف أثرهم ومقتضيات التفكير فى الرجوع عن العزم وهذا معنى قول الشيخ الخلاص من تكاليف ترك العزم وحقا أن العزائم لم تورث أربابها أفضل ولا أكرم من عرفان علل العزائم خالصة لوجه الله من كل شوب ومن كل دعوى .

وأنشدوا فى معنى القصد والعزم :

هم بالذى أودع الاحشـــا محبته ... واحفظ حقوق الهوى ولاتخش من عار
واشهد إذا لاح للأرواح طالعه ... أنوار حسن تبدت دون أستار
واطو ادعاءك فى مجلى مطالعه ... واشهدك سرا بدا من نوره الوارى
وامح الوجود جميعاً عنـــد رؤيته ... واعرفه فى كل إقبال وإدبـــار

باب الارادة

قال الله تعالى (قل كل يعمل على شاكلته)

ثم قال الشيخ رضى الله عنه الإرادة من قوانين هذا العلم وجوامع أبنيته وهو الإجابة لدواعى الحقيقة طوعا وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : ذهاب عن العادات بصحبة العلم والتعلق بأنفاس السالكين مع صدق القصد وخلع كل شاغل من الإخوان ومشتت عن الأوطان

قال والدرجة الثانية : تقطع بصحبة الحال وترويح الأنس والسير بين القبض والبسط .

والدرجة الثالثة : ذهول مع صحة الاستقامة وملازمة رعاية الأدب.

ومعنى تصدير الشيخ باب الإرادة بقوله تعالى (قل كل يعمل على شاكلته) أن المريد تصبح له شاكلة غير شاكلة غيره من الناس فكل إنسان يعمل على ما يناسبه ويليق بتقواه والمريد يعمل على مشاكل تلك الإرادة ومعنى كلمة (المريد) أنه أراد الجد فى السير والسلوك إلى الله تعالى فيكون قد أراد عكس ما كان يريد قبل إرادة السلوك .

فالمريد الصادق يطلب دائماً من العمل ما يليق ويناسب مقام الإرادة وهو لأجل ذلك قد خلع إرادة السوا وإرادة الدنيا وطلب إرادة الآخرة بل قال إرادة وجه الله تعالى وبذا يكون قد عمل على ما يناسب مقامه ويليق وهو مقام الإرادة .

فان المريد الصادق المجد يعمل على ما يناسب مقامه ويليق به دون مبالغة أو قصور ثم قال الشيخ والإرادة من قوانين هذا العلم وجوامع أبنيته وهى الإجابة لدواعى الحقيقة طوعا أو كرها ويريد رضى الله عنه أن يقول إن المريد أراد السلوك طوعا ولكن للسلوك عند القوم قوانين وقواعد مرسومه هو قواعد السلوك ومقاماته وأحواله وهذا معنى قوله من قوانين هذا العلم ويريد بالعلم (علم التصوف) وقوله وجوامع أبنيته يريد قواعده المرسومة والموصلة بحسب ما يقتضيه العلم أى العلم الخاص بأهل التصوف والذى تجمع مباديه ونهاياته بين أحكام الشريعة وأصول الطريقة وأحوال الحقيقة ويحض المريد على اتباع تلك القواعد بقوله وهى الإجابة ويريد الاستجابة لدواعى الحقيقة أى الحقيقة المذكورة طوعا لأنه مريد أو كرها لأنه ملزم لما أراده من سلوك الطريق باتباع ما لها من قواعد وقوانين هو ملتزم باتباعها ولما كانت الإرادة انبعاث من القلب بنور يوجهه الله اليه

من طريق الإلهام ولما كانت حركات القلب وما يجرى فيه من نور أو إلهام أو بصيرة أمراً باطنيا سمى علم القوم علم الباطن وفى مقابلة العلم بالشرع أى الفقه فيه وهو علم الظاهر الذى يتعلق بتوضيح أحكام الجوارح واسمه علم الظاهر ، وبهذا وذاك يكون قد اجتمع للمريد قواعد العلم التفصيلى للحقيقه الواحدة وهو العلم بالشريعة ثم العلم بالطريقة ثم العلم بالحقيقة وهو علم المعرفة .

وقالوا فى تعريف ذلك : الشريعة ، أن تعبده . والطريقة أن تقصده والحقيقة أن تشهده — وذلك كله مستمد من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله وفعله . من حيث أن الشريعة أقواله والطريقة أفعاله والحقيقة مواجيده التى عرفها أكمل التعريف بقوله (لى وقت مع الله لا يسعنى فيه أحد غيره من إنس أو جن أو ملك) أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

وهذا كله موضح تمام التوضيح فى حديث جبريل الذى رواه عمر ابن الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث الإحسان الذى قال فيه جبريل سائل الرسول صلى الله عليه وسلم ما الإسلام فأجابه وما الإيمان ؟ فأجابه وما الإحسان فقال (أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) وهذا الحديث سيأتى تفصيله بباب الإحسان إن شاء الله تعالى .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه وهو على ثلاث درجات (أى باب الإرادة) على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى : (ذهاب عن العادات بصحبة العلم) أى العلم بالشريعة وبالطريقة وبالحقيقة كما قدمنا والتعلق بأنفاس السالكين أى بالشرب من مشربهم وبسلوك مسلكهم وبالعمل على ما يشاكل طريقتهم ثم قال (مع صدق القصد) وهو واضح وخلع كل شاغل من الاخوان أى خلع كل مالا يتناسب مع تلك الشاكلة من الاخوان مطلقا ويستثنى منهم ضرورة

الاخوان فى الله تعالى لأنهم على تلك الشاكلة نفسها فكل مايشغل عن الله من إخوان يجب الابتعاد عنه إذا كان السالك صادقا فى الذهاب عن العادات الى كان عليها وفى التعلق بأنفاس السالكين مع صدق القصد فقد وجب خلع كل شاغل عن الله تعالى وكذلك كل مشتت عنه من الأوطان ويريد بالوطن مقاصد كثيرة منها الطينة والجبلة والعادات والوطن المسكون بما فيه من أهل ومال ، كل أولئك لو شتتوا السالك عن تركيز إرادته فى طريق الله يجب تفاديهم بنصحهم أو بالحلم عليها أو بالابتعاد عنهم.

ثم قال رضى الله عنه والدرجة الثانية (تقطع بصحبة الحال وترويح النفس والسير بين القبض والبسط) ويريد بالتقطع التنقل بشرط أن يصحبه ماهو فيه من حال قد ثبت ، وهذا التنقل يكون بين ترويح الأنس والسير بين القبض والبسط أى أنه لو غلب عليه الخوف الميئوس روحه بالأنس المرجى وذلك بالسير بين القبض والبسط أى أنه يستعين على حال القبض بحال البسط ويستعين على حال البسط إذا حصل بحال القبض الذى هو نتيجة الهيبة والمخافة، والبسط حال يحصل التوازن وقد مر الكلام عن القبض والبسط فيما شرحناه .

ثم قال الشيخ والدرجة الثالثة (ذهول مع صحة الاستقامة وملازمة رعاية الأدب) ويريد بالذهول غير المعنى المفهوم بادىء الأمر وإنما يريد مايعبر عنه بالانخطاف الروحى أو انشغال القلب بما هو الأهم مع صحة الاستقامة وملازمة رعاية الأدب فمن صحة الاستقامة ملازمة رعاية الأدب دون افراط أو تفريط. وليس المراد بالذهول الشطح الصوفى الذى يظهر من ضعفاء أهل التصوف وإنما المراد به شغل القلب بالله مع صحة الاستقامة أى بالشريعة (وملازمة رعاية الأدب) أى مع الله باتباع علمى الطريقة والحقيقة .

وأنشدوا فى معنى صحة الإرادة عند المريد الصادق قول عمر بن الفارض رضى الله عنه :

أنتم فروضي ونفلي ... أنتم حديثي وشغلي
يا قبلتي في صلاتي ... إذا وقفت أصلي
جمالكم نصب عيني ... إليك وجهت كلي
وسركم في ضميري ... والقلب طور التجلي
آنست في الحي نارا ... ليلا فبشرت أهلي
قلت أمكثوا فلعلي ... أجد هداي لعلي
ودنوت منها فكانت ... نار المكالم قبلي
ناديت منها كفاحا ... ردوا ليالي وصلي
حتى إذا ماتدانى الـ ... ميقات في جمع شملي
صارت جبالي دكا ... من هيبة المتجلي
ولاح سر خفي ... يدريه من كان مثلي
فصرت موسى زماني ... مذ صار بعضي كلي
فالموت فيه حياتي ... وفي حياتي قتلي
أنا الفقير المعنى ... رقوا لحالي وذلي

باب الأدب

قال الله تعالى (والحافظون لحدود الله) :

وقال الشيخ رضي الله عنه : الأدب حفظ الحد بين الغلو والجفاء ومعرفة ضرر العدوان وهو على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى : منع الخوف أن يتعدى إلى الأياس وحبس الرجاء أن يخرج إلى الأمن وضبط السرور أن يضاهي الجرأة .

ثم قال والدرجة الثانية : الخروج من الخوف إلى ميدان القبض والصعود عن الرجاء إلى ميدان البسط ثم الترقي عن السرور إلى ميدان المشاهدة .

ثم قال والدرجة الثالثة : معرفة الأدب ثم الغنى عن التأدب بتأديب الحق لك ثم الخلاص من شهود أعباء الأدب .

أما قوله رضى الله عنه (الأدب حفظ الحد بين الغلو والجفاء) فيريد به حفظ الحد . بين المغالاة التى تخرج عن المقام أو الحال بالشطح والتقصير الموجب للجفاء ويريد بالجفاء طبعا ما يدعو إليه التقصير ثم قال (بمعرفة ضرر العدوان) أى وهو متحقق من معرفة أن المبالغة والمغالاة تخرج عن الحد المطلوب وكذلك التقصير الداعى إلى الجفاء .

ثم قال وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : (منع الخوف أن يتعدى إلى الأياس وحبس الرجاء أن يخرج إلى الأمن وضبط السرور أن يضاهىء الجرأة) .

فمعناه : حفظ الحد الوسط بالحذر من أن يتعدى حال الخوف إلى حال اليأس وحبس الرجاء أن يخرج إلى الأمن معناه حفظ الحد الوسط فى الرجاء فلا يدع الرجاء يتخطى حده فيخرج إلى الأمن من مكر الله وفى هذا المحنة والبلاء ثم ضبط السرور الناشىء عن الرجاء والبسط أن يضاهىء الجرأة على الله بالخروج عن حد السرور والبسط اللائقين بسالك طريق الله وذلك باتباع الأدب .

ثم قال والدرجة الثانية : الخروج من الخوف إلى ميـــدان القبض والصعود عن الرجاء إلى ميدان البسط ثم الترقى عن السرور إلى ميدان المشاهدة .

وهنا وفى الدرجة الثانية أراد الشيخ رضى الله عنه أن يصف الوسيلة إلى لزوم الحد المانع للإفراط أو التفريط وذلك بقوله (فى الدرجة الثانية الخروج من الخوف إلى ميدان القبض) ويعنى أنه إذا زاد الخوف رده إلى

حال القبض واكتفى به منعا من أن يؤدى خوفه إلى الأياس وهو اليأس فيعالجه بالاكتفاء بالقبض المشعر بحال الخوف والخوف أما أن يكون إخلاصا لله أو خوفا من ذنب قد سبق فالقبض يشعره بما يجب أن يحل محل الخوف .

ثم قال (وصعود عين الرجاء أيضا إلى ميدان البسط) ويريد هنا بالصعود ليس الارتفاع وإنما التحويم لأجل لزوم الحد . ثم (الترقى من السرور إلى ميدان المشاهدة) ويريد الشيخ رضى الله عنه أن يقول إذا تم المريد حبس الرجاء وضبط الخوف فجعل الخوف قبضا والرجاء سرورا ترقى بذلك لأنه الحد المطلوب إلى ميدان المشاهدة وهو مسرور لا خائف ولا راج .

ثم قال رضى الله عنه (والدرجة الثالثة : معرفة الأدب ثم الغنى عن التأدب بتأديب الحق ثم الخلاص من شهود أعباء الأدب) .

ويريد الشيخ رضى الله عنه أن يقول فى الدرجة الثالثة : إذا عرف المريد مقتضيات ما فى الدرجة الثانية من لزوم الحد بالتورط المانع للأفراط أو المبالغة أو التفريط الداعى إلى الجفاء عرف الأدب الواجب عليه اتباعه فإذا عرف الأدب واستعمله حتى يترقى به استغنى عن التأدب وذلك بتأديب الله له فإن صح له ذلك تخلص من شهود أعباء الأدب من حيث علمه وعرفانه إذا ترقى إلى التأدب بتأديب الله ومعاينة أن الأدب المطلوب ليس صادرا عن نفسه وإنما هو صادر عن تأديب الله له إذا بلغ ذلك تخلص من شهود أعباء الأدب ومن حمل تلك الأعباء أيضا .

وأنشدوا فى باب التأدب بالمربى من حيث أنهم قالوا (لولا المربى ما عرفت ربى) .

إذا المرء ربى نفسه بمراده   لقد شاده بنيانا على أسه

ومن لم تربه الرجال وتسقه لبانا لهم قد ضر من ثدى قدسه
فذاك اللقيط ماله نسبة الولا ولن يتعدى طور أبناء جنسه
إذا المرء لم يرتد رداء من التقى على يد أستاذ خبير بنفسه
يربه رهونات النفوس وكيدها ويشهده المحجوب عنه بحسه
ولم يك مجذوبا على يد قدوة لتحفظه الألطاف من غبن لبسه
ويبدو له المكنون من سر كونه وتجلى له الكاسات فى شرب أنسه
ويحسن منه الخلق للخلق بالحجا ويسمر مغناه بإيناع غرسه
فذاك لعمرى ناقص الحظ عاجز يريد سبيلا وهو يأتى بعكسه
وإن ربيب القوم لم يك هكذا ومن جاء بالبهتان راح ببخسه

باب اليقين

قال الله عز وجل (وفى الأرض آيات للموقنين) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : اليقين مركب الآخذ فى الطريق وهو غاية درجات العامة وقيل أول خطوات الخاصة وهو على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى : علم اليقين وهو قبول ما ظهر من الحق وقبول ما غاب للحق والوقوف على ما قام بالحق .

والدرجة الثانية : عين اليقين وهو الغنى بالاستدراك عن الاستدلال وعن الخبر بالعيان وخرق الشهود لحجاب العلم .

والدرجة الثالثة : حق اليقين وهو أسفار صبح الكشف ثم الخلاص من كلفة اليقين ثم الفناء فى حق اليقين .

يقول الشيخ رضى الله عنه فى الدرجة الأولى من درجات اليقين : اليقين مركب الآخذ فى هذا الطريق وهو غاية درجات العامة وقيل أول خطوات الخاصة .

وصدق الشيخ فنعم المركب فى طريق الله وفى طريق معرفـــة اليقين ولا شك .

قال وهو غاية درجات العامة وقيل أول خطوات الخاصةوهذا أيضا صحيح أما من جهة كونه غاية درجات العامة وقدمنا أنه يريد بالعامة عامة الناس وليس عوامهم فإن سلوكهم فى المقامات والأحوال يبدأ بالتوبة ثم الاخلاص فيها ثم الصبر على طاعة الله وعن معصيته ثم الرضى بأحكامه تعالى والتسليم فيما يريد وبهـذا وذاك — يحصل اليقين ويعتبر أول خطوات الخاصة .

ثم قال وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى علم اليقين وهو قبول ما ظهر من الحق وقبول ما غاب للحق والوقوف على ما قام بالحق :

وهذا معناه قبول ما ظهر من الحق القرآنى ثم التشريعى ثم جمعهما بالتسليم إلى ما جاء من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون السالك قد حكم الله ورسوله بقبول ما جاء عنهما من الحق كتابا وسنة . وأما قوله وقبول ما غاب للحق ويريد بذلك الإيمان بالغيب تحقيقا لقول الله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصـــلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك على هـدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) المفلحون بالفعل إيمانا ويقينا .

وسمى الشيخ رضى الله عنه الحصول على ذلك اليقين بعلم اليقين لأنه مؤسس على السماع للمشروع كتابا وسنة فإذا أيقن به العبد أى بما جاء من عند الله وما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم فقد حصل من ذلك العلم باليقين .

وأما قوله ما ظهر من الحق أى ما ظهر بالدلائل الكونية والقرآنية

من الحق الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حصل عنده ذلك المقام وتحقق به ، (مقام علم اليقين) .

وأما قوله ما غاب للحق فقد تقدم وهو الإيمان بالغيب وأما قوله والوقوف على ما قام بالحق من وجود الذات والأسماء والصفات والأفعال وما لزم عن ذلك من وجود الكائنات فسلكها قائمة بالحق .

ثم قال والدرجة الثانية عين اليقين وهو الغنى بالاستدراك عن الاستدلال وعن الخبر بالعيان وخرق الشهود لحجاب العلم وقوله الغنى بالاستدراك عن الاستدلال يريد به المدارك الفعلية أو القلبية لأن للقلب عينا وللعقل عينا تدركان مالا تدركه عين الحس،والاستدلال إنما يقوم على المشاهدة الحسية بمساعدة القرائن المعقولة وذلك ما يؤدى إليه العلم بالكائنات وهو العلم الطبيعى القائم على الادراكين : الحسى والعقلى . والشيخ يريد ما وراء كل ذلك،ولذلك قال فى هذه الدرجة الثانية : وخرق الشهود لحجاب العلم فجعل الشهود خروجا من حجاب العلم لأن العلم لو وقف عند الظواهر:ظواهر الكائنات واكتفى بها صار حجابا عن حقائقها فالشيخ يوصى السالك بأن يجعل الشهود مفتاحا يخرق به ما قد يقع بسبب العلم من احتجاب عن الحقائق ، فاذا غلب السالك لطريق الله الشهود على العلم باشر بعقله وقلبه وحتى بحواسه عين اليقين وهى درجة أعلى من علم اليقين طبعا .

ثم قال والدرجة الثالثة حق اليقين وهو أسفار صبح الكشف ثم الخلاص من كلفة اليقين ثم الفناء فى حق اليقين ويريد بهذا أن يكون إذا بلغ السالك درجة الكشف وهى مشاهدة حق اليقين التى هى درجة الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه) ولذلك قال (فإن لم تكن تراه فإنه يراك) . رجوعا إلى عين اليقين ، فالأولى توجب المكاشفة والشهود وهى حق اليقين والثانية توجب المراقبة والخشية وهى عين اليقين واما علم اليقين ، فهو ما جاء عن حصول اليقين علما ولذا سمى علم اليقين .

والفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين يظهر فى المثل الآتى :ـ (رجل بيده تفاحة أشتم رائحتها ورأى لونها وحجمها وسر بذلك فهو عليم بظاهر التفاحة (علم اليقين) ثم أكل منها وتذوقها فإن أضاف التذوق إلى ما كان من العــــلم قرب إلى (عين اليقين فى التفاحة) فإن انقلب التذوق واللذة وتقدير مافى ذلك من جمال أو قل قيمة معنوية ذاتية انتهى بالشهود العضوى وهو بالنسبة للتفاحة فى درجة (حق اليقين) وقد سبق له علم اليقين بها وعين اليقين بتذوقها ولمـا انقلب الأمر فصار شهودا ذوقيا باطنيا بما فيه ذلك كله من جمال فقد صار فى خبرته بالتفاحة فى مقام (حق اليقين) قس على ذلك المثل سائر الحقائق الوجودية فى الإحاطة بهابالنسبة للإنسان فإن كانت علما بالظواهر والقوانين حصل له من ذلك (علم اليقين) فإن بلغ درجة التذوق العقلى والقلبى لمـا وراء الظواهر من حقائق فقد بلغ درجة (عين اليقين) فإن شاهد بقلبه وروحه الحقيقة المطلقة الكلية وفعلها المسيطر على ذلك كله من أكوان وقوانين وحقائق فقد دخل إلى مقام حق اليقين .

ولنا فى باب اليقين شعر :

زعم العواذل أن حبك متلفى   وشديد شوقى والتجافى مهلكى
على أن مقدورا ببابك موثقى   ومن العجائب أن قلبى يشتكى
شـوقا إليك وأنت فيه مقيم
يامن لرحمته تطاولت المـــنى   وعميم فضل فى الشدائد ماونى
من ذى سواك لدى الحساب مطمئنا   قسما بلطفك ما تغير عهـــدنا
فالحب باق والوداد قـــديم

باب الأنس

قال الله تعالى (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان) .

ثم قال الشيخ رضى عنه أن فى ذلك إشارة إلى روح القرب وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى الأنس بالشواهد وهواستحلاء الذكر والتغذى بالسماع والوقوف على الإشارات .

ثم قال والدرجة الثانية : الأنس بنور الكشف وهو أنس شاخص عن الأنس الأول تشوبه صولة الهيمان ويضربه موج الفناء وهو الذى غلب قوما على عقولهم وسلب قوما طاقة اصطبارهم وحل عنهم قيود العلم ، وفى هذا ورد الخبر بهذا الدعاء (أسألك شـــوقا إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة) .

ثم قال والدرجة الثالثة اضمحلال فى شهود الحضرة لا يعبر عن عينه ولا يشار إلى حده ولا يوقف على كنهه .

فأما قوله رضى الله عنه إن الأنس روح القرب فإن الأنس ثمرة الطاعة واليقين والتسليم والحب فهو مؤد إلى الفناء فى الحقيقة لولا هيبة الحب ولولا أن الحب يقتضى وجود محب ومحبوب وهو فرق لولاه لفنى الرسم فى الحقيقة وفنى وجود المخلوق فى وجود الخالق .

ثم قال الشيخ وهو على ثلاث درجات : الأولى الأنس بالشواهد وهو استحلاء الذكر والتغذى بالسماع والوقوف على الإشارات ومعنى الأنس بالشواهد أى شواهد الحق فى الخلق وما يقوم فى القلب من تعظيم للمبدع

عند شهود الإبداع وحسن الصنع والاحسان إلى المصنوع من الصانع. وأما قوله واستجلاء الذكر فان وراء الشواهد دائما ذكر المتفضل يجـــرى على اللسان والقلب وأقل مافى الذكر أنه ضرب من ضروب القرب ولذلك نوه الحق فى كتابه العزيز بأنه إذا سألك عبادى عنى فانى قريب أى إذا ذكرونى فأكون قريبا لهم لأنى على التحقيق قريب وهم البعداء فان ذكرونى تقربوا إلى فأكون قريبا بالنسبة لهم وإلا فانى دائم الحضور ثم قال الشيخ والتغذى بالسماع والسماع على أنواع: سماع عن الله بالخاطر والهاتف الذى يمر بالخيـال ويستقر فى القلب فهو خطاب من الله (بالفطرة) وهو نوع من السماع ثم سماع للقرآن كلام الله وكم هيم ذلك السماع من ولى أو ذكى أو متفقه فى كلام الله وثالث أنواع السماع لأقوال القوم فى قصائدهم التى ينبض فيها حنانهم إلى الحقيقة أو قصائدهم فى الســـلوك التى يوجهون فيها نصائحهم للسالكين فينشدونها ويتغنون بها وحكم الشرع فى هذا السماع بحسب النيـــة فان كان المقصود بسماع تلك الأشعار وجه الله فحكمها الجواز. وإن كان غير ذلك أى إن كان المقصود بها تخيل الصور الجميلة وتغذية نزوات النفس فحكمها التحريم طبعا لأنها تكون لهوا .

هذا وأما قول الشيخ والوقوف على الاشارات : أى الإشارات الإلهية التى تبدو فى هذا السماع أو تظهر خلال الكائنات فتدل على الله أو تقرب إليه فالشيخ يوصى بالوقوف على تلك الإشارات وفقهها وفى فقه إشارات الحق وتقلب العبد خير كثير لمن يفقه .

ثم قال الشيخ والدرجة الثانية الأنس بنور الكشف وهو أنس شاخص على الأنس الأول تشوبه صولة الهيمان ويضربه موج الفناء وهو الذى غلب قوما على عقولهم وسلب منهم قوة طاقة الاصطبار وحل عنهم قيود العلم قال وفى هذا ورد الخبر بهذا الدعاء (أسألك شوقا إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة) .

وأما قوله الأنس بنور الكشف أى الأنس الحاصل بسبب نور الكشف راجع إلى المعرفة والأنس راجع إلى القرب والأنس والقرب إذا اجتمعا تحقق السالك بشهود حضرة الحق .

وأما قوله وهو أنس شاخص عن الأنس الأول مشوب بصولة الهيمان والهيمان هو الحركة الناشئة عن الحيرة أو الدهشة فأول الأنس الاستئناس بقرب الله فاذا زاد القرب زاد الأنس بالضرورة وهذه الزيادة تدعو إلى صولة الهيمان ضرورة والهيمان من هام يهيم أى هام على وجهه فى ضرب من الذهول وذلك أن السالك فى مثل هذه الدرجة يغيب عن نفسه وعن الخلق وهذا معنى قوله ويضربه موج الفناء فيصير مغلوبا على أمره وطالبا فناء الرسم وتحقيق الحقيقة وهذا الحال كما يبين الشيخ قد غلب قوما على عقولهم أى قوما من السالكين وسلب قوما آخرين طاقة الاصطبار وحل عنهم قيود العلم بالشطح والخروج عن التوسط الذى يفرضه طلب الكمال ولذلك قال قوم من أهل الشطح والخروج هو القول بوحدة الوجود أو بالحلول أو التفريط فى بعض أوامر الشرع إستعلاء على مقتضيات العلم والعلم كما لا يخفى لجام كابح عن الشطط والمراد به علم الشرع .

هذا وأما الذين حفظهم الله من طلاب القرب والتمكين فى كمال السلوك لا يرون فى موج الفناء الذى يرون فى موج الفناء الذى يصرف المتطرفين والخارجين عن النهج لا يرى فيه أولئك الكمل أو الطالبون للكمال سوى (وحدة الشهود وليس الحلول أو وحدة الوجود) الأمر الذى يفقد التمييز بين العبد والرب والخالق والمخلوق والفانى والباقى وهكذا .

لذلك قال الشيخ فى نوع هذا الأنس أنه شاخص عن الأنس الأول الذى تشوبه صولة الهيمان والذهول الذى قد يكون فيه الهدى أو يكون فيه الضلال . ولذلك استشهد الشيخ رضى الله عنه بالأثر المتقدم الذى قال فيه من غير مضرة ولا فتنة مضلة .

ثم قال الشيخ والدرجة الثالثة : أنس اضمحلال شهود الحضرة لا يعبر عن عينه ولا يشار إلى حده ولا يوقف على كنهه .

ومعناه أنه إذا صلح حال صاحب الأنس واستقام أمره اضمحل عنه ذلك الشهود المتقدم الذى تشوبه صولة الذهول والهيمان أى فناؤه عن أنه هو مشاهد وأن هناك شهودا للحضرة يعبر عن المشاهد عن عينه أو يشير إلى حدة وتلك كلهاحدود أوعلى الافل تشوبها الاثنينيةأو الجمع الذى لا يفرق بين الحق والخلق ذلك لأن تلك الحقيقة لا يوقف لها على كنه وحظ المشاهد منها أن يوحد ذلك الشهود فيغيب الشاهد فى المشهود ويفنى مايزول ويظل البقاء لما يدوم والبقاء والدوام لله تعالى وحده والألفاظ: ألفاظ اللغة أضيق على كل حال من أن تسع التعبير الوافى الذى يطابق الحقيقة ومهما عبر اللسان تظل التبعية الأكثر مما عبر عنه بكثير مطوية فى الجنان .

وأنشدوا فى معنى الأنس قولهم :

يامؤنس الأبرار فى خلواتها	ياخير من حطت به النزال
من ذاق حبك لم يزل متلهفا	أنت الحبيب وما سواك محال
انشأتنى ورحمتى وشرفتنى	أحسن فأنت المحسن المفضال
مالى سواك وأنت غاية مقصدى	والكل أنت وما عداك ضلال

باب الذكر

قال الله تعالى (واذكر ربك إذا نسيت)

ثم قال الشيخ رضى الله عنه أنسيت غيره ونسيت نفسك فى ذكرى ثم نسيت ذكرك فى ذكره ثم أنساك ذكر الحق إياك كل ذكر : والذكر هو التخلص من الغفلة والنسيان وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : الذكر الظاهر من ثناء أو دعاء أو رعاية .

والدرجة الثانية : الذكر الخفى وهو الخلاص من القيود والبقاء مع الشهود ولزوم المسامرة :

والدرجة الثالثة : الذكر الحقيقى وهو شهود ذكر الحق إياك والتخلص من شهود ذكره ومعرفة افتراء الذاكر فى بقائه مع الذكر .

قال الشيخ رضى الله عنه تفسيرا للآية (واذكر ربك إذا نسيت) يعنى أنسيت غيره ونسيت نفسك فى ذكرك ثم نسيت ذكرك فى ذكره ثم أنساك ذكر الحق إياك كل ذكر ، والذكر هو التخلص من الغفلة والنسيان ويريد أن يفسر الآية بقوله إنك إذا تخلصت من ذكر سواه فاذكره ومعنى ذلك أن الذاكر يجب أن يتجرد فى نفسه عن ذكر ما سوى الله استعداداً لذكر الله ويكون المعنى إذا أردت أن تذكر الله فانس كل ما سواه وقد حمل الشيخ الآية على هذا المحمل وهو جميل وإن كان أكثر المفسرين لا سيما ابن عباس قال : إذا نسيت أن تذكر الله فى أى فعل تريده فتقول إن شاء الله إذا نسيت ذلك فاذكره ولو فى غير وقته ومثال ذلك أن تقول سأفعل ذلك غدا فإذا نسيت اليوم أن تقول إن شاء الله فقلها فى الغد وهذا وجه جميل أيضا بالنسبة للتشريع ، وإنما الشيخ يريد بهذا الوجه من التفسير للآية أن الذاكر يجب أن يستعد لذكر الله بالتجرد عن ذكر ما سـواه وليس هذا فقط بل ويريد أن تنسى نفسك أيضا فى ذكرك أى تنسى أنك أنت الذاكر وأن الذكر صادر عن نفسك وبهذا تنسى ذكر نفسك أيضا فى ذكره فالأولى تفرض فيها أنك نسيت ذكر ما سوى الله حينما أردت أن تذكره ولكن تظل فيك بقية هى نفسك فانسها أيضا وقد وضح الشيخ غرضه بقوله أنك إذا نسيت بذكر الله الحق الخلق ونفسك ينسيك ذكر الحق إياك كل ذكر لسواه ، وذلك هو التخلص من الغفلة والنسيان ولأجل

هذا التخلص يجب أن تغيب فى الذكر عن كل ما سوى الله فينسيك ذكر الحق إياك كل ذكر تفعل ذلك تخلصا من الغفلة ومن النسيان .

قال وهو على ثلاث درجات : الدرجة الأولى الذكر الظاهر من ثناء أو دعاء أو رعاية وأولئك الذاكرون بهذه المثابة هم المفردون كما فى حديث أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان يسير فى طريق مكة فمر على جبال يقال لها حمدان (جبل على مسيرة يوم من المدينة) فقال عليه الصلاة والسلام (سيروا هذا حمدان سبق المفردون) قالوا وما المفردون يا رسول الله : قال الذاكرون الله كثيرا والذكرات) وسماهم المفردين لأفرادهم ألسنتهم وقلوبهم بذكر الله تعالى دون سواه من خلق أو نفس .

ويكفى لى شرف الذكر أن الله يباهى ملائكته بأهله كما فى صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على حلقه من أصحابه فقال ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على أن هدانا للإسلام ومن علينا به قال آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا آلله ما أجلسنا إلا ذلك قال أما انى لم أستحلفكم تهمة لكم ولكن أتانى جبريل فأخبرنى أن الله يباهى بكم الملائكة) .

وأما قوله من ثناء أى تمجيد أو تحميد كسبحان الله والحمد لله وأما الدعاء كقولك اللهم اكفنى شر نفسى أو اغننى عن خلقك ، والرعاية كقولك اللهم وجه قلبى وجهة ترضيك .

ثم قال فى الدرجة الثانية الذكر الخفى وهو الخلاص من القيود والبقاء مع الشهود ولزوم المسامرة .

ومعناه أن الذكر الخفى ما كان بالقلب والروح دون الجوارح . قال وهو الخلاص من القيود لأن الذكر بغير القلب أولا يحتاج لأداة كاللسان

وثانيا يحتاج المرء فيه للتخلص من الشواغل ومن نفسه ولكن الذكر الخفى بالقلب والروح استغراق فى ذكر الله وتخلص من مثل هذه القيود لأنه دخول فى الشهود وهذا معنى قوله (البقاء مع الشهود) ولزوم المسامرة والمسامرة هى الأنس الذى يتفضل به المذكور على الذاكر فيحدث الذكر حينئذ نوعا من المؤانسة ، والمؤانسة لا تتيسر إلا بالشهود (شهود الحق دون سواه) .

ثم قال والدرجة الثالثة : الذكر الحقيق وهو شهود ذكر الحق إياك وهنا ينقلب الأمر من عبد ذاكر لربه إلى شأن عبد ذاكر لذكر ربه إياه لأنه لو لم يذكره بالخير لما ألهمه الذكر قال والتخلص من شهود ذكرك أى وبهذا تتخلص من شهود أنك ذاكر وتعلم افتراء الذاكر فى بقائه مع الذكر أى ويتضح لك أنك حينما كنت تذكر الله تعالى نفسك وتحتاج إلى التخلص من ذكر الخلق ومن ذكر نفسك كان فى ذلك وجه من الافتراء على الحقيقة لبقاء الذاكر مع الذكر وليس مع المذكور والمطلوب ، لأنك إذا ذكرت الله يجب أن تكون مع الله تعالى ولا ترى هذه التفرقة التى هى محض افتراء أنك تجردت من رؤية الخلق استعدادا للذكر وتجردت أيضا من رؤية نفسك كأنك أنت الفاعل ، والحقيقة أن الله ذكرك لتذكره وذكرته بذكرك فهو الذاكر الحقيقى (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) فالشكر مضاف للذكر أو قل الذكر مضاف للشكر وهو تمام الإقرار بنعمة الله فى ذلك الذكر وتفصيل المسألة أن الله أولا قد ذكرك أى رأى فيك خيراً فألهمك أن تذكره ليذكرك بأنك عبد ذاكر وشاكر .

وأنشدوا فى معنى هذا الباب ما قاله أحمد بن عطاء الله السكندرى فى حضرة شيخه أبى العباسى المرسى :

خذ من كلامى ما يلذ جناه ۔۔۔ وينم كالمسك العبيق شذاه

ذكر الإله الزم هديت لذكره ... فبه القلوب تطيب والأفواه
واجعل حلاك تقاه إن أخا الحجا ... يا صاح من كانت حلاه تقاه
ولتعمل الأفكار فى ملكوته ... مستغرقا فى الكشف عن معناه
ولتخلع النعلين خلـــع محقق ... خلوا من الكونين فى مسراه
ولتفن حتى عن فنائك إنه ... عين البقاء فعند ذاك تراه
وإذا بدا فاعلم بأنك لست هو ... كلا ولا أيضا تكون سواه
سيان ما اتحدا ولكن ها هنا ... سرب يضيق نطاقنا عما هو
يا سامعا ما قد أشرت إليه ألا ... قلب يفكر ما وعت أذناه
أزل الحجاب حجاب حسك ينكشف ... لك سر ما قد غاب عنك ثناه
أنى يغيب وليس يوجد غيره ... لكن شـــديد ظهوره أخفاه

باب الفقر

قال الله تعالى (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله)، ثم قال الشيخ رضى الله عنه الفقر اسم للبراءة من رؤية الملكة وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : فكر الزهاد وهو قبض اليد عن الدنيا ضبطا أو طلبا واسكات اللسان عنها ذما أو مدحا والسلامة منها طلبا أو تركا وهو الفقر الذى تكلموا فى شرفه .

ثم قال والدرجة الثانية الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال ويقطع شهود الأحوال ويمحص من أدناس مطالعة المقامات .

ثم قال والدرجة الثالثة : صحة الاضطرار والوقوع فى يد المنقطع الوحدانى فى بيداء التجريد وهذا فقر الصوفية .

فأما قوله البراءة من رؤية الملكة فمعناه البراءة من رؤية أنك تملك شيئا مع الله لأنه هو المالك الحقيقى لسائر أمورك ظاهرا وباطنا .

وأما قوله فى الدرجة الأولى . إنها فقر الزهاد وهى قبض اليد عن الدنيا ضبطا أو طلبا واسكات اللسان عنها ذما أو مدحا والسلامة طلبا أو تركا قال وهو هذا الفقر الذى تكلموا فى شرفه) .

ومعنى قوله فقر الزهاد أى المتجردين الذى قبضوا يدهم عن الدنيا ضبطا لأحوالهم أو طلبا أو لم يتح لهم طلبها بوسيلة من الوسائل كاشتغالهم بالجهاد وغيره كأهل الصفة مثلا المرابطين فى سبيل الله وأما قوله واسكات اللسان عنها ذما أو مدحا والسلامة منها طلبا أو تركا فذلك لأن من اشتغل بمدح شيء أو ذمه كان اشتغاله هذا دليلا على التعلق به ، وكذلك الحيرة بين طلب الدنيا أو تركها مع العلم أن الزهد ليس متعلقا بأن يترك الزاهد الدنيا أو أن يطلبها وإنما المقصود بالزهد أن يفرغ الزاهد قلبه من الدنيا ملكها أو تركها وذلك لأن الزهد فى القلب وليس فى البدن وفى اللسان ويستوى عند الزاهد الحقيقى الملكة وعدمها وذلك هو الزهد الصحيح الذى تكلم أهل التصوف الحق فى شرفه والصوفى غير الزاهد من وجه وهو زاهد أيضا من وجه آخر وأما الزاهد فقد يكون زاهدا وليس صوفيا والفرق بينهما ماذكر معناه بمعنى ان الزاهد أساسه فقد التملك والصوفى أساسه انخلاع القلب عن الدنيا وهذا فرق عظيم .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه والدرجة الثانية وهى أرقى من زهد الزهاد والمتعلق بقبض اليد عن الدنيا أو ضبط طلبها ثم قال هى الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل أى الرجوع لسبق الحق بفضله وليس بالقيمة الدنيوية ثم قال وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال وهذا سبب الافتقار الحقيقى لأن المراد بالفقر عند أهل التصـــوف الحق ليس التجرد من الأسباب ولا من التملك .

وإنما يريدون به الافتقار الصحيح إلى الله لأنك لو كنت صوفيا صادقا لرأيت افتقارك إلى الله ولو كنت أغنى الأغنياء أو كنت أفقر الفقراء سيان والافتقار إلى الله تعالى باب الرضى إذا تمكن السالك من باب الصبر الذى يسلمه لمقام الرضى فإذا رجع السالك إلى رؤية فعل الله أورثه ذلك الخلاص من رؤية الأعمال وذلك هو حقيقة الافتقار وليس هذا فقط بل ويقطع عن نفس السالك شهود الأحوال لأن شهود الأحوال يعتبر غنى من حيث أن العبد يملك حالا جميلا أو جليلا وليس هذا فقط وإنما الافتقار إلى الله بمحصه كما يقول الشيخ من أوناس مطالعة المقامات والأوناس هى شوب الشيء الخالص بالمغاير له وليس من مراد الشيخ أن المقامات فيها أوناس تلك التى تلحق بها كرؤيتها ومن الافتخار بها وهكذا .

ثم قال الدرجة الثالثة : صحة الاضطرار وهى تأكيد لما تقدم فى الدرجة الثانية من معنى الافتقار إلى الله تعالى والوقوع فى يد المنقطع ويريد بذلك الغربة عما فيه أكثر الخلق من باطل فيكون كالواقع فى يد واد متسع منقطع وحدانى أى متفرد فى بيداء التجريد الذهنى وأن كان شائعا فى الخلق وهذا تأكيد للمعنى الأول يعنى يكون كالغريب المتجرد فى بيداء جرداء لا يعتمد فيها على ما سوى خالقه ومبدعه ورازقه واللطيف الخبير به .

وحقيقة الأمر أنك على ماترى فى الكون من أسباب ومسببات ومن أمور موجبة وأخرى سالبة ومن فاعل ومنفعل إلى آخره كل هذا وهم على التحقيق أو قل مجرد أثر لفعل فاعل حقيقى من حيث أن الفاعل الحقيقى هو الله والمسبب الحقيقى هو الله تعالى الذى إن أراد بالماء (الماء الذى منه كل شيء حى) أن ينفصل ما فيه من إيدروجين عما فيه من أوكسجين لصار الماء بلاء ومصدرا للتسمم أو الحريق لأنه يؤخذ منه ما يعبر عنه العلم (بالماء الثقيل) أو (القنبلة الهيدروجينية) وهكذا الهواء لو زادت نسبة

الأوكسجين فيه لأصبح كائنا محرقا ولكن ضابط النفع والضر شيء واحد وشيء واحد فقط وهو المشيئة الإلهية مشيئة الذى بيده النفع والضر .

وأنشدوا فى معنى هذا الباب لأبى مدين الغوث رضى الله عنه :

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا ... هم السلاطين والسادات والأمرا
فاصحبهم وتأدب فى مجالسهم ... وخل حظك مهما قدموك ورا
واستغن من الوقت واحضر دائما معهم ... واعلم بأن الرضى يخص من حضرا
ولازم الصمت إلا أن سئلت فقل ... لا علم عندى وقم بالجهل مستترا
ولا ترى العيب إلا فيك معتقدا ... عيبا بدا بيننا لكنه استترا
وحط راسك واستغفر بلاسبب ... وقم على قدم الانصاف معتذرا
وإن بدا منك عيب فاعترف وأقم ... وجه اعتذارك عما فيك منك جرا
وقل عبدكمو أولى بصفحكمو ... فسامحوا وخذوا بالرفق يافقرا
هم بالفضل أولى وهو شيمتهم ... فلا تخف دركا منهم ولا ضررا
وبالتفتى على الاخوان جد ابدا ... حسا ومعنى وغض بالطرف إن عثرا
وراقب الشيخ فى أحواله فعسى ... يرى عليك من استحسانه أثرا
وقدم الجد وانهض عند خدمته ... عساه يرضى وحاذر أن تكن ضجرا
ففى رضاه رضا البارى وطاعته ... يرضى عليك فكن من تركه حذرا
واعلم بأن طريق القوم دارسة ... وحال من يدعيها اليوم كيف يرى
متى أراهم وأنى لى برؤيتهم ... أو تسمع الأذن منى عنهم خبرا
من لى وأنى لمثلى أن يزاحمهم ... على موارد لم ألف بها قدرا
قوم كرام السجايا حيثما جلسوا ... يرى المكان على آثارهم عطرا
يهدى التصوف من أخلاقهم طرفا ... حسن التآلف منهم راقنى نظرا
هم أهل ودى وأحبابى والذين همو ... ممن يجر ذيول العز مفتخرا
لازال شملى بهم فى الله مجتمعا ... وذنبنا فيه مغفور ومغتفرا
ثم الصلاة على المختار سيدنا ... محمد خير من أوفى ومن نذرا

باب الغنى

قال الله تعالى (ووجدك عائلا فأغنى) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه الغنى اسم للملك التام وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : غنى القلب وهو سلامته من السبب ومسالمته للحكم وخلاصه من الخصومة .

ثم قال والدرجة الثانية . غنى النفس وهو استقامتها على المرغوب وسلامتها من المسخوط وبراءتها من المراءاة .

ثم قال والدرجة الثالثة : الغنى بالحق وهو على ثلاث مراتب : الأولى شهودك ذكره إياك والثانية مطالعة أوليته والثالثة الفوز بوجود شهودك ذكره إياك .

أما قوله الغنى اسم للملك التام فمعناه أن كل غنى فى الدنيا تام من طرف وناقص من طرف آخر فهو بعد فقرا لا غنى وإذن فالغنى الحقيقى المسمى باسم الغنى هو الغنى الذى يتوفر فيه الملك التام . وهذا مستحيل على الخلق وينفرد به الله وحده .

ثم قال وهو على ثلاث درجات :

فالدرجة الأولى : غنى القلب وذلك هو غنى من نوع آخر غير غنى الملك قال وهو سلامته من السبب ومسالمته للحكم وخلاصه من الخصومة ومعنى سلامة القلب من السبب أن لا تشغله الأسباب عن المسبب ومعنى قوله ومسالمته للحكم أى مسالمته لأحكام الله صاحب المشيئة العظمى والتقدير الأول ثم قال وخلاصه من الخصومة أى الخصومة بين القلب وبين الله ومعنى الخصومة هنا المناقشة والمقاضاة وهى عكس التسليم والمسالمة ويقول فى هذا المعنى بعض أهل التصوف .

دعها سماوية تجرى على قدر ولا تخترمها بشىء منك تنخرم

وقال آخر :

سلم لسلمى وسر حيث سارت واتبع رياح القضا ودر كيف دارت

ثم قال والدرجة الثانية : غنى النفس وهو استقامتها على المرغوب وسلامتها من السقوط وبراءتها من المراءاة .

إن تعريفه لغنى النفس وهو ما يخالف فيه أكثر الناس فى المفهوم بالعرف على أن له الحق ، فهم يريدون بغنى النفس ضربا من التعفف وهذا لا يكفى فى غنى النفس وهو يريد استقامتها على المرغوب أى على المطلوب لله منها وهذا المعنى يضيف إلى التعفف جملة من الصفات الجليلة كالصبر والرضى والتسليم وغير ذلك ثم قال وسلامتها من السقوط أى بالتسليم والرضى فلا تسخط أمرا أراده الله لها من تقلب بين الغنى والفقر أو السرور والضر ثم قال وبراءتها من المراءاة أى تخلصها . تخلص النفس من المراءاة من أن ترائى نفسها فترى أنها راضية وهى ساخطة فى الحقيقة أو ترائى الله تعالى فترى أنها طائعة وهى بالخواطر المكروهة من السخط وعدم الرضى تكون عاصية لله تعالى أو مرائية للخلق فتظهر لصفات الأولياء من اليقين والتوكل وغير ذلك رياء وهى بسخطها لمقدورها ليست على شىء مما تظهر به .

ثم قال والدرجة الثالثة : الغنى بالحق وذلك هو أس الأمر وجوهره ثم قال وهو على ثلاث مراتب : الأولى شهودك ذكره إياك لأن نسيانك أنك بنظر الله نسيان لله والحقيقة نفسك والثانية دوام مطالعة أوليته لأنك لو فكرت فى أوليته الأزلية ووجوده المطلق ومشيئته الكاملة ، لو طالعت تلك الأولية زيادة على شهودك أنك بعين الله دخلت فى المرتبة الثالثة ألا وهى الفوز بوجود شهودك ذكره إياك كما يقول الشيخ .

يعنى لو فعلت ذلك من الاتصاف بالغنى : الغنى بالحق وشهدت بعلم اليقين أو بعينه أو بحقه ذكر الله إياك وأنك بعينه وأدمنت مطالعة ذلك ناظرا إلى أولية وجوده فى أزليته لو بدا ذلك منك لفزت بشهود رؤيته (رؤية قلبية) ومعنى ذكره إياك أى أنه ذاكرك قبل أن تولد وبعد أن ولدت وحين تموت وأنه بحالك عليم خبير فاذا رأيت ذلك كله كنت غنى الوجود غنى القلب غنى النفس .

وأنشدوا فى ذلك :

كن عن همومك معرضا ... وكل الأمور إلى القضا
وابشر بخـــير عاجل ... تنس به مس القضـا
ولربمـــا اتسع المضيق ... ولربمـا ضاق الفضا
الله يفعل ما يشا ... ء فلا تـكن متعرضا
الله عودك الجميل ... فقس على ما قد مضى

باب مقام المراد

قال الله تعالى (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمـة من ربك) .

ثم قال الشيخ صاحب منازل السائرين رضى الله عنه : إن أكثر المتكلمين فى هذا العلم جعلوا المراد والمريد اثنين وجعلوا مقام المراد فوق مقام المريد وإنما أشاروا باسم المراد إلى الضنائن الذين ورد فيهم الخبر وللمراد ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : أن يعصم العبـد وهو يستشرف للجفاء اضطرارا بتبغيض الشهوات وتعويق الملاذ وسد مسالك المعاطب عليه اكراها .

ثم قال والدرجة الثانية : أن يضع عن العبد عوارض النقص ويعافيه

من سمة اللائمة ويمالكه عواقب الهفوات كما فعل سليمان عليه الصلاة والسلام فى قتل الخيل فحمله على الريح الرخاء فأغناه عن الخيل وفعل بموسى عليه الصلاة والسلام حين ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه ولم يعتب عليه كما عتب على آدم وداود ونوح ويونس عليهم الصلاة والسلام .

والدرجة الثالثة : اجتباء الحق تعالى عبده واستخلاصه إياه بخالصته . كما ابتدأ موسى عليه السلام وقد خرج يقتبس نارا فاصطفاه لنفسه وأبقى منه رسما معارا .

يقول الشيخ رضى الله عنه فى المراد والمريد أن أكثر المتكلمين فى هذا العلم (علم التصوف) جعلوا المراد والمريد اثنين وجعلوا مقام المراد فوق مقام المريد وإنما أشاروا باسم المراد إلى الضنائن الذين ورد فيهم الخبر وللمراد ثلاث درجات : أما قوله إن المتكلمين فى هذا العلم جعلوا المراد والمريد اثنين وجعلوا مقام المراد فوق مقام المريد فتلك هى الحقيقة إلا أن يصبح المريد مرادا والمراد فى اصطلاح القوم هو الذى أخذه الله عن نفسه فى الصغر فشب على الهدى وكلما أراد انحرافا عما رسمه الله له من السلوك فى طريق الخير إبتلاه الله بما يصرفه عما جنح إليه وجعل فى قلبه شعورا بأن ما حدث له إنما هو تأديب من الله عز وجل له ليرتد إلى مسلكه القويم وبالفعل يتوب إلى الله إن كان مراد الله حقيقة .

ثم قال الشيخ وأشاروا باسم المراد إلى الضنائن الذين ورد فيهم الخبر حيث روى فى حديث مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم (إن لله ضنائن فى خلقه يحييهم فى عافية ويميتهم فى عافية) والضنائن ما يضن به من الخصائص كقولك : هذا متاعى اختص به أنا أو هذا يخصنى والضنائن يختص بهم الله طلبا ويختصون به رغبة (وما يقتضيه علم التصوف أن المريد هو السائر إلى الله بسلوكه وطاعته وتحببه اليه فاذا صح مسلكه اجتباه) .

وقدمنا أن المراد هو المأخوذ إلى الله المجتبى الذى تولى الله تربيته

برعايته كما صنع مع محمد صلى الله عليه وسلم ذلك اليتيم الفقير الذى لا والد له ولا مال ولا تعلم فقد اجتباه لنفسه من صغره ولم يعترف فى طفولته وشبوبته بصنم أو إله سوى الله ثم هداه إلى قويم الإخلاق ومنتقى المكارم. ولما حان ميقات الرسالة أقراه وعلمه ثم أرسله رحمة للعالمين . وعلى القدم المحمدى خلق الله بعض الفطر السليمة والقلوب النقية والنفوس الطاهرة اجتباء منه لهم واصطفاء لحبه ومعرفته ، فالمريد طالب والمراد مطلوب والمريد سائر والمراد مسار به لأنه من الضنائن التى ذكرها الحديث وبما أن المريد قد ينقلب مرادا بعد كفاحه وجهاده فى طريق الله التبس الأمر وتلاقى المراد والمريد فواحد محمود مدفوع وهو المراد والآخر راغب مجتهد وهو المريد . ثم قال الشيخ وللمراد ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : أن يعظم العبد المراد وهو يستشرف للجفاء اضطرارا بتبغيض الشهوات وتعويق الملاذ وسد مسالك المعاطب عليه كرها .

ويريد الشيخ أن يقول إن شأن المراد مع الله أن يعصمه من مزالق الشر حالة أنه مستشرف للجفاء بطبيعة نفسه ونموه من الصغر إلى الكبر من الطفولة إلى الشبيبة إلى الرجولة وهو فى خلال هذا التطور مستشرف أى متعرض لأسباب الجفاء من الحبور والشهوات الموبقة وذلك يفعله الرب مع عبده اضطرارا عن طريق فطرته السليمة وأيضا يعوق عليه أسباب الملاذ من الشهوات فيجعلها مبغضة إليه حينما يوازن بين ما فيها من لذة وما فيها من ألم فتنغص عليه وذلك ليقيه من مسالك المعاطب . وذلك اكراها أى ليكرهه الله على الاستقامة إذا حدث منه انحراف أو إعوجاج .

ثم قال والدرجة الثانية : أن يضع عن العبد عوارض النقص ويعافيه من سمة اللائمة ويملكه عواقب الهفوات ويريد أن يقول يفعل الله به مامر فى الدرجة الأولى ليضع عن عبده عوارض النقص أى يرفعها من طريقه

وينتزعها من نفسه وذلك مثل قول الله للرسول صلى الله عليه وسلم (ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك) .

ثم قال ويعافيه من سمة اللائمة أى يضع عنه النقائص ليعافيه وكان حق الشيخ أن يقول من وصمة اللائمة والسمة هى العلامة وكثيرا ما تطلق على علامات الخير أو السرور أو الجمال وأما الوصمة فهى اللفظ الذى يختص بمثل هذا المكان والمعنى المراد أن يعافى الله عبده من وصمة اللائمة أى مما يلام عليه عنده ويملكه عواقب الهفوات أى بكل ذلك يجعله دائماً متداركا لهفواته ومعلما لها بالحسنات ومثل الشيخ رضى الله عنه بقوله كما فعل بسليمان عليه السلام فى قتل الخيل فحمله على الريح الرخاء وأغناه عن الخيل لما قتل الخيل التى ألهته عن الصلاة وإن فسر بعض المفسرين أن مسح سليمان لسوق الخيل وأعناقها كان بيده لا بالسيف وإن صح هذا كان علامة على التودد للخيل والمقام مقام أنها ألهته عن الصلاة وقيل عن صلاة العصر فكان لابد أن يعاقبها لا يمسح على سوقها وأعناقها توددا والأقرب التوسط بأن يقال صفعها بيده رفضا وركلها برجله لينصرف عنها والمعنى المطلوب هنا أن الله ملك سليمان عاقبة هفوته فانصرف على التلهى بالخيل إليه وهكذا كل سالك مخلص يملكه الله عواقب هفواته فيتداركها بالعظة أو بالوازع أو بالخاطر ثم قاس الشيخ على ذلك ما فعله الله مع موسى حينما ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه . كما يقول الشيخ إن الله لم يعتب على موسى كما عتب على آدم ونوح ويونس لأن موسى تدارك أمره فاجتباه لما خرج يقتبس نارا بعدها فاصطنعه لنفسه ولم يبق منه إلا رسما معارا أى لم يجعله مختارا بنفسه لنفسه بل جعله مختارا لما يختاره الله له تملكا لعواقب الهفوات وإعراضا عما توجبه من السيئات .

ثم قال والدرجة الثالثة للمراد اجتباء الحق تعالى لعبده واستخلاصه إياه بخالصته كما فعل مع موسى حيث خرج يقتبس نارا فاصطفاه واصطنعه لنفسه

ويريد الشيخ أن يقول إن نتيجة هذا الأدب المترتب على رعاية الله للشخص المراد إلى الله اجتباء الحق له واستخلاصه بخالصته ، هذا من جهة المراد أما المريد فهو شخص أطاع الله وتقرب إليه فقربه وتحبب إليه فأحبه ثم التقى المراد والمريد فى رحاب الحقيقة مستظلين برفارف الرحمة .

وأنشدوا فى هذا المعنى :

وله خصائص مصطفون لجنة اشتارهم فى سالف الأزمان
اختارهم من قبل خلقه خلقه فهمو ودائع حكمة وبيان

ولنا فى هذا المعنى أبيات :

شربت غرامكم مذ كنت طفلا
وسايرت الهوى قولا وفعلا
وغايرت المغاير والمعادى
وكل عشيرتى رحما وأهلا
أهيم بذكركم فى كل ناد
وأصبو نحوكم فرعا وأصلا
سبانى حسنكم من قبل خلقى
فلا أرضى العوالم لى محلا
جفانى فى هواك جميع قومى
وقالوا هل سلوت الحب هلا
تركت بلاهة عزا ومجدا
وأحملك الغرام وصار شغلا
وراموا مستحيلا من محب
إذا ما فارق الحب اضمحلا

ولو بذلوا له الدنيا جميعا
على سلوان ليلى ما تسلى

وهيهات السلو لمن إذا ما
تسلى قالت الأشواق كلا

ولكن الخَلِيَّ إذا تعامى
يلوم العاشقين أذى وجهلا

وقال معدنى ما جئت تبغى
وفيك نقية جسدا وعقلا

فهل أفنيت نفسك فى هوانا
وجافيت السوا رسما وشكلا

وهمت إذا رأيت الحب يصفو
لحى لم يمت ويريد وصلا

فاما أن ترى أن لا ترانا
وأما أن تكيل الدمع كيلا

على زمن تقضى وأنت غافل
تهيم جهالة وتجر ذيلا

وكنت وأنت طفل فى حمانا
فمالك فى الشباب تميل ميلا

واولا رحمة سقيت قديما
وعطف من مودتنا ولولا

ولولا أن حفظناك بلطف
وأدلينا من الإحسان حبلا

لما انتظمت لك الحسنى طريقا
وكنت من الصلاح اليوم غفلا

أجبت برئت من عملى وعلمى
وقلت لفاقتى أهلا وسهلا
وافنيت الفناء لكى أراكم
وأحظى بالمنى من وصل ليلى

* * *

القسم السادس

وهو قسم الأدوية وفيه عشرة أبواب وهى : الإحسان ، والعلم ، والحكمة ، والبصيرة ، والفراسة ، والتعظيم ، والالهام ، والسكنية ، والطمأنينة ، والهمة .

باب الاحسان

قالى الله تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ثم قال الشيخ رضى الله عنه ذكرنا فى صدر هذا الكتاب (كتاب منازل السائرين إلى الله) إن الإحسان اسم جامع لجميع أبواب الحقائق وهو (أن تعبدالله كأنك تراه) وهو على ثلاث درجات :

ثم قال الدرجة الأولى : الإحسان فى القصد بتهذيبه علما وإبرامه عزما وتصفيته حالا .

والدرجة الثانية : الإحسان فى الأحوال وهوأن يراعيها غيره ويسترها تظرفا ويصححها تحقيقا .

والدرجة الثالثة : الإحسان فى الوقت وهو ألا تزايل المشاهدة أبدا وأن لا تخلط بهمتك أمدا وأن تجعل هجرتك إلى الحق سرمدا .

يقول الشيخ رضى الله عنه : أنه ذكر الإحسان فى صدر هذا الكتاب لأن الإحسان اسم جامع لسائر أبواب الحقائق وهو أن تعبد الله كأنك تراه وحسب الإحسان أن يكون هو الإحسان ، الإحسان فى كل ما هو بين العبد والرب وهو يختص بالقلب والقصد والنية أكثر مما يختص بالجوارح وإن كان نوره يفيض على الجوارح فتحسن العمل مستمدة من أضواء نور اليقين . قال وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : الإحسان فى القصـــد بتهذيبه علما وابرامه عزما وتصفيته حالا والإحسان فى القصد معناه إحسان فى النية والإرادة والعزم الخ . ومعنى الإحسان فيه تهذيبه علما أو وقوعه على شرائط العلم والمراد بالعلم هنا العلم بالكتاب والسنة ثم العلم بطريق الله . ثم قال وابرامه عزما والعزم هو القصد المتجه الذى لا يتحول فاذا حدث ذلك أصبح حال السالك الإخلاص فى العمل والشهود فى الغاية فإذا حدث ذلك صار الحال صافيا من الشوائب وأول تلك الشوائب إدعاء السالك أن له حالا مع الله وثانية الشوائب أن يتحدث بحاله إلى غير الله فيكشف عن مواجيده الالهية لمن لا يعرفها ولا يفهمها فيكون كشفه هذا سبباً من أسباب الضلالة أو إعطاء الحكمة لغير أهلها وفى مثل هذا المعنى يقول أحد الصوفية .

من يأمنوه على سر فباح به لن يأمنوه على الأسرار ماعاش

ثم قال والدرجة الثانية : الإحسان فى الأحوال والإحسان فيها مراعاة نقائها كما قدمنا وكان الإحسان من أعظم أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الحال الذى انتهى به إلى العروج للسماء فدنا وتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى،وفوق هذا وذاك ما ذكره الله تعالى فى هذا المقام من قوله (ما زاغ البصر وما طغى) فالإحسان فى الاحوال أولا شكر الله عليها

وثانيا حفظها من الغفلة عن الشهود أو المراقبة وذلك مراعاة لها وغيرة عليها . ثم قال الشيخ ويسترها تظرفا ذلك لأن كشف الأحوال لغير أهلها يعتبر أسرافا وتنطعا ، قال ويصححها تحقيقا ذلك لأن الأحوال متعددة كالأنس يعقبة الشوق ثم يليه الحب ثم تليـه المشاهدة ويكون تحقيق الأحوال بتـكميل تتابعها والترقى فى مجالها فإن غفل عن ذلك يقف عن الترقى أو يرتد مسلـكه منعكسا لعـــدم رعاية الأحوال وبسبب البوح بالأسرار أو الدعوى فى الحال الذى هو حاصل عقده أو الحال الذى لم يصل إليه .

ثم قال الشيخ والدرجة الثالثة : (الإحسان فى الوقت) والإحسان فى الوقت حفظه ومعنى الوقت ما تجلى به عليه من حال فهو وقته ولذلك قالوا الصوفى ابن وقته فيجب عليه رعاية الحال فى الوقت الذى هو فيه فإذا بذل رعاية الحال استمر شهوده ، ولذلك نبه الشيخ بقوله ولا تخلط بهمتك أمدا والأمد مرادف الوقت فهو يريد أن يقول خلص وقتك للحال الذى أنت فيه ولا تخلط به وقتا آخر حتى تبلغ شهوده فإن شغلت نفسك وخواطرك بأمد آخر غير الوقت الذى أنت فيه تشوش عليك حالك ؛ وبما أن الحال هو ما يرد على القلب من الوهب الإلهى لأن الفرق بينه وبين المقام أن المقام مكسوب بالاجتهاد وحسن الطاعة وأما الحال فهو موهوب بمجرد الفضل فـكل وارد على القلب استنار به القلب وانشرح له الصدر وقوى به الحال فهو وارد إلهى وأما عكسه أى الوارد الذى لا ينهض به الحال ولا يستقيم به المقام ولا تنشط له الروح فى المراقبة والمشاهدة ثم لا تنشط به الجوارح فى الطاعة والعبادة فهو وارد شيطانى وفى بعض النسخ ولا تخلط بوقتك أبدا بدل أمدا فإن كان هذا مراد الشيخ فيـكون معناه ألا تشغل وقتك مع الله بذكر أحد غيره أو تصوره وهذا لأجل التمـكن فى الحال ولأجل تصفيته أيضاً ثم قال الشيخ وأن تجعل هجرتك إلى الحق سرمدا ومعناه أن

تجعل هجرتك كلها من أول مقام التوبة إلى حال المشاهدة هجرة دائمة لا يعتريها فتور ولا يعتورها تلفت وذلك من تمام باب الإحسان الذى هو أن تعبد الله قلبا وقالبا كأنك تراه . فإن لم تتمكن فاعبده على أنه يراك .

وأنشدو فى حال الإحسان فقالوا :

غير ليلى لم ير فى الحى حى ... سل متى ارتبت عنها كل شى
كل شىء سرها فيــــه سرى ... فلذا يثنى عليها كل شى
قال من أشهد معنى حسنها ... أنه منتشر والكل لمى(١)
هى فى المربع لا غـــيرها ... فلذا تدعى بلا شىء سوى
هى مثل الشمس تبدى نورها ... فمتى ما ان ترمه عاد فى
هى كالمرآة تبدى صورا ... قابلتها وبها ما حل شى
هى مثل العين لا لون لها ... وبها الألون تبدى كل زى
عجبـــا تنآى ولا أين لها ... ثم من يرنو وصلها ملء يدى

* * *

باب العلم

قال الله تعالى (وعلمناه من لدنا علما)

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : العلم ما قام بدليل ورفع الجهل وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : علم جلى يقع به العيان أو استفاضة صحيحة أو صحة تجربة قديمة .

---

(١) ويريد بمعنى والكل لمى . أن الكل مين . والمين هو الباطل الذى لا ثبات له .

والدرجة الثانية : علم خفى ينبت الأسرار الظاهرة من الأبدان الزكية بماء الرياضة الخالصة ويظهر فى الأنفاس الصادقة لأهل الهمة العالية فى الأحايين الخالية فى الأسماع الصاخبة وهو علم يظهر الغائب ويغيب الشاهد ويشير إلى الجمع .

والدرجة الثالثة : علم لدنى إسناده وجوده وإدراكه عيانه ونعته حكمة ليس بينه وبين الغيب حجاب .

أما قول الشيخ العلم ما قام بدليل ورفع الجهل فيريد العلم بالشرع كتاباً وسنة والعلم سلوك الطريق وهو علم أصوله وقواعده ثم علم الباطن وهو جمع علوم الحقيقة وبعد كل ذلك العلم بالأقوانية الإمكانية وهذه الدرجة درجة العلم يجب أن ترافق السالك المريد طوال إرادته من التوبة إلى المحبة إلى المشاهدة ويقول الجنيد رضى الله عن وجوب العلم بظاهر الشرع للسالك المريد والواصل الكامل (من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة) وقال أبو حفص رضى الله عنه (من لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسنة ولن يتهم خواطره فلا يعد فى ديوان الرجال) وقال السرى السقطى رضى الله عنه (التصوف اسم لثلاثة معانى: ألا يطفىء نور معرفتك نور ورعك ولا تتكلم بباطن علم ينقضه عليك ظاهر الكتاب ولا تحملك الكرامات على هتك أستار الله . ويقول أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه (عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئاً أشد على من العلم ومتابعته) ويريد بذلك تطبيق الباطن على الظاهر والحقيقة على نهج الشريعة وقال أبو يعقوب النهرجورى رضى الله عنه (أفضل الأحوال ما قارن العلم) .

وأما قول الشيخ فى الدرجة الأولى أن العلم ما قام بدليل ورفع الجهل أى ما قام بدليل من كتاب أو سنة ورفع الجهل بهما وهذا لا يمنع رفع الجهل بالعلم مطلقا وإنما كان التخصيص للكتاب والسنة لمراعاة مقتضى

الحال فالعلم وقت الطلب ما قام بدليل وشرطه أن يرفع الجهل ويؤتى صاحبه معانى الاتصاف بالعلم . ثم قال وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى علم جلى به يقع العيان واستفاضة صحيحة أو صحة تجربة قديمة ومعنى العلم الجلى العلم الذى لا خفاء فيه ومعنى قوله به يقع العيان أى يطابق الواقع ومعنى استفاضة صحيحة يريد به صحة الرواية ومعنى قوله أو صحة تجربة قديمة أن يكون مطابقا للفعل بالتجارب ويكون الصحيح فى نظر الشيخ هو العلم الذى صحت روايته أو صحت الدراية فى الأخذ به ثم يكون مع ذلك مطابقا للواقع ويكون من جهة أخرى موافقا للعقل بالخبرة أو بالتجربة .

ثم قال والدرجة الثانية ، علم خفى ينبت فى الأسرار الظاهرة من الأبدان الذاكية بماء الرياضة الخالصة ويظهر الأنفاس الصادقة لأهل الهمة العالية فى الأحايين الخالية والأسماع الصاخبة وهو علم يظهر الغائب ويغيب الشاهد ويشير إلى الجمع .

ويريد الشيخ أن يقول إذا صح العلم الظاهر ووافق عليه السر الباطن كان معرفة وهذا معنى المعرفة عند القوم أما قوله ينبت فى الأسرار الظاهرة فيريد هنا بالأسرار إحدى معنيين إما يريد السر الذى بينه وبين الله المكتسب من السلوك مقاما وحالا وأما يريد بالمعنى الآخر السر الذاتى المعبر عنه بالروح أحياناً وبالنفس أحيانا أو اللطيفة المودعة فى العضو الصنوبرى المسمى بالقلب وهذا السر قائم بالروح وبه أيضا يقوم القلب المعنوى الذى نسبته للقلب الصنوبرى كنسبة النور للمصباح وهذا السر لا تحمله طبعا إلا أبدان تزكت بالطاعة لله وبالأدب . وهذا ما يعنى به الشيخ ماء الرياضة الخالصة وأما قوله ويظهر فى الأنفاس الصادقة أى الصادقة فى تلك الرياضة التى هى حسن الطاعة وحسن الأدب وذلك لا يكون إلا بالهمة العالية كما فى

الأحايين الخالية أي كما كان عند السلف الصالح الذى نتابع نحن خطواته فى الله . ثم قال والأسماع الصاخبة بمعنى المصغية أو السامعة المطيعة فإذا تم للسالك كل ذلك كان علمه علما يظهر الغائب ويغيب الشاهد ومعناه يظهر الباطن باطن العلم ثم يصير ظاهر العلم إلى حقيقته الباطنة ، وبهذا وذاك يشير العلم إلى الجمع أى إلى مقام الجمع ومقام الجمع هو الجمع على الله بوحدة الشهود الذى يقوم به السر ويمتد به السر للحظ التوحيد : توحيد الحق وهذا مبلغ كل ما يصل إليه السالك فيقع فى وحدة الشهود وأن غلط قوم وسموا هذا المقام وحدة الوجود .

ثم قال والدرجة الثالثة : علم لدنى أى من لدن الحق سبحانه وتعالى تفضلا وإفاضة وإلهاما ، وإسناد ذلك العلم ـ أى سنده وحجته ووجوده هو إدراكه وعيانه ونعته حكمه ـ ليس بينه وبين الغيب حجاب أما قوله إسناده وجوده أى أنه حقيقة ذاتية تصدر من القلب ،والكلام إذا خرج من القلب فإلى القلب يذهب دون إسناد أو برهان . وقوله وإدراكه عيانه أى أنه مطابق للعقل وهو يعين المطابقة لقصور العقل عن إدراك كل الحقائق . وأما قوله ونعته حكمه أى وصفته حكمه وذلك بأن ليس بينه وبين الغيب حجاب لأنه إلهام من الله الذى يلهم النمل والنحل والدواب والإنسان وغير أن هذا العلم يلامس الفطرة ويلامس القلب أكثر مما يضاهى العقل .

وأنشدوا فى هذا المعنى قولهم .

أنتم المقصود لا العلم ‏ ‏ ‏ وأهل الحى قد علموا
كيف أخفى والغرام له ‏ ‏ ‏ شاهدان الدمع والسقم
يا أصيحابى بذى سلم ‏ ‏ ‏ من أصيحابى وما السلم
أنا عن اليوم فى شغل ‏ ‏ ‏ فذكرونى إن نسيتكموا

باب الحكمة

قال الله تعالى (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيراً) .

وقال الشيخ رضى الله عنه الحكمة اسم لأحكام وضع الشيء فى موضعه وهى على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى : أن تعطى كل شيء حقه ولا تعديه حده ولا تجعله قبل وقته .

والدرجة الثانية : أن تشهد نظر الله تعالى فى وعيده وتعرف عدله فى حكمه وتلحظ بره فى منعه .

والدرجة الثالثة : أن تبلغ فى استدراكك البصيرة وإرشادك الحقيقة وإشاراتك الغاية .

أما قوله الحكمة اسم لوضع الشيء فى موضعه فهو ظاهر ، وفسره الشيخ بالدرجة الأولى عند قوله والدرجة الأولى أن تعطى كل شيء حقه ولا تعديه حده ولا تجعله فى غير وقته وتكون النتيجة وضع الشيء دائما فى موضعه وذلك ظاهر أيضا فى قوله أن تعطى كل شيء حقه أى حقه اللائق به دون مغالاة أو قصور بدليل قوله ولا تعديه حده وأيضا لا تجعله قبل وقته كما يقول الشيخ أو بعد وقته لأن لكل وقت عملا لا يصلح فى وقت غيره ويكون مجموع هذه المعانى كلها هو الحكمة تقديريا وعمليا .

ثم قال والدرجة الثانية أن تشهد نظر الله فى وعيده وتعرف عدله فى حكمه وتلحظ بره فى منعه وكون العبد يشهد نظر الله فى وعيده ضرب من ضروب الحكمة فهو صحيح بل هو أعلى ضروبها وأن تعرف عدله فى

حكمه بأن تدرك كماله فى فعله وهذا ضرب آخر من ضروب الحكمة إذا سموت إلى التعرف إلى حكمة الله فى عدله وفى فضله فإذا صح منك ذلك لحظت بره فى منعه وفى عطائه سواسية لأنه سبحانه وتعالى حكيم وعادل . وعدله فى العقوبة وفى المثوبة ناشىء عن حكمته إذا آمنت بأنه آله حكيم وإذا لم تؤمن أنت بذلك فعدله الناشىء من حكمته أمر واقع بالفعل علمت أو لم تعلم .

ثم قال والدرجة الثالثة أن تبلغ فى استدراكك البصيرة وإرشادك الحقيقة وإشارتك الغاية أما قوله أن تبلغ فى استدراكك البصيرة أى حد البصيرة بالتبصر وبذلك تبلغ فى إرشادك المطابقة للحقيقة وتبلغ فى إشارتك الغاية المقصودة بنصحك وإرشادك لأنك على الحكمة إذا استعملت العقل والبصيرة معا فلا شك أنك تبلغ الغاية فيما تشير إليه من الإرشاد وما تشير به .

وأنشدوا فى معنى الحكمة العملية والعقلية والروحية :

إنما الحكمة بنت الاختبار تجتليها النفس عند الاعتبار

وأنشدوا أيضاً فى هذا الباب :

وليس فى العالم ظلم جارى إذ كان ما يجرى بعلم البارى

باب البصيرة

قال الله تعالى (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه البصيرة ما يخلصك من الحيرة وهى على ثلاث درجات : —

الدرجة الأولى : أن تعلم أن العلم القائم بتمهيد الشريعة يصدر عن عين لا يخاف عواقبها فترى من حقه أن يؤديه يقينا ويغضب له غيرة .

والدرجة الثانية : أن تشهد فى هداية الحق وإضلاله إصابة العدل وفى تكوين أقسامه رعاية البر وتعاينه فى جذبه حبل الوصال .

الدرجة الثالثة : بصيرة تفجر المعرفة وتثبت الإشارة وتنبت الفراسة .

يقول الشيخ رضى الله عنه بكلمة واحدة البصيرة ما يخلصك من الحيرة وهذه الكلمة أبلغ ما يقال فى هذا المقام وما علينا نحن إلا أن نبين ماهى البصيرة للقارىء ليكون على بصيرة من أمره فنقول البصيرة هى إشراق الفطرة الأصلية وكل مخلوق له حظ من تلك البصيرة بحسب هذا الاشراق قوة وضعفا فالفطرة السليمة النيرة تجد فى القلب نورا زائدا عن مواجيد الشعور والتعقل والإحساس وهـــذا النور يزيد إذا اتجهت البصيرة إلى مبدعها مستمدة من نوره وينقص إذا انصرفت الفطرة عن ذلك النور وقد قلنا فى هذا المعنى بيتين من الشعر وإن كان فيهما من الرمز ما فيهما غير أن بهما قد يحدث للقارىء ضرب من التنوير فى فهم معنى البصيرة وإليك البيتين :

نوران نوران لم يخلقهما بشر ... فى كل نور من النورين نونان
نونان نونان لم يخطهما قلم ... فى كل نون من النونين نوران

والمراد بالنورين هنا نور القلب زائد نور البصيرة المتأتى من إشراق الفطرة السليمة على القلب المؤهب للاستنارة بنور البصيرة والمراد بالنونين هنا ذلك النور الفطرى الذى ذكرناه مضافا إليه نور الحق فإذا التبست الأمور على صاحب هذه البصيرة توجه بقلبه إلى الله فيتخلص من الحيرة لأن البصيرة حينئذ تكون كالوميض الذى يصدر عن قطبين كهربيين اتصلا بالتيار الكهربائى فهو سريع الحصول كالكهرباء ، والمقصود بالوميض فى

المثال ما يحدث من شرارة كهربائية سريعة الحدوث . وبعد أن قال الشيخ البصيرة ما خلصك من الحيرة ،قسمها كعادته إلى ثلاث درجات : —

الدرجة الأولى أن تعلم أى ببصيرتك أن العلم القائم بتمهيد الشريعة أى بانزالها وانتشارها وتبويب أقسامها مما يحل أو يحرم فان ذلك العلم يصدر عن عين لا يخاف عواقبها والمقصود هنا علم الله وإحاطته ، لا يخاف عواقبها لأنها تصدر عن الإله الحكيم والرحمن الرحيم فتكون عواقبها دائما خيرا فلا تخشى عواقبها وأن كانت غيبا . لأن الذى يخشى إنما هو عواقب الشر أو الجهل لا الخير ولا الحكمة فترى أى البصيرة من حقه أى من حق صاحبها أن يؤديه يقينا والمراد هنا الشرع والمعنى أن يؤدى أحكامه معتمدا على اليقين لا على الظن ثم قال ويغضب له غيرة أى لذلك الشرع بما أنه عنده فى موضع اليقين فمن حقه أن يغضب اه إذا حدث ما يعارضه ولن يعارضه إلا الشر أو الجهل .

ثم قال والدرجة الثانية أن تشهد فى هداية الحق وإضلاله إصابة العدل وفى تكوين أقسامه (قسمه) رعاية البر وتعاين فى جذبه حبل الوصال ومعنى هذا أن البصيرة الصحيحة المتأتية عن سلامة الفطرة وتنوير القلب والتسليم للشرع باليقين الخالص من حقها أو من واجبها أن تشهد فى هداية الحق لعباده أو إضلالهم إصابة العدل لأن الهدى والضلال إنما يحدث بسبب ضعف البصيرة أو قوتها وهذا لا يمنع أنه يحدث بتقدير الله ، وذلك التقدير ناشىء عن فقر القلب أو غناه أى استعداده للهداية أو قلة ذلك الاستعداد والله سبحانه يعطى بالقسط فيهدى من يشاء لأنه أوجد فيه الاستعداد قبل خلقه ويضل من يشاء بمقتضى عدله ثم قال وفى تكوين أقسامه أى والبر أيضا فى تكوين هذا الأقسام فمن البر أن يهب لكل مستحق ما يستحقه وفى هذا بر وعدل ضرورة فالبصيرة تعاين فى بر الله وعد له جذب حبل الوصال لا حبل القطيعة .

ثم قال والدرجة الثالثة : بصيرة تفجر المعرفة وتثبت الإشارة وتنبت الفراسة وفى قوله بصيرة تفجر المعرفة إذا كان حال المرء ما قدمنا من الأدب مع أمر الله الشرعى وأمره القدرى كانت بصيرته ضرورة من البصائر التى تنفجر عنها المعرفة وتثبت الإشارة أى ما تشير إليه يكون حقا لأنها ترى بنور الحق ثم قال وتنبت الفراسة وهذا مترتب على ما تقدم ضرورة لأن صاحب البصيرة واليقين والأدب لا يخلو من الفراسة التى يؤتاها المؤمنون .

وأنشدوا فى معنى هذا الباب فقالوا :

كان لى ظل رسوم　　فاستوت شمسى فزالا
عشت بالمحبوب حقا　　بعد ما كنت خيالا

وأنشدوا أيضا فى نفس المعنى :

أنما الكون خيال　　وهو حق فى الحقيقة
كل من يشهد هذا　　حاز أسرار الطريقة
عجبت منك ومنى　　فنيتنى بك عنى
أونيتنى منك حتى　　ظننت أنك أنى

باب الفراسة

قال الله تعالى (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه التوسم هو التفرس وهو استئناس حكم غيب يعنى بلا استدلال بشاهد ولا اعتبار بتجربة وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : فراسة طارئة نادرة تسقط على لسان وحشى فى العمر

لحاجة سمع مريد صادق إليها لا يتوقف على مخرجها ولا يؤبه لصاحبها وهذا شيء لا يتخلص من الكهانة وما ضاهاها لأنها لم تشر عن عين ولم تصدر عن علم ولم تسبق بوجود .

والدرجة الثانية فراسة تجنى من غرس الإيمان وتطلع من صحة الحال وتلمع من نور الكشف .

ثم قال و الدرجة الثالثة فراسة سرية لا تجتلبها روية على لسان مصطنع تصريحا أو رمزاً .

يقول الشيخ رضى الله عنه: الفراسة استئناس حكم غيب وهو مثل قولك آنست كذا أى رأيته بالعين أو بالقلب ومنه قول موسى عليه السلام (آنست نارا) وهذا يبين الرؤية بالعين والرؤية بالقلب تكون مثل قولك آنست فى نفسى كذا أو آنست كذا فى نفس فلان أو خلقه فكل مستأنس بالغيب يكون صاحب فراسة ضرورة كالاستدلال على حدوث المطر بالسحاب أو البرق مسبوق بتفكر ضرورة وتردد واستنتاج وكذلك استدلال الطبيب بحالة المريض عند النظر على غائب صحته التى لا تنظر .

وهناك فراسة أعلى من ذلك كله وهى فراسة المؤمن الذى يرى بنور الله لقوله صلى الله عليه وسلم (اتقوا فراسة المؤمن فانه يرى بنور الله) .

ويقول الشيخ وهى على ثلاث درجات :

ثم قال والدرجة الأولى : فراسة طارئة نادرة تسقط على لسان وحشى فى العمر مرة لحاجة سمع مريد صادق إليه لا يتوقف على مخرجها ولا يؤبه لصاحبها وهذا شيء لا يخلص من الكهانة ضاهأها لأنها لم تشر إلى غيب ولم تصدر عن علم ولم تسبق بوجود .

ومعنى قوله فراسة طارئة نادرة تسقط على لسان وحشى فى العمر مرة معناه ما يجرى على ألسنة السذج والجهال الذين ليست لهم يقظة أهل القلوب

فتكون فراستهم حادثة نادرة طارئة تسقط أى تصدر على لسان وحشى أى لم تهذب فتكون فراسته نادرة إذا صحت أو رمية من غير رام .

ويريد الشيخ أن يقول وقد يحدث ذلك عن طريق الفأل الطيب أو الردىء أو عن طريق البشرى من الله لحاجة مريد صادق عليها أجراها الله على لسان غيره فيتنبه هو إليها غير عابىء بمخرجها ولا عن أى لسان خرجت وقد تخرج ممن لا يؤبه لشأنه من الناس وكان صلى الله عليه وسلم يحب الفأل الحسن ويكره الطيرة والتشاؤم ويكون هذا الخاطر الذى يخطر على شخص قد لا يؤبه له فيتلفظ به ويسمعه غيره فيتفاءل أو يتطير بسببه لا يخلو من أن يكون ضربا من ضروب الكهانة ،والكهانة هى التكهن والظهور بالتحدث على الفأل والبخت وغير ذلك وكان منهم فى زمن الجاهلية كثيرون ثم قال وما ضاهأها أى وما شابهها من جنس الضرب بالرمل والحصى والودع وزجر الطير الخ . وجعلها ضربا من الكهانة لأنها لم تصدر عن علم صحيح ولم تشر إلى عين المراد بالعين الحقيقة أى لم تشر إلى حقيقة ثم قال ولم تسبق بوجود شىء يقاس عليه .

ثم قال والدرجة الثانية فراسة تجنى من غرس الإيمان وتطلع من صحة الحال وتلمع من نور الكشف .

ومعنى هذا أن ذلك النوع من الفراسة مختص بأهل الإيمان واليقين لأنها تكون من غرس الإيمان ومن دلائل نمو اليقين والإيمان واليقين يؤديان ضرورة إلى الترقى فى المقامات والأحوال ولذلك قال الشيخ وتطلع من صحة الحال فكلما كان المتفرس حظه أقوى وأصـــــدق كانت فراسته أصلح ومعنى قوله (وتلمع من نور الكشف) فنور الكشف ضرورة يولد الفراسة لأنها نور منبعث عن كشف وهذا يقتضى وجود قوة الفراسة وهى من الله وهذه الفراسة مما يطلق عليه عرفا (المكاشفة) وهى من شأن الأولياء

والصالحين المتصلين بنور الحق — والسائرين على قدم الإخلاص والصدق .

ثم قال والدرجة الثالثة فراسة سرية أى بين العبد وربه وهى (السر) الذى من شأن أولياء الله أن يحفظوه عن غير أهله ثم قال لم تجتلبها روية على لسان مصطنع إنما تجىء بالإلهام الإلهى أولا تأتى بلائمة وتفاصحا تصريحا أو رمزا .

وأنشدوا فى هذا المعنى قولهم وهو الفراسة الذاتية .

ضرب ذى منظر من غير معرفة ورب من تزدريه العين ذو فطن

وفى المعنى الثانى الذى مداره على النور الإلهى أنشدوا .

وإنى لأرجو الله حتى كأننى أرى بجميل الظن ما الله صانع

باب التعظيم

قال الله تعالى (مالكم لا ترجون لله وقارا)

ثم قال الشيخ رضى الله عنه التعظيم معرفة العظمة مع التذلل لها وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : تعظيم للأمر والنهى وهو ألا يعارضهما بترخيص جاف ولا يعترضهما بتشديد غال ولا يحملها على علة توهن الانقياد .

ثم قال والدرجة الثانية تعظيم الحكم أن لا يبغى له عوجا أو يدافع بعلم أو يرضى بعوض .

ثم قال والدرجة الثالثة : تعظيم الحق وهو ألا تجعل دونه سببا ولا ترى عليه حقا ولا تنازع له أمرا احتيالا .

أما قوله التعظيم فهو معرفة العظمة مع التذلل لها ويريد معرفة عظمة

الله وأن كان لا يبلغ بمعرفته منتهاها وهذا ما يقتضى التذلل لها ومعنى التذلل هنا الخضوع والعبوديه والأمل لله والترجى .

ثم قال وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : تعظيم للأمر والنهى وهو ألا يعارضهما بترخص جاف ولا يعترضهما بتشديد غال ولا يحملهما على علة توهن الانقياد .

والدرجة الثانية تعظيم الحكم ومعنى ذلك أن من التزم بالإيمان واتبع شريعة الإسلام وجب عليه تعظيم أمر الله ونهيه بعد تعظيمه لله طبعا وذلك التعظيم يحصـــل بألا يعارضهما أى الأمر والنهى بترخص جاف اجتهادا أو تلفيقا دون نص من الكتاب أوالسنة،ومعلوم شرعا أن الرخصة من الله رحمة بالعباد ولكن التماس الرخص بالتلفيق غير مقبول ولذلك قال الشيخ بألا يبغى له عوجا أى للشرع أو يدافع بعلم أى ولا يدافعه بعلم من عنده لم ينزل الله به من سلطان وأما قوله (أو يرضى بعوض) أى لا يرضى عن الشرع المنزل بعوض من الرأى المستنبط .

ثم قال والدرجة الثالثة : تعظيم الحق وهو ألا تجعل دونه سببا ولا ترى عليه حقا ولا تنازع له حكما احتيالا .

وفى هذه الدرجة الثالثة أعاد الشيخ التعظيم : تعظيم الحق ، والحق هنا بمعنى الحق الفاصل بين الهدى والضلال وهو ألا تجعل دونه سببا أى بينك وبينه سببا يعيقك عن إدراكه واعتناقه والدفاع عنه ولا ترى عليه حقا أى حقا آخر لأن الحق لا يتعدد ولا تنازع له حكما احتيالا منك على الحق قصد تغييره بالجدل فيه .

وأنشدوا فى هذا الباب قولهم :

تواضع لرب العرش لعلك ترفع ... فما خاب عبد للمهيمن يخضع
وداوم بذكر الله قلبك انه ... لأشفى دواء للقلوب وأنفع
ولا تغترر بالمكر منك وبالمنى ... فمن خادع الله المهيمن يخدع

باب الإلهام

قال الله تعالى (قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : الإلهام مقام المحدثين وهو فوق مقام الفراسة لأن الفراسة ربما وقعت نادرة واستصعبت على صاحبها وقتا واستعصت عليه ، والإلهام لا يكون إلا فى مقام عتيد وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : إلهام نبي يقع وحيا قاطعاً مقرونا بالسماع أو مطلقاً .

الدرجة الثانية :إلهام يقع عيانا وعلامة صحته أنه لا يخرق سترا ولا يجاوز حدا ولا يخطىء أبدا .

الدرجة الثالثة . إلهام يجلو ليقين التحقيق صرفا وينطق عن عين الأزل محضا وللالهام غاية تمتنع عن الإشارة إليها .

ويقول الشيخ رضى الله عنه الإلهام مقام المحدثين وهو فوق مقام الفراسة لأن الفراسة ربما وقعت نادرة واستصعبت على صاحبها وقتا واستعصت عليه . والالهام لا يكون إلا فى مقام عتيد . ويريد الشيخ أن الإلهام يقع من الله للمحدثين ومنهم عمر رضى الله عنه الذى خاطب سارية وهو فى بلاد الفرس وكان عمر يخطب الجمعة على منبر مسجد المدينة وقال فجأة (يا سارية الجبل) أى عليك بالجبل فاعتصم به أنت وجنودك فحدث عمر وهو يخطب يوم الجمعة بحال سارية وجيشه فأمرهم أن يعتصموا بالجبل وأيضا سمع سارية أمره فاعتصم هو وجيشه بالجبل ، وطبعا مقام الإلهام أو التحديث من الله فى الروع (عين القلب) وأما الفراسة فإنها تأتى من طريق النظر العقلى الثاقب غالبا ويشترك فيها المؤمن وغير المؤمن

ويستعملها الكهان والرهبان والعرافون الخ . والفراسة أيضا تقع صدفة وقد تستعصى فى كمال ولاتها على صاحبها وقد يوفق فيها وقتا دون وقت وأما الالهام فلا يكون إلا فى مقام عتيد والعتيد المتين والقديم والقوى ومعناه أن الإلهام لا يكون إلا فى مقام عتيد بين العبد وربه . مقام يقين وإيمان وإحسان وهذا معنى المقام العتيد الذى قد لا يتوافر لأهل الفراسة .

ثم قال وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : «إلهام نبى يقع وحيا قاطعا مقرونا بالسماع أو مطلقا»

فنقول وإن كان الإلهام عرفا دون الوحى إلا أنه يشترك معه بنصيب ولو بقدره وبما أن الوحى أعظم أطلق الشيخ القول على الوحى عموما معتبراً أن الالهام أمر ضمنى . فقال مقرونا بالسماع أو مطلقا . أما الوحى المقرون بالسماع فكما حدث لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم حينما تلبس جبريل بصورة دحية الكلبي وخاطب النبي وهو بين صحابته أو مطلقا أى بصورة روحية كصورة جبريل نفسه حينما جاء النبي صلى الله عليه وسلم وقال له اقرأ فقال النبي ما أنا بقارىء أى لست قارئا أحسن القراءة والكتابة . فقال له (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق) . الآية .

ثم قال الشيخ والدرج الثانية : إلهام يقع عينا أى معاينة لنفس صافية مخلصة لربها وكأنه شهود بالروح وهنا خصص الشيخ الإلهام الذى يجوز للنبي وللولى والذى لم يصل إلى رتبة الوحى ، والملهمون من الخلق لهم تاريخ عظيم ودلائل بينة وكأنها الرؤى فى اليقظة وجعل الشيخ له علامة أو قل شرطا حيث قال فيه أنه لا يخرق سترا من حيث أنه لا يحدث إلا من ولى أو صالح أو على الأقل سليم الفطرة أو عبد مستور الحال ومن كان هكذا لا يخرق لله سترا ولا للناس حجابا فاذا كشف له عن أمر يختص بأسرار الله ستره عن عباده أو يختص بأسرار بعض الخلق ستره عن غيرهم أو حى عن نفسه بأن يتناساه ، وأما قوله ولا يجاوز حدا أى حد الإلهام من غير النبي ثم قال ولا

يخطىء أبدا،ذالك لأنه من الله كالرؤيا الصادقة التى هى جزء من سبعين جزء من النبوة :

الدرجة الثالثة : إلهام يجلو يقين التحقيق صرفا أى يظهر جلية التحقيق الصرف الذى يتحقق به العبد من لدن الرب ولذلك قال بعدها وينطق عن عين الأزل محضا ثم قال وللالهام غاية تمتنع عن الإشارة إليها ويريد الشيخ أن يقول ومدى غاية الإلهام واسع شاسع من حيث اتصاله فى أعلاه بالوحى ومثل هذا الأمر كالإلهام أو الوحى مما يستعصى على اللسان بل على اللغة كال التعبير عنه لأن حروف اللغة قوالب للمعانى ومن المعـــانى ما تسعه تلك الظروف ومنها مايفيض عنها اتساعا .

لذلك قال الشيخ وللإلهام غاية تمنع عن الإشارة إليها ويريد بالإشارة التعبير والتعبير يكون باللسان أو باليد أو بغيرهما .

وأنشدوا فى معنى الإلهام قولهم .

لم تزل كل نفوس الأحيا علامة دراكه للأشيـــا
وإنمـا تعوقها الأبدان والأنفس النزع والشيطان
فكل من أذاقهم جهاده أظهر للقاعد خرق العـادة
وهى من النفوس فى كمون كما يكون الحبّ فى الغصون
حتى إذا رعدت الرعود وانسكب الغيث ولان العود
وجالت فى أغصانها الرياح فعندها يرتقب اللقـــاح
حتى إذا أينع للعيان وآمنت جوائح الزمان
باكرها زارعنا والغارس يقطفها والغير منها آيس

باب السكينة

قال الله تعالى (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه السكينة اسم لثلاثة أشياء أولها سكينة بنى إسرائيل التى أعطوها فى التابوت وقال أهل التفسير هى ريح هفهافة وذكروا صفاتها وفيها ثلاثة أشياء : هى لأنبيائهم معجزة ولملوكهم كرامة وهى آية النصرة . . الخ قوله .

ثم قال والسكينة الثانية هى التى تنطق على ألسن المحدثين وهى ليست شيئا يملك وإنما هى من لطائف صنع الحق يلقى على لسان المحدث الحكمة كما يلقى الملك الوحى على قلوب الأنبياء وتنطق المحدثين بنكت الحقائق مع ترويح الأسرار وكشف الشبه .

ثم قال والسكينة الثالثة هى التى أنزلت فى قلب النبى صلى الله عليه وسلم وقلوب المؤمنين وهى شىء يجمع إلى النور قوة وروحا يسكن إليه الخائف ويتسلى به الحزين ويستكين له العصى والجرىء والأبى .

ثم قال وأما سكينة الوقار التى نزاها نعتا لأربابها فانها ضياء تلك السكينة الثالثة التى ذكرناها وهى على ثلاث درجات :—

الدرجة الأولى سكينة الخشوع عند القيام بالخدمة رعاية وتعظيما وحضورا ،

والدرجة الثانية السكينة عند المعاملة بمحاسبة النفس وملاطفة الخلق . ومراقبة الحق .

والدرجه الثالثة : السكينة التى تنبت الرضى بالقسم وتمنع الشطح الفاحش وتقف بصاحبها على حد الرتبة والسكينة لا تنزل قط على قلب نبى أو ولى .

وقد نوع الشيخ رضى الله عنه أنواع السكينة إلى ثلاثة أنواع : جعل فى أولها أو أقلها سكينة بنى إسرائيل التى أعطوها فى التابوت ولذلك قال الشيخ إن أهل التفسير قالوا أنها ريح هفهافة تصحب التابوت وهى لانبيائهم معجزة ولملوكهم كرامة ومن صفاتها أن فيها آية أى علامة للنصر . وماذكر فى تلك السكينة من أهل التفسير طويل وعريض مضحك وضمن ما قالوا أنها ريح هفهافة لها رأسان ووجه كوجه الإنسان وفى قول آخر أنها هرة لها جناحان من زمرد وزبرجد الخ . . وهكذا لبقيـــة ما تجىء به الإسرائيليات التى أدخلت إلى تفسير كتابنا العزيز . وليس لنا طائل تحت هذه الأقوال .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه والسكينة الثانية وهى من ضمن المهم هى التى تنطق على ألسن المحدثين وقال إنها ليست شيئا يملك وإنما هى من لطائف صنع الحق وقد صدق ثم قال ويلقى أى هذا الشىء المعنى على لسان المحدث الحكمة كما يلقى الملك الوحى على قلوب الأنبياء وينطق المحدثون بنكت الحكمة مع ترويح الأسرار وكشف الشبه . وتلك السكينة ليست شيئا سوى الإلهام بدليل قوله إنها ليست شيئا يملك ولكن هى شىء من لطائف صنع الحق يلقى على لسان المحدث بالحكمة كما يلقى الملك الوحى على قلوب الأنبياء وهذا ظاهر لا سيما وأننا بينا فى باب الإلهام معنى الإلهام وتكلمنا عنه .

ثم قال وينطق المحدثون بنكت الحقائق أى المحدثون من الأولياء تلقى على ألسنتهم لطائف الحكمة من طريق الإلهام والتحديث كما يلقى الملك الوحى على قلوب الأنبياء وتتبع تلك النكت أو الحكم التى تلقى فى روع الملهم ترويح للأسرار ثم قال وكشف الشبه أى الشبه الحادثة عن القول أو الظنون ثم قال والسكينة الثالثة هى التى أنزلت على قلب النبى عليه السلام وقلوب المؤمنين وهى شىء يجمع مع النور قوة وروحا يسكن إليه الخائف ويتسلى به الحزين طيبا لأنها السكينة) ثم قال الشيخ رضى الله عنه ويستكين

له العصى الجرىء أى لهذا النور إذا لمحه قلبه ويكون كأنه نفحه من نفحات الحق فيستكين له قلبه ولو كان من أهل المعصية ويخضع له أيضا الجرىء والأبى على انتهاك حرمات الله إذا صادفته تلك النفحة وأنزلت على قلبه السكينة استكان لها وأعرض عن الجرأة على خرق حدود الله وهذا معنى الحديث (إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها) .

ثم قال الشيخ وأما سكينة الوقار - وقد دخل فى صلب الموضوع - هى تلك السكينة التى تراها نعتا لأربابها أى صفة ملازمة لهم ظاهرة عليهم فانها ضياء . تلك السكينة ألا وهى سكينة المؤمنين ثم جعل الشيخ هذه السكينة تقتضى التنوع إلى ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : سكينة الخشوع عند القيام بالخدمة أى بالطاعة والعبادة رعاية وتعظيما أى لله وحضورا أى مع الله .

ثم قال والدرجة الثانية : السكينة عند المعاملة بمحاسبة النفس وملاطفة الخلق ومراقبة الحق فأما محاسبة النفس فهى أصل تلك الأصول والمؤمن وبالأخص السالك لطريق الله ملتزم بالرجعة إلى نفسه صباحا ومساء يسأل نفسه ماذا صنعت وبم تكلمت وفى أى نهج سعيت ولمن أسأت ولمن أحسنت وهكذا وبهذه المحاسبة الدائبة يتخلص العبد الصالح الجد من أدواء نفسه ونزواتها ويتبين بهذه المحاسبة السبيل المستقيم .

ثم أضاف الشيخ على محاسبة النفس ملاحظة الخلق فى المعاملة وأن يسعهم بخلقه الجميل وأيضا مراقبة الحق وهذا المرجع الأول والأخير لمن سلك الطريق ولمن أراد الخلاص من الشرور أو الاخلاص فى الطاعات .

ثم قال والدرجة الثالثة السكينة التى تنبت الرضى بالقسم أى بما قسمه الحق للعبد فى علمه وفى غيبه .

ثم قال وتمنع من الشطح الفاحش مثل عدم الرضى عن الاعتراض على أحكام الحق .

قال وتقف بصاحبها على حد الرتبة أى رتبة العبودية لله ثم قال والسكينة لا تنزل قط إلا فى قلب نبى أو ولى وصدق الشيخ وصدق الله العظيم فى قوله تعالى .

(هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم)

وأنشدوا أيضا فى مثل هذه المعانى قولهم .

إن السعيد الذى تمت سيادته ... فتى يضر من الدنيا إلى الدين
يصد بالطوف منه عن زخارفها ... فيغتدى ملكا فى زى مسكين

وأنشدوا أيضاً فى مثل هذه المعانى

ولما تجلى من أحب مكرما ... وأشهدنى ذاك الجمال المعظم
تعرف لى حتى تيقنت أننى ... أراه بعينى جهرة لا توهما
وفى كل وقت اجتليه ولم يزل ... على طور قلبى حيث كنت مسلما
وماهو فى وصلى بمتصل ولا ... بمنفصل عنى وحاشاه منهما
وماقدر مثلى أن يحيط بمثله ... وأين الثرى من رفعة البدر إنما
أشاهده فى صفو سرى واجتلى ... جمالا تعالى عزه أن يقسما
كما أن بدر التم ينظر وجهه ... بصفو غدير وهو فى أفق السما

باب الطمأنينة

قال الله تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة أرجعى إلى ربك راضيـــة مرضية) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : الطمأنينة سكون يقويه أمن صحيح شبيه بالعيان وبينه وبين السكينة فرقان : أحدهما أن السكينة صولة تورث خمود الهيبة أحيانا والطمأنينة سكون أمن وفيه استراحة أنس والثانى أن السكينة تكون نعتا وتكون حينا بعد حين والطمأنينة نعت لا يزايل صاحبه وهى على ثلاث درجات : —

الدرجة الأولى : طمأنينة القلب بذكر الله وهى طمأنينة الخائف إلى الرجاء والضجر إلى الحلم والمبتلى إلى المثوبة .

والدرجة الثانية : طمأنينة الروح فى القصد إلى الكشف وفى الشوق إلى العدة وفى التفرقة إلى الجمع .

والدرجة الثالثة : طمأنينة شهود الحضرة إلى اللطف وطمأنينة الجمع إلى البقاء وطمأنينة المقام إلى نور الأزل .

ومعنى قول الشيخ الطمأنينة سكون يقويه أمن صحيح وبذا تكون الطمأنينة غير السكينة أوهى نهايتها وأعلى مقام فيهـــا والطمأنينة وتسبقها السكينة تكون أشبه بالأمن الدائم مصحوبا بالشهود والمعاينة القلبية ولذا قال الشيخ (وبينها وبين السكينة فرقان) أحدهما أن السكينة صولة تورث خمود الهيبة أحيانا وأما (الطمأنينة) ، فهى سكون أمن فى استراحة أنس أى أمن مصحوب بالأنس .

ثم قال والفرق الثانى . أن السكينة تكون نعتا وتكون حينا بعد حين

وأما الطمأنينة وهى أعلى آفاق السكينة تكون مقاما ثابتا لا يفارق صاحبه ولا يحول كحال السكينة الذى يحول أحيـــانا ولذا سمى حالا والحال قد يحول .

ثم قوله عن الطمأنينة أنها سكون يقويه أمن أى سكون القلب إلى الله بتاتا وهذا فيه من الأمن مافيه وأما (وصفه هذا الأمن بأنه أمن صحيح) منعا للآمن الـكاذب الذى يشبه الغرور وقد يكسب الغرور أمنـــا أحيانا ولـكنه ناشىء عن الغفلة وعدم اليقظة فأمن الطمأنينة غير طبعاوهو الأمن الصحيح الذى لا يفارق صاحبه لأن فى الطمأنينة معنى الإقامة والسكون فمقام الطمأنينة يلازمه الأمن والراحة ، والأنس والسكينة قد يصاحبهما الخوف وهو عدم الأنس لأنهما حالان . وقد يصاحبهما بمقتضى هذا أيضا عدم الطمأنينة ولـكن السكينة قد لاتلازمها الطمأنينة .

وشاهد ذلك حصول الخوف فيها اى السكينة وايضا فان الطمأنينة أعم من السكينة لأنها نهايتها وأوجها الأعلى . والسكينة قد تثبت وقد لاتثبت واما الطمأنينة فثباتها دائم ولذا ينزل الله السكينة على قلوب المؤمنين فى الحرب وعند مقاتلة العدو وعند الشدائد واما الطمأنينة فيصاحبها الأمن .

ثم يقول الشيخ وهى على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : طمأنينة القلب بذكر الله وهى طمأنينة الخائف إلى الرجاء والضجر إلى الاطمئنان والرضى بالحـكم والمبتلى إلى (المثوبه)مثوبة الله على الصبر فى البلوى والطمأنينه بذكر الله أولها الطمأنينة إلى كلامه فى كتابه وثانيها إلى ذكره مطلقا فان التالى لـكتاب الله والذاكر له بالقلب أو باللسان يتأدى ضرورة من الخوف إلى الطمانينه ومن اليأس إلى الرجاء ومن الضجر إلى الراحة والسكون ومعنى قول الشيخ طمأنينة الضجر إلى الحكم يريد به الضجر من حمل أعباء التـكاليف والمجاهدة فى الله فرضاه بالحـكم

أى يحكم الله بالحال الذى أقامه فيه ينقلب ضجره طمأنينة وأنسا وراحة لعلمه أولا بأنه سيثاب وثانيا بأنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له وفى مثل هذا المعنى يقول الشاعر الصوفى وقد ضجر من حمل أثقال حمله :

ماقضى يا نفس فاصطبرى له ... ولك الأمان من الذى لم يقدر
وتحقق أن المقـــدر كائن ... يجرى عليك حذرت أم لم تحذر

ثم قال الشيخ والدرجة الثانية : طمأنينة الروح فى القصد إلى الكشف وفى الشوق إلى العدة وفى التفرقة إلى الجمع ، (فطمأنينة الروح إلى القصد) تدع صاحبها لا يلتفت إلى ورائه أو إلى مختلف السبل لأن القصد أمامه ظاهر وهو الكشف عن حقائق الإيمان وحكمة شرائع الإسلام .

وأما قوله وفى الشوق إلى العدة أى وفى حالة الشوق إلى هذا اللقاء يطمئن إلى العدة أى إلى ما وعده الله من حصول الوصول والعدة من الله مطمئنة ضرورة وهى عكس الإبعاد وأما قوله (وفى التفرقة إلى الجمع فان الطمأنينة إلى وعد الله ترد تفرقة العبد الحادثة من الخوف أو التشتت أو اليأس إلى الجمع فتطمئن الروح إلى وعد بارئها كما يطمئن الظمآن إلى الماء إذا رآه ويسكن برؤياه قلبه) .

ثم قال الشيخ والدرجة الثالثة : وهى طبعا أعلى درجات الطمأنينة إنها طمأنينة القلب بشهود الحضرة ورؤية عوامل اللطف والفتح وهذا تعبير عن طمأنينة المقام إلى نور الأزل كما يقول الشيخ رضى الله عنه والنتيجة أن طمأنينة القلب إلى الجمع وهو مشهد من مشاهد البقاء فصاحبه يرى الحق سبحانه قائما بذاته ويرى بهذا أيضا قيام كل شىء فيشهد الحق متوحدا فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله فلا يرى معه غيره ولا يشهد إزاءه سواه وكل هذا تؤدى إليه الطمأنينة إلى نور الأزل وإلى عدة الله والله لا يخلف وعده .

وأنشدوا فى مثل هذه المعانى قولهم :

ومخطوبة الحسـن محجوبة   لا تألفن سـوى إلفها
إذا ما تجلت على عاشـق   وأهدت إليه شـذا عرفها
تغيب الصفات وتبقى الذوات   بما أبرز الحسن من لطفها
فان رام عاشـقها نظرة   ولم يستطع لعـلا وصـفها
أعارته طـرفا رآها به   فـكان البصير لها طرفها

هذا وأنشدوا أيضاً فى باب الطمأنينة :

يا من ألوذ به فيمن أؤمله   ومن أعوذ به ممن أحاذره
لايجبر الناس عظما أنت كاسره   ولا يهيضون عظما أنت جابره

باب الهمة

قال الله تعالى (ما زاغ البصر وما طغى) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه الهمة ما يملك الإنبعاث إلى المقصود صرفا فلا يتمالكها صاحبها ولا يلتفت عنها وهى على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : همة تصون القلب من خسة الرغبة فى الفانى وتحمله على الرغبة فى الباقى وتصفيه من كدر التوانى .

ثم قال والدرجة الثانية : همة تورث ثقة لعدم المبالاة بالعلل والنزول على العمل والثقة بالأمل .

ثم قال والدرجة الثالثة : همة تصاعد عن الأحوال والمقامات وتذرى بالأعواض والدرجات وتنحى عن النعوت نحو الذات .

أراد الشيخ بمعنى الهمة الذهاب إلى معنى التملك والتحكم فى الانبعاث إلى الأمر المقصود صرفا فلا يتمالكه صاحبها أى لا يتمالك نفسه عن الانبعاث إلى القصد والغاية وهى وجه الله فلا يتمالك نفسه إذا أراد الوقوف أو الرجوع ولا يملك لنفسه التفافا عن هذه الهمة فى طلب الغاية .

ثم قال وهى على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : همة تصون القلب عن خسة الرغبة فى الفانى وتحمله على الرغبة فى الباقى وتصفيه من كدر التوانى ومعنى قوله همة تصون القلب من خسة الرغبة فى الفانى وتحمله على الرغبة فى الباقى وتصفيه من كدر التوانى وهنا يكاد المعنى أن يكون مفهوما وواضحا ولكن لمعاونة القارىء على فهم كلام الشيخ صاحب منازل السائرين إلى الحق فهما واعيا فإننا نقول : أن لهمة التى تصون القلب عن خسة الفانى وهو سائر شئون الدنيا وفضولها تلك أول علامة للتحقق من صفات أهل الله الصادقين. وهذا ما لاشك فيه لمن يعقل ويتدبر لأن كل ذى عقل يعلم أن متاع الدنيا صائر إلى الفناء كما يعلم أن الأكلة التى شبع بها فى حين ما مؤدية إلى الجوع حتما ثم يتلوها الشبع بتناول الطعام ثم يليه الجوع وهكذا دواليك وهكذا أيضاً كل ما فى يده من متاع الدنيا : مادة سائلة تأتى لتنصرف كزيت السراج فى السراج يفرض نضوبه حتما حين يوقد كذا الدنيا يفرض فناؤها حين توجد وذلك لمن يعقل وهذا نفسه معنى قول الشيخ همة تصون القلب من خسة الرغبة فى الفانى ولا يريد بالخسة ضربا من ضروب الدنس وإنما يريد بالخسة الضئولة : ضئولة القيمة للموجود الذى يعرض فناؤه حين وجوده .

ثم قال وتحمله على الرغبة فى الباقى والرغبة فى الباقى تحتمل وجهين إما الرغبة فى الآخرة وهى باقية وأما الرغبة فى وجه الله وهو الدائم الباقى سبحانه وتعالى وقلنا لمن يعقل وكررناها لأن من يعقل يعتمد على المسبب

الأعلى للأسباب كلها ويعتمد على اليد الفاعلة لا على الفعل نفسه إن شاء أن يكون منطقه سليما .

ثم قال الشيخ وتصفيه من كدر التوانى أى التوانى فى السير إلى الله والجد فى أعمال الآخرة لأن حامل الثلج يجب أن يسير مسرعا إذا أراد أن تظل فى يده بقية من ماء .

ثم قال الشيخ والدرجة الثانية : همة تورث ثقة لعدم المبالاة بالعلل والنزول على العمل والثقة بالأمل .

أما الهمة التى تورث الثقة من عدم المبالاة بالعلل : والعلل هى السوالب كفكرة خلود الدنيا والتعالى بها ومن العلل القعود عن العمل ومن العلل السلبية فى سلوك طريق التصوف أيضا وهو طريق إيجابى لا يحتمل على التخلف التلفت إلى غير القصد لأن مبناه على الهمة الواثقة التى تملك الانبعاث إلى المقصود كما يقول الشيخ فى الدرجة الأولى ومادام الأمر كذلك فلابد من النزول على العمل أى لا مناص من اللجوء إلى العمل المستمر الخالص من الشوائب يفعل ذلك كله من تبعثه همته إلى الثقة بالأمل والأمل يقتضى الجد لا التهاون وإلا كان أملا سلبيا أيضا .

ثم قال الشيخ والدرجة الثالثة : همة تصاعد عن الأحوال والمقامات وتزرى بالأعواض والدرجات وتنحو عن النعوت نحو الذات . وهذا معناه أن الهمة المقصودة هى الهمة التى تصاعد أى تصاحب العمل لترتفع به بالتسامى والانتقال إلى الترقى عن كل مقام إلى ماهو أعلى منه وعن كل حال إلى ماهو أسمى منه وتلك الهمة التى تملك الانبعاث (أى انبعاث الطاقة للعمل) كما يقول الشيخ إلى المقصود وليس هذا فقط وإنما هى الهمة التى تنحو إلى الرفعة عن النعوت نحو الذات أى ترتفع عن مقتضيات الصفات من الأفعال

والأسباب إلى نحو شهود الذات الفعال دون الفعل وهى ذات الله وتلك هى الغاية التى نوه بها الشيخ فى جميع ماتحدث به فى باب الهمة وهذه الهمة طبعا تزرى بكل الأعواض عن الغـــايه التى تقصدها وترتفع عن الدرجات والأسباب التى تعوق عنها لأن طلب الحق فوق كل عوض وأعلى من كل درجة ولا سيما طلب الحق الذى هو وجه الله عز وجل. ومما قيل فى الهمة :

فيعلا إن كنت ذا همة دقد حدا بك حادى الشوق فاطو المراحلا
وقل لمنادى حقهم ورضاهم إذا مادعى لبيك الفـــا كواملا
ولا تنظر إلى الاطلال من دونهم وان نظرت إلى الاطـلال عدن حوائلا
ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد ودعه وان الشوق يكفيك حاملا
وخذ منهم زادا إليهم وسر على طريق الهدى والفقير تصيح واصلا
وأما تخاض الـكلام فقل لها أمامك ورد الوصل قابع المناهـ لا

القسم السابع ــ قسم الأحوال وهى عشرة أبواب هى:

المحبة ، والغيرة ، والشوق ، والقلق، والعطش ، والوجد ، والدهش ، والهيمان والبرق ، والذوق .

باب المحبة

قال الله تعالى (فسوف يؤتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) .

وقال الشيخ رضى الله عنه : المحبة تعلق القلب بين الهمة والأنس فى البذل والمنع على الأفراد والمحبة أول أودية الفناء والعقبة التى ينحدر منها على منازل المحو وهى آخر منزل تلتقى فيه مقدمة العامة وساقه الخاصة وما

دونها أعواض لأعواض والمحبة هى سمة الطائفة وعنوان الطريقة ومعقد النسبة وهى على ثلاث درجات .

الدرجة الاولى: محبة تقطع الوسواس وتلذ الخدمة وتسلى عن المصائب وهى محبة تنبت من مطالعة المنة وتثبت باتباع السنة وتنمو على الإجابة بالفاقة .

والدرجة الثانية : محبة تنبعث على إيثار الحق على غيره وتلهج اللسان بذكره وتقلق القلب بشهوده وهى محبة تظهر من مطالعة الصفات والنظر فى الآيات والاوتياض بالمقامات :

والدرجة الثالثة محبة خاطفة تقطع العبارة وتدفع الإشارة ولا تنتهى بالنعوت وهذه المحبة هى قطب هذا اللسان وما دونها محاب تنادى عليها الألسن وادعتها الخليقة وأوجبتها العقول .

أما قول الشيخ رضى الله عنه المحبة تعلق القلب بين الهمة والأنس فمعناه تعلق قلب المحب بالمحبوب تسوقه لذلك الهمة الخالصة الباعثة وهو متعلق بالانس أنس اللقاء فى الامل فاللقاء يبعث همته على الطاقة فى السير وإذا — تلاقت همة الطالب وأنس المطلوب فقد تحقق الانطلاق فى السير دون أمت ولا عوض وبين الهمة والانس ينتهى أمر السالك إلى تعلق قلبه بالمطلوب تعلقا لا يكون لغيره فيه حظ أو نصيب ويريد بالبذل والمنع وهب الروح للحبيب وهو بذل وأن منع الحبيب العوض وهو منع وفى معنى قوله على الافراد توكيد للتجاوب الحادث فى التعلق : تعلق المحب بالمحبوب وأن بذل ولم يجد من محبوبه العوض وهذا شرط الحب الصحيح ولذا قال قائلهم شعرا .

لا كان من لسواك فيه بقية   يجد السبيل بها اليه اللوم

ثم قال (والمحبة أول أودية الفناء والعقبة التى ينحدر منها إلى منازل

المحو وهى آخر منزل تلتقى فيه مقدمة العامة وساقة الخاصة وما دونها أعواض لأعواض) هذا ما فى المتن ونظن أن صحتها أغراض لأعواض بدل أعواض لأعواض .

وأما قوله المحبة أول أودية الفناء فمعناه أنها شرط فى سلوك الطريق إلى الله فمن شرط السالك أن يكون محبا أو محبوبا وأما قوله والعقبة التى ينحدر منها إلى منازل المحو فمعناه أن السلوك محو وإثبات فناء أو بقاء ومن شرط المحو أن يمحو ما دون الله من قلبه حتى نفسه وأغراضها ونزواتها والمراد بهذا المحو الوصول إلى الثبات وهو الإثبات بعد المحو فتتضح للسالك معالم الطريق ثم قال الشيخ وهى أى هذه الرتبة فى المحبة آخر منزل تلتقى فيه مقدمة العامة أى عامة السالكين ومنهم من سيسير فيصل ويمحو ليثبت ومنهم من يعود من وسط الطريق راجعا إلى نفسه وعاداته وبقية أوهام الخليقة وأما قول وساقه الخاصة أى أن هذه الرتبة نفسها أول ساقة الخاصة ومعنى الساقة قلب الفئة أو مجمع الجماعة ومنها ساقة الجيش . ثم قال الشيخ وما دون ذلك فى هذه المرتبة فهى أعواض لأغراض أى تحبب وطاعة لنوال مطالب من الله كالغنى والستر والمغفرة ودخول الجنة الخ فهى أغراض تطلب للفوز بالأعواض المترتبة عليها ثم قال والمحبة هى سمة الطائفة ويريد أن يقول والحال الواقع أن المحبة التى من بوادرها تلك المنزلة من الحب الإلهى هى سمة الطائفة أى دلالتها الدالة وعلاقتها المؤكدة وشرطها الحازم وهى أيضا عنوان الطريقة كقولك (يعرف الكتاب من عنوانه) ثم قال ومعقد النسبة أى الأساس والقاعدة التى تبنى عليها النسبة لأهل طريق الله وأولها محبة الله ورسوله وإعطاء الطاعة كاملة مع التسليم للكتاب والسنة لقول الله تعالى فى كتابه العزيز (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) مؤيدا بقوله تعالى (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب).

فابتغاء القرب بالأعمال الصالحة ومحبة الله ورسوله على شرط الطاعة والتسليم والعمل بما أنزل وشرع كل هـذا معقد النسبة أى قاعدة الانتساب إلى أهل الله الذين يحبون الله ورسوله ويطيعون الله ورسوله وفى الصحيح عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الـكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار) فمن كان سالك طريق الله على هذه العقيدة والعقيدة هى الركيزة قد وصفه الله سبحانه وتعالى فى أثر قدسى جاء فى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم (يقول الله تعالى من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى من أداء مافترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ولئن سألنى لأعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه) . ومن أحسن ماقيل فى هذا المقام مارواه أبو بكر الـكتانى حيث قال (جرت مسألة فى المحبة ووصف المحب بمكة أيام الموسم فتكلم الشيوخ فيها وكان الجنيد أصغرهم سنا فقالوا : هات ما عندك يا عراقى فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم (عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه أحرقت قلبه أنوار هيبته وصفا شربه من كأس وده وتـكشف له الجبار من أستار غيبه فإن تكلم فبالله وإن نطق فعن الله وإن تحرك فبأمر الله وإن سكن فمع الله فهو بالله ولله ومع الله فبكى الشيوخ وقالوا ماعلى هذا من مزيد جزاك الله خيرا يا تاج العارفين .

هذا وليسمح لى قارئى أن أقول مَنْ منَ الناس ذوى العقول السليمة والفطر النقية يرى ويشاهد بر الله وإحسانه وفضله وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة على عبده . مَنْ مِنْ هؤلاء وأولئك يفـكر فى كل هذا ولا يحب مولاه الواهب الـكريم والمحسن دون انتظار للجزاء والمتفضل بالنعم على

عباده: أحبائه وأعدائه من آمن به ومن لم يؤمن حتى الشيطان نفسه أقر بذلك وهو طامع فى رحمته ويجادل لأجل هذا ويعترف بقوله بلغة الذكر الحكيم (فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) أى الذين أخلصتهم بخالصة الحب .

ومعنى الحب شعور يستولى على حبة القلب فيحجب بصره عن غير رؤية المحبوب . وهنا يقال إن الحب صار شغفا والشغف الواصل إلى غشاء القلب ومن معانى الحب التعبد لأن العبد وهو المحب إذا وصل لمثل هذا المقام يصرح بأن المحبوب قد ملك رقه فهو عبده ظاهرا وباطنا ومن هنا جاءت عند الصوفية كلمة العبودية وليس فوق العبودية إلا رتبة الخلة التى انفرد بها الخليل ابراهيم عليه السلام ثم ورثها محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق اسماعيل وصح عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال (إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا) وفى هذا المعنى: معنى الخلة المخاللة يقول الشاعر العربى :

قد تخللت مسلك الروح منى لذا سمى الخليل خليــــلا

وهذا معنى الخلة ، وأما معنى المحبة فأصلها فى اللغة الصفاء أو البياض ومنه الحبب لصفا. الأسنان وأيضا بمعنى العلو والظهور ومنه حبب الماء وذلك مايعلو الماء عند المطر وحبب الكأس منه وأعظم معانى الحب لغة ومعنى أن الحب مأخوذ من أحب البعير إذا بربك وثبت ولم يقم وأن ألحوا عليه فيقولون أحب البعير من جهة اللغة وأما من جهة علم التصوف فمعنى الحب موافقة الحبيب فى المشهد والمغيب وبمعنى آخر إيثار المحبوب على كل مصحوب ومن أحسن ما قال الصوفية فى جملة تلك المعانى قولهم :

قال الأول :

نق الفؤاد حيث شئت من الهوى ما القلب إلا للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى | وحنينه أبدا لأول منزل
تركت هوى ليلى وسعدى بمعزلة | وعدت إلى مصحوب أول منزل
ونادت لى الأشواق مهلا فهذه | منازل من تهوى رويدك فانزلى

وقال آخر : (رابعة العدوية)

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى | وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس | وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وقال الثالث من الصوفية .

فما كل عين بالحبيب قريرة | ولا كل من نودى يجيب المناديا
ومن لم يجب داعى هداك فخله | يجب كل من أضحى إلى الغى داعيا
وقل للعيون الرمد إياك ترى | سنا الشمس فاستغشى ظلام اللياليا
وسامح نفوسا لم يهبها لحبهم | ودعها وما اختارت ولا تك جافيا
وقل للذى قد غاب يكفى عقوبة | مغيبك عن ذى الشأن لو كنت ذا كيا
و والله لو أضحى نصيبك وافرا | رحمت عدوا حاسد لك قاليا
خفافيش أعشاها النهار بضوئه | ولاءمها قطع من الليل باديا
فيامحنة الحسناء تهدى إلى امرىء | ضرير وعنين من الوجد خاليا
فضن بها إن كنت تعرف قدرها | إلى أن ترى كفؤا أتاك موافيا
فما بهرها شىء سوى الروح أيها الـ | جبان تأخر لست كفوا مساويا
وكن أبدا حيث استقلت ركائب الـ | محبة فى ظهر العزائم سارية
وادلج ولا تخش الظلام فإنه | سيكفى المطايا طيب ذكراه حاديا
وأقدم فأما منية او منيـــة | تريحك من عيش به لست راضيا
فما ثم إلا الوصل أو كلف بهم | وحسبك فوز ذاك إن كنت واعيا

ولـكل هذا وذاك قال الشيخ فى بدء كلامه .

المحبة تعلق القلب بين الهمة والأنس فى البذل والمنع ثم قسم المحبة إلى ثلاث درجات :

ثم قال فى الدرجة الأولى : محبة تقطع الوسواس وتلذ الخدمة وتسلى عن المصائب أما أن المحبة تذهب الوسواس فإن المحبة همة إيجابية والوسواس تردد سلبى فهما أمران لا يتفقان ولذا كان الحب يذهب بالوسواس وأما قوله وتسلى عن المصائب ذلك لأن المحب لا يتم حبه ولا يكمل إلا إذا كان راضيا بكل ماجاء من المحبوب من بر وضر . وهذا شيء مشهور حتى من المحبين بين البشر وبعضهم ثم قال وهى محبة تنبت مطالعة المنة وهذا ما قدمناه من أن الذى ينظر إلى فضل الله وإحسانه وإنعامه وكان ذا عقل مدرك أو فطرة سليمة فلابد أن يحب ذلك المنعم من كل قلبه فالمنة من الله حاصلة وإنما المحبة تنبت مطالعة تلك المنة كما يقول الشيخ ثم قال وتثبت باتباع السنة وتنحو على الإجابة بالفاقة ومعنى هذا أن طاعة الله مؤدية حتما إلى مطالعة من الله ومن ثم إلى حب الله وتقدمت الآية المقول فيها (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) ومعناه اتباع السنة .

وأما قوله وتنحو على الفاقة فالمقصود الفاقه إلى الله أو قل الإنكسار إلى الله والإنكسار إلى الله هو الباب الواسع الميسر للدخول إلى الوصول إلى الله تعالى وهو باب العز والقوة .

والدرجة الثانية : وهى أعلى من الأولى محبة تبعث على إيثار الحق على غيره وهذا واضح فمن لا يؤثر الله على غيره وعلى نفسه فلا يقبل منه أن يزعم حب الله ثم قال وتلهج اللسان بذكره وهذا أيضاً ظاهر لأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره ويكون عجيبا جدا من يدعى حب الله ولا يذكره ويتبع أوامره فى شرعه ويرد ما اختلف فيه من أمره إلى الله ورسوله .

ثم قال وتقلق القلب بشهوده أى تلك المحبة تجعل قلقا فى القلب وشوقا لشهوده أى لشهود الحق وهى محبة تظهر من مطالعة الصفات أى صفات الحق تعالى والنظر فى الآيات أى عجائب السماوات والأرض وآيات الله فيما خلق وأبدع ثم قال والارتياض بالمقامات ومعناه هنا السلوك أى ويسلك المقامات من مقام التوبة إلى مقام الصبر مثلا إلى مقام الرضى .

والدرجة الثالثة : محبة خاطفة وهى أرقى من الدرجتين السابقين تقطع العبارة أى تقطع الطريق على عبارة المعبر عنها من الوصول إلى تمام وصفها ثم قال وتدفع الإشارة لأن الحقيقة المنشودة والتى لا تسعها العبارة أيضاً تقتصر عن إدراكها الإشارة وأنها حقيقة غيبية ولا تنتهى بالنعوت بقصور اللغة والإشارة عن كمال وصفها ثم قال وهذه المحبة هى قطب هذا اللسان أى لسان القوم بالرمز أو بالفهوانية أو باللدنية أو قل ماشئت المهم أن هذا الحقيقة التى تهدف إليها المحبة لا تنتهى بالنعوت وهى قطب هـذا اللسان لسان القوم أهل الله وسالكى طريق التصوف ثم قال وما دونها أى مادون ذلك من درجات المحبة الثلاث التى ذكرها من محاب تنادى بها الألسن وادعتها الخليقة أى غير الصادقة وتدعيها الخليقة مجرد ادعاء مع حقيقة أوجبتها العقول لما ترى العقول فى الخلق من ابداع وحكمة ونظام وعناية وإنعام وكلها أمور تحبب فى واهبها ومعطيها ضرورة تحكم المنطق العقلى السليم وأن لم يكن بحكم الحب المتفانى . وناهيك بالغفلة فقد تعمى عن كل ذلك ولا تكون المحبة إلا ادعاء .

وأنشدوا فى معنى الحب .

ولما أبى الاجماعا فـــؤاده لم يسل عن ليلى بمال ولا أهل
تسلى بأخرى غيرها فإذا التى تسلى بها تغرى بليلى ولاتسلى

وقالوا أيضاً ممثلين لقوة الحب الحقيق :

وكنت وعدتنى يا قلب أنى إذا ما تبت عن ليلى تتوب
وها أنا تائب من حب ليلى فمالك كلما ذكرت تذوب

باب الغيرة

قال الله تعالى حاكيا عن سليمان عليه السلام (ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه الغيرة : سقوط الاحتمال ضنا والضيق عن الصبر نفاسة وهى على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : غيرة العابد على ضائع يسترد ضياعه ويستدرك فواته وتتدارك قواه .

والدرجة الثانية : غيره المريد على وقت فات وهى غيرة قتالة فإن الوقت وحى التقصى أبى الجانب بطىء الرجوع .

والدرجة الثالثة : غيرة العارف على عين غطاها غين وسر غشيه رين ونفس علق بها رجاء أو التفتت إلى عطاء :

أما معنى قول الشيخ فى الدرجة الأولى (الغيرة سقوط الاحتمال ضنا والضيق عن الصبر نفاسة فيريد بسقوط الاحتمال ضنا أى ضنا بالوقت والعمر والأمنية والضيق صبرا عن الغاية المنشودة ونفاسة والنفاسة هى التقدير للسبق إلى الغاية ومنها المنافسة وليس أنفس من طلب الحقيقة شىء فى الدنيا ولا فى الأخرة ولا شىء يستحق المنافسة والسبق أكثر من تلك الحقيقة لدى الانسان الذى يميز بين الحال وبين المصير والمآل .وهذا مايوجب من السالك المجد الضن بوقته وضيق مجال الصبر عن السعى إلى مطلوبه النفيس وهو مرضات الله ولا أنفس من ذلك مطلب ضرورة .

ثم قال الشيخ والدرجة الثانية : غيرة المريد على وقت فات وهو كلام متعلق بالمقصد الأول طبعا إذا أراد أن يسترد ضياعه ويستدرك مافاته بفواته . وأما معنى قوله ويتدارك قواه أى قواه فى صباه قبل الشيخوخة وقبل الاقتدار على الاجتهاد فى العمل الصالح ، ووصف الشيخ هذه الغيرة بأنها غيرة قتاله وعلل ذلك بأن الوقت وحى التقضى أى سريعة ومنهالوحى وهى الاستعجال . أبى الجانب أن يرجع بل مستحيل الرجوع وتلطف الشيخ مع ذلك فقال بعد أبى الجانب بطىء الرجوع .

ثم قال والدرجة الثالثة : هى أرقى من الدرجتين السابقتين غيرة العارف لنفسه أو لغيره على عين غطاها غين والغين الانطماس أو عدم الرؤية ومنه غان على قلوبهم أى ران أى تغطى . ثم قال (وسر) أى وغار على سر وعطف على الجملة السابقة (سر غشيه رين) والرين من الران وهو الطمس كما تقدم ثم قال ونفس علق برجاء أى وأيضا غار على نفس وهو بمعنى الأمنية ضاع فى غير ذكر الله أو علق برجاء الوصول ثم قال والتفت إلى عطاء أى تعلق بعطاء من الحق راجيا ففوته عليه التوانى ووحا الزمن أى سرعته التى ضيعت رجاءه بسبب التفويت والبطء مع سرعة الزمن وفى مثل هذا المقام يقول الشاعر الصوفى .

صد عن الحق اتباع الهوى   وزين الباطل طول الأمل
كأن ما فات إذا ما مضى   حلم وما كان كأن لم يزل
بادر فقد أصبحت فى مهلة   للعمل الصالح قبل الأجل
وكن على علم فان الفتى   يقدم يوما على ما عمل

باب الشوق

قل الله تعالى (من يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه الشوق هبوب القلب إلى غائب ومذهب هذه الطائفة (أى أهل التصوف إنما قام على المشاهدة ولهذه العلة لم ينطق القرآن الكريم باسمه ثم هو على ثلاث درجات :

الدرجة الاول : شوق العابد إلى الجنة ليأمن الخائف ويفرح الحزين ويظفر الآمن .

الدرجة الثانية : شوق إلى الله تعالى زرعه الذى نبت على حفات المنن فعلق قلبه بصفاته المقدسة واشتقاق إلى معاينة لطائف كرمه وآيات بره وأعلام فضله وهذا شوق تغشاه المبار ويخالطه المسار ويقاويه الاصطبار .

والدرجة الثالثة : نار أضرمها صفو المحبة فنغصت العيش وسلبت السلوى ولم ينهنهها مقر دون اللقاء .

أما قوله الشيخ الشوق هبوب القلب إلى غائب وفى مذهب هذه الطائفة الشوق (علة عظيمة) وذلك لان الشوق يكون شوقا لغائب فان صح على طلاب الآخرة يصح على طلاب وجه الله ولذا قال ومذهب هذه الطائفة إنما قام على المشاهدة لا على طلاب أمر غائب . ثم قال إن القرآن الكريم لم يصرح باسم الشوق للعلة نفسها ولأن المطلوب حاضر لا يغيب ثم قال وهو على ثلاث درجات .

أما قول الشيخ فى الدرجة الأولى شوق العابد إلى الجنة ليأمن الخائف ويفرح الحزين ويظفر الآمن . وهو ظاهر ومعنـــــاه أن طلاب الآخرة

يفرحون بهذا اللقاء فيطمئن الخائف ويفرح الحزين ويظفر الآمن لأن الجنة غائبة الآن وأما طلاب وجه الله فإنهم يتشاقون إلى مجرد التقرب إليه والعمل لوجهه لتنمو حصيلتهم من الود والحب ولذا قال في الدرجة الثانية إنها شوق إلى الله تعالى وهو حاضر لا يغيب فالشوق منصب على تقربهم هم إليه وذلك لأن هذا الحب الذى فيه الشوق إلى التقرب إنما نبت كذرع يانع على حفات أى حوافى وأطراف المنن الإلهية فعلق لأجل ذلك قلب السالك بصفاته المقدسة أى بصفات مولاه القدسية واشتاق إلى معاينة لطائف كرمه بالتقرب إليه أكثر فأكثر ثم قال وآيات بره أى ليشهدوا آيات بره وأعلام فضله ثم قال وهذا الشوق تغشاه المبار ونحن قد لا نوافق على التعبير بتغشاه بالنسبة للبار وكان من حقه أن يقول تحدوه المبار أو تحوطه لأن تغشاه معناه تغطيه أو تحجبه ولكن حسن النية من الشيخ ظاهر على كل حال ويؤيد ذلك قوله ويخالطه المسار أى تخالطه المسار ويقويه الاصطبار ومعنى يقويه يعركه الاصطبار مدا وجذرا وهذا من شأنه أن يمد الطاقة على الاستمرار فالشوق لا يطيق الاصطبار والاصطبار يكون مركزا قلقا مع الشوق وهذا طبيعى .

ثم قال والدرجة الثالثة نار ضرمها صفو المحبة وهذه الدرجة أعلى وأعمق ضرورة من الدرجتين السابقتين فنغصت العيش لعدم الاصطبار على بطء التقدم الذى يحدوه الحب والمحب عجول وهذا يقتضى سلب السلوى وهو معنى قوله وسلبت السلوى ولم ينهنهها أى يزحزحها أو يردها أى مقر في الوجود دون اللقاء : لقاء وجه الله وللشبلى رضى الله عنه :

يقولون لى بالله هل أنت عاشق   فقلت وهل يوما خلوت من العشق
شربت بكأس الحب فى المهد شربة   حلاوتها حتى الملاقاة فى حلقى

وقال غيره :

روح فؤادى بذكر النازح الدانى   فذكره لم يزل روحى وريحانى

وأصرف همومي بصرف من مدامته فذكره من جناب العز أدناني
واحطط رحالي بباب الدير ملتمسا رحاب ذاك الدير لي داني
ولي بهيكله محبوبة ظهرت من بعد ماخفيت عني بجسماني
منيعة الوصل إلا عن فتى منعت في الحب معناه أن يصبو لي ثاني
نادمتها فمحتني عند رؤيتها وكان محوى بها أصلا لوجداني
ولو شرحت الذي منها خصصت به يوما لأصبح من في الكون يهواني
أشتاقها وهي في سرى مخيمة ونورها ظاهر مابين أعياني
وكيف يصبح عنها الطرف محتجبا وحسنها في جميع الخلق يلقاني
أن غيبت ذاتها عني فلي نظر يرى محاسنها في كل إنسان
مافي محبتها ضد أضيق به هي المدام وكل الخلق ندماني

باب القلق

قال الله تعالى حاكيا عن كليمه موسى عليه السلام (وعجلت إليك رب لترضى)

قال الشيخ رضي الله عنه القلق تحريك الشوق باسقاط الصبر وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : قلق يضيق الخلق ويبغض في الخلق ويلذذ الموت .
الدرجة الثانية : قلق يغالب العقل ويخلى السمع ويطاول الطاقة .

الدرجة الثالثة : قلق لا يرحم أبدا ولا يقبل أمدا ولا يبقى أحدا .

ثم يقول الشيخ رضي الله عنه القلق تحريك الشوق باسقاط الصبر لأن الشوق يكون معه الصبر دائما حتى يطغى على الصبر القلق فيسقطه أو يزيله .

ثم قال وهو على ثلاث درجات أى القلق :

الدرجة الأولى : قلق يضيق الخلق بحيث لا يسمع الخلق لأنهم أغيار مايصبو اليه من نور الحق ويلذ الموت لعله بالموت ينكشف له النور الذى كان يشتاق إليه حتى إذا مازاد به الشوق انقلب إلى قلق .

ثم قال والدرجة الثانية . قلق يغالب العقل أى يغالبه على الصبر ويخلى السمع (من السماع) أى يصرفه عن العزل فهو لا يعقل ولا يسمع إلا ما كان من ناحية مطلوبه وهو الكشف .

وأما قوله ويطاول الطاقة أى يغالبها فيغلب عليها ولا يعود الشوق أو الصبر الملازم له ممكنا مطاقا .

ثم قال والدرجة الثالثة :قلق لايرحم أبدا لأنه فى هذه الدرجة يتصاعد إلى التشوف فيزداد ولا يقبل أمدا أى حدا يقف عنده ولا يبقى أحدا مرغوبا فيه سوى الحق سبحانه وتعالى .

ولهذا وذاك يقول الشاعر الصوفى فى مثل هذا الحال :

وجودى إن أغيب عن الوجود   بما يبدو على من الشهود

وقال آخر

ومما زادنى شوقا وتيها   وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك ياعبادى   وأن صيرت أحمد لى نبيا

وقال آخر

أنا إن مت فالهوى حشو قلبي   وبداء الهوى تموت الكرام

باب العطش

يقول الله تعالى (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه . العطش كناية عن غاية الولوع بمأمول وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : عطش المريد إلى شاهد يرويه أو إشارة تشفيه أو عطفة تؤويه .

والدرجة الثانية : عطش السالك إلى أجل يطويه ويوم يريه ما يبغيه ومنعزل يستريح فيه .

والدرجة الثالثة : عطش المحب إلى خلوة مادونها حجاب ولا يغطيها سحاب ولا يعرج على دونها انتظار .

أما وجه استشهاد الشيخ بالآية التى فيها إبراهيم حين رأى الكوكب فقال هذا ربى فشاهده فيها تعاطش إبراهيم عليه السلام وشوقه إلى رؤية الحقيقة مستعجلا من تعطشه فلما أفل الكوكب قال إبراهيم أنى لا أحب الآفلين وذلك لأنه يطلب الحقيقة الخالدة التى لا تأفل ولا تغيب ولا تتغير .

ولذا قال الشيخ رضى الله عنه العطش كناية عن غلبة الولوع بمأمول أى يغلب على الطالب الولع بمأموله الذى يأمل ولكم ظهر له ما يشبه الأمل وليس بحقيق به تركه وأمعن فى البحث والولوع بالتطلع إلى رؤية ما يبحث عنه .

ثم قال الشيخ والدرجة الأولى : عطش المريد أى مريد الحقيقة إلى شاهد يدل عليها فيروى به عطشه أو إشارة تشفيه أو تخفف ظمأه أوعطفه أى لفتة يأوى إليها ممن يحبهم ويشتاق إليهم ويتعطش إلى مشاهدتهم .

ثم قال والدرجة الثانية : عطش السالك إلى أجل يطويه أى إذا لم يسعف بأمنيته من جهة شهوده لأحبابه فيتعطش إلى الأجل وهو الموت الذى يطوى كيانه الحسى فلعله بعد ذلك يشاهد أحبابه وهو معنى قوله ويوم يريه ما يبغيه تعطشا إلى منزل أى منزلة حقيقية يستريح فيها وتنقضى به أمنيته بدلا من هذا التعطش الدائب الناصب الذى يحتويه .

ثم قال الشيخ والدرجة الثالثة وهى أعلى وأرقى لا تجعله يطلب الموت بسبب القلق وهى العطش المحبب إلى خلوة أى مع محبوبه مادونها أى ليس دونها سحاب يشوب صفاءها ولا يغطيها سحاب من التفرقة أو البعد ولا يعرض دونها على انتظار أى لا يفكر ولا يجنح بعدها إلى مايوجب الانتظار ككشف ما يحجبه من شهود الحبيب .

وفى هذا المعنى يقول الشاعر الصوفى :

كم من عاشق وهو من هواه دان وآخر ناطق الدمع صامت اللسان
موثق القلب مطلق العنـــان معذب بالصد والهجـــران

وقال آخر وكان صوفيا ونحويا فى وقت واحد

يا ساكنا قلب المعنى وليس فيه سواك ثانى
لأى معنى كسرت قلبى وما التقى فيه ساكنا

باب الوجد

قال الله تعالى « وربطنا على قلوبهم إذ قاموا »

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : الوجد لهب يتأجج من شهود عارض مقلق وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى . وجد عارض يستفيق له شاهد السمع أو شاهد البصر

وشاهد الفكر أبقى على صاحبه أثرا أو لم يبق ،

والدرجة الثانية : وجد تستفيق له الروح بلمع نور أزلى أو سماع نداء أولى أو جذب حقيقى لن يبقى على صاحبه لباسه إلا أبقى عليه نوره .

والدرجة الثالثة : وجد يخطف العبد من يد الكونين ويمحص معناه من دون الحظ ويسلبه من رق الماء والطين إن سلبه أنساه أسمه وإن لم يسلبه أعاد رسمه .

أما قول الشيخ رضى الله عنه الوجد يتأجج من شهود عارض مغلق فمعناه لهب ناشىء عن وجود عارض من الأغيار يعارض الصفاء : صفاء الحب فيحدث الوجد الذى يمثله الشيخ باللهف المتأجج ثم قال وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى . وجد عارض يعترض فيستفيق له شاهد السمع وشاهد البصر ومعناه الإحساس بالتغير أو شاهد الفكر ومعناه إدراك العقل لمعنى هذا التغير العارف المسبب الوجد وسواء أبقى هذا الشاهد على صاحبه أثرا من فعل التغير أو لم يبق .

ثم قال والدرجة الثانية : وجد تستفرق له الروح بلمع نور أزلى وهذه الدرجة الثانية أعلى من الدرجة الأولى طبعا لأنه وجد فضلا عن تأثيره فى الحس والعقل فانه (تستفيق له الروح) ثم قال بلمع نور أزلى أى إلهام فطرى موصوف بالأولية — هذا معنى قوله أولى أى عن المبدأ الأول وأما قولنا فهوانى فان السادة الصوفية خصوصا المحدثين منهم الذين يحدثهم الله بإلهام نورانى يلقى فى روعهم أى قلوبهم حينما تستفيق أرواحهم لشواهد الحق بصوت أزلى منه فيسمعون ذلك النداء بقلوبهم ويسمى هذا التحديث تحديثا فهوانيا .

ثم قال الشيخ أو جذب حقيقى أن أبقى على صاحبه لباسه أى لبسه

واللبس الوهم أو الستر فقد يكون المريد محجوبا وتأتيه خواطره النفسية من طريق أحاديث النفس فيتوهم أنه إلهام من الله يلقى فى روعه وهو حديث نفسى لا أكثر ولا أقل فليحذر السالكون فى طريق الله الذين لم يتمكنوا فى معارج المقامات والأحوال من هذا الالتباس فان الخاطر الإلهى واضح : يطمئن به القلب وتنبسط به الجوارح فتنطلق فى مراضى الله مستقيمة السير والسلوك .

ثم قال والدرجة الثالثة : وجد إلهى أى شوق (حقيقى متلهف)يخطف العبد من يد الكونين) ويمحص معناه من دون الحظ أى الحظوظ والأهواء — النفسية ويسلبه من رق الطين والماء أى العبودية لشهواته ورغباته وأهوائه مما دون الحق ويحرره فينسيه اسمه الآدمى أى أنه من ماء وطين لما يحدث فيه من روحانيه .

فيقول مع القائل :

ياخادم الجسم كم تشقى لخدمته   أتطلب الربح مما فيه خسران

فاقبل على النفس واستكمل فضائلها   فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ثم قال الشيخ (وإن يسلبه أعاد رسمه) إى ان لم يحصل هذا الجذب والجذب ليس بالكمال المنشود وأعاد عليه رسمه بالتكمل فاضحى عارفا كاملا (يشهد الحق فى جنانه ويجعل الفرق فى لسانه) كما يقول الشاذلى رضى الله عنه فيرى الكون والمكون بفارق واحد ألا وهو أن يرى المكون قبل الأكوان ثم يرى زوال امكانيتها فى أزليته الواجبة الخالدة ؛ وبهذا وذاك يصبح السالك عارفا كاملا متمتعا بوحدة الشهود ولا نقول بوحدة الوجود لأن فى وحده الوجود الخلط بين الفانى والدائم وأما وحدة الشهود فترى دوام الحق الدائم متجليا فى كل شىء وكل ماعداه ظلال تمثل اقتداره وفى التعبير عن هذا المعنى تقول (رابعة العداوية رضى الله عنها) .

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى   وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس   وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

ثم قال صوفى آخر مكنيا عن وجه الحقيقة :

سرت فى سواد القلب منى حتى إذا انتهى   بها السير وارتادت حمى القلب حلت[1]
فللعين تهمال[2] إذا القلب ملها   وللقلب تحنان إذا ملت ملت
ووالله ما فى القلب شيء من الهوى   لأخرى سواها أكثرت أم أقلت

باب الدهش

قال الله تعالى (فلما رأينه أكبرنه)

ثم قال الشيخ رضى الله عنه . الدهش بهتة تاخذ العبد إذا فاجأه ما يغلب عقله أو صبره أو علمه وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : دهشة المريد عند صولة الحال على علمه والوجد على طاقته والكشف على همته .

والدرجة الثانية دهشة السالك عند صولة الجمع على رسمه والسبق على وقته والمشاهدة على روحه .

والدرجة الثالثة : دهشة المحبة عند صولة الاتصال على لطف العطية وصوله نور القرب على نور العطف وصولة شوق العيان على شوق الخبر .

أما قول الشيخ رضى الله عنه : الدهش بهتة تأخذ العبد إذا فاجأه ما يغلب عقله أو صبره أو علمه : واستشهد على هذا الدهش بدهش النسوة

(١) لايقصد الشاعر الحلول المعروف أنما يقصد معنى السكن أو السكون .
(٢) المراد بالتهمال هنا تهمال الدموع أى جريانها .

حينما خرج عليهن يوسف عليه السلام فأكبرنه وقطعن أيديهن لدهشتهن لرؤيته التى غلبت على حواسهن وعقولهن وعلمهن فقطعن أيديهن دون ان يعلمن أو يعقلن مبهوتين لرؤيته وهكذا يؤخذ العبد السالك فيبهت إذا ما فاجاءه ما يغلب عقله وصبره أو علمه من الشهود البادى من لدن الحق .

ثم قال الشيخ وهو على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى : دهشة المريد عند صولة الحال على علمه الذى يأمر بالثبات والتوسط فيطيع المريد الحال لا العلم لأن وجده حينئذ يخرج عن طاقته من جهة ضبطه ويغلب الكشف على همته التى تأمره بالثبات والسير على الطريق الأمم أى المستقيم .

ثم قال والدرجة الثانية : دهشة السالك عند صولة الجمع أى إذا فاجأه مقام الجمع ويكون حاله حينئذ الحب فتستولى صولة الجمع على رسمه من محدودية الحواس ومحدودية نظام التعقل والمنطق المعروف فلم يبق من رسمه هذا ما اعتاده فى حسه وعقله ووقته فيهجم عليه وقت جديد لم يألفه يهجم عليه بالمشاهدة فتلتذ روحه بذلك الشهود وتسعد وتأنس وذلك كله يحدث من صولة الجمع على الرسم والوقت وحال الروح التى كشف لها ستار من غيم الحجاب .

ثم قال الشيخ والدرجة الثالثة : دهشة المحبة عند صولة الاتصال — والمحبة آخر الأحوال قبل الفناء الذى يعقبه البقاء إذا أريد بالسالك الكمال وهو السبيل الأوحد للاتصال ولذا يقول الشيخ (دهشة المحبة عند صولة الاتصال) وليس هذا فقط بل إن لطف العطية من الله عز وجل وصولة نور القرب كما يقول الشيخ على نور العطف اى الانعطاف الذى كان والتشوق بصولة الشوق كل هذا يجعل الغيب له عيانا فيغلب شوق الخبر — كما يقول الناس ليس الخبر كالعيان .

وأنشد فى ذلك :

من شدة القرب منى ظننت أنك أنى
فقلت ما قلت جهلا وذاك من حسن ظنى
وحين حققت أمرى والوهم قد زال عنى
تركت هذا وذاك ثم الفنا صار فنى
وصرت عن غيب غيبى بما أقول أكنى
أزال عنى الترجى علمى به والتمنى
فالعلم والجهل عندى غابا وزال التظنى
إذ كل ذلك خلق والخلق ما عنه يغنى
وليس يشبه ربى شىء فبله للتظنى[1]
أنا الموحد ذوقا فخلنى يامثنى

باب الهيمان

قال الله تعالى (وخر موسى صعقا) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه :

الهيمان ذهاب عن التمالك تعجبا أو حيرة وهو أثبت دواما وأملك بالنعت من الدهش .

وهو عن ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : هيمان فى شيم أوائل برق اللطف عند قصد الطريق مع ملاحظة العبد خسة قدره وسفالة منزلته وتفاهة قيمته .

---

(١) ويريد هنا بالتظنى : ان الظن لا يغنى عن اليقين شيئا .

والدرجة الثانية : هيمان فى تلاطم أمواج التحقيق عند ظهور براهينه وتواصل عجائبه ولياح أنوار .

والدرجة الثالثة : الهيمان عند الوقوع فى عين القدم ومعاينة سلطان الأزل والغرق فى باب الكشف .

أما استشهاد الشيخ بقوله تعالى (وخر موسى صعقا) فمعناه زوال رسم البشرية أمام تجلى الألوهية فيصعق الحس والوجدان كما يحدث لمن أصابه الصرع ثم يفيق ولذا أفاق موسى ونظر إلى الجبل الذى جعله ربه دكا فاعتبر .

هذا وقد يلاحظ القارئ علينا أننا لم نورد شرح الآيات التى يستشهد بها الشيخ فى غالب الأمر إلا ماصعب منها من جهة اللغة أوعمق المعنى ونحن إنما نفعل ذلك لأن الشيخ يجعل الباب الذى يبدؤه مستشهدا بآى القرآن شرحا لما يستشهد به من الآيات فتنصب الآية على مايورد من الكلام .

هذا وأما قول الشيخ الهيمان ذهاب عن التمالك تعجبا وحيرة يريد أنه ذهاب عن تمالك النفس لدهشة التعجب ولذا (قال تعجبا وحيرة) ثم قال وهو أى (الهيمان أثبت دواما وأملك بالنعت من الدهش) ذلك لأن الهائم كان لابد له أن يدهش فيهيم ولكن المندهش فقط قد يخلو من الهيام ولذا كان الهيمان أملك فى النعت أى الوصف من الدهش وهو انطباق الوصفين على موصوف واحد وهو الهيمان .

ثم قال الشيخ وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى هيمان فى شيم أوائل برق اللطف ويظهر أن الشيخ فتح عليه فى أوائل أمره بذلك الشيم الذى أغرم به ومعنى الشيم اللحظ بالطرف أو بالعقل أو بالروح . قال (شيم أوائل برق اللطف) عند قصد

الطريق أى لحظ السالك التائب لبدء النور المواجه لقلبه وسماه الشيخ برقا لسرعة لحظ السالك للطف الحق له عقب توبته وتوجهه القاصد فى طريق الله وذلك الدهش أو الهيمان يحدث لعرفان العبد قيمة نفسه وملاحظة خسة طينته ثم قال الشيخ سامحه الله عن الإنسانية جمعاء (وسفالة منزلته) وذلك له عنده مبرر من المنطق ولذلك عقب بقوله وتفاهة قيمته قال ذلك وهو يريد المقابلة والموازنة بين الباقى والفانى والخالد والزائل على ضوء قوة شهوده هو فوصف الإنسان بوصف أدنى من أن يكون حيوانا وله بعض الحق فسامحه الله ورضى الله عنه ويشفع له فى ذلك قول الله تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا).

ثم قال والدرجة الثانية : هيمان فى تلاطم أمواج التحقيق وهنا قد ترقى الشيخ بقيمة الإنسان وجعل له قدرا بكونه مؤهلا لخوض بحر التحقيق والتحقيق رؤية الأمور على حقائقها لا على ظواهرها أو مظاهرها ثم قال (ذلك يتم عند ظهور براهين التحقيق وتواصل عجائبه أى مايظهر عن هذا التحقيق من عجائب وكرامات وخوارق للعادات متواصلة ثم قال (ولياح أنواره) أى تحصل تلك العجائب والبراهين عندما تلوح أنوار الحق الكامنة فيها مواهبة الجليلة وذلك الكلام لأهله فعلى من لم يفهمه التسليم به وإلا فهو آثم وعلى من يفهمه ألا يبديه إلا لأهله .

ثم قال والدرجة الثالثة : هيمان عند الوقوع فى عين القدم وهذا القول من الشيخ قول مجازى لأنه ليس فى عين القدم وقوع أو دخول أو خروج أو اتصال أو انفصال . ثم وضح الشيخ المجاز ليفهم وذلك بقوله .

ومعاينة سلطان الأزل وفى معاينة سلطان الأزل ومواجهته يفنى ما كان من وصفه الإمكان ويبقى من لا يزال موجودا لأن الأزلية من وصفه وذلك يحدث كما يقول الشيخ عند الغرق فى بحر الكشف وذلك البحر المتصل بالغيب ولذا نبهنا بأن مثل هذا الكلام لا يصرح به إلا لمن

كان من أهله أو على الأقل إلا لمن تذوقه وارتشف من شربه ويقول من تذوق مثل هذا الحال أو تشوق عليه وهام به يقول بنفسه بلسان حاله :

فاذكرونا مثل ذكرانا لكم   رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبا إذا غنى بكم   شرب الدمع وعاف القدحا

* * *

وذلك لتشوقه ووجده وهيامه ثم يقول بلسان الحال أيضا لمن لم يتذوق هذا الشأن ولم يتنسم من ريحه أو رشف من شربه .

حتام أنت بما يلهيك مشتغل   عن نجح قصدك من خمر الهوى ثمل
تمضى من الدهر بالعيش الذميم كذا   فكم ذا التوانى وكم يغرى بك الأمل
وتدعى بطريق القوم معرفة   وأنت منقطع والقوم قد وصلوا
فانهض إلى ذروة العلياء مبتدرا   عزما لترقى مكانا دونه زحل
فإن ظفرت فقد جاورت مكرمة   بقاؤها ببقاء الله متصل
وإن قضيت بهم وجدا فأحسن ما   يقال عنك قضى من وجده الرجل

باب البرق

قال الله تعالى (إذ رأى نارا) وقال الشيخ رضى الله عنه : البرق بكورة تلمع للعبد فتدعوه إلى الدخول فى هذا الطريق والفرق بينه وبين الوجد أن الوجد يقع بعد الدخول فيه والبرق قبله فالوجد زاد والبرق إذن وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : برق يلمع من جانب العدة فى عين الرجاء يستكثر فيه العبد القليل من العطاء ويستقل فيه الكثير من الأعباء ويستحلى فيه مرارة القضاء .

الدرجة الثانية : برق يلمع من جانب الوعيد فى عين الحذر فيستقصر فيه العبد الطويل من الأمل ويزهد فى الخلق على القرب ويرغب فى تطهير السر .

الدرجة الثالثة : برق يلمع من جانب اللطف فى عين الافتقار فينشىء سحاب السرور ويمطر قطر الطرب ويجرى نهر الافتخار .

أما قول الشيخ البرق كبكورة تلمع للعبد فتدعوه إلى الدخول فى هذا الطريق : فبكورة الشىء أوله كبكورة الزرع أول نتاجه وهنا أول الفتح وقد دعاه الشيخ بكورة والفتح هنا اتساع القلب والميل إى الدخول فى طريق الله وهو أول هواتف الخير فى نفس السالك المريد والفرق بينه وبين الوجد كما يقول الشىء أن الوجد يقع بعد الدخول فى الطريق لأنه وجد لموجود عنده من الحال أو المقام وأما البرق فأول هواتف الهداية وجعل الشيخ الوجد زادا لأنه ملازم للمريد كما يلزم الزاد المسافر وأما قوله والبرق إذن من أذن يأذن وهو أول هواتف الحق فى قلب من أراد الله تقريبه وهو نور يتسع له القلب وتطمئن به الجوارح .

ثم قال الشيخ وهو على ثلاث درجات أى البرق .

ثم قال والدرجة الأولى برق يلمع من جانب العدة فى عين الرجاء يستكثر فيه العين القليل من العطاء ويستقل فيه الكثير من الأعباء ويستحلى فيه مرارة القضاء وقد عرفنا ما يكنى عنه الشيخ بالبرق وهو لوامع القرب استجابة من الحق لرجاء العبد فى التقرب إليه فإذا فتح قلبه لهذا النور يستكثر فيه القليل من العطاء الذى غير من أحواله وأقامها من عين النقص إلى بوادر الكمال وحينئذ يستقل فيه العبد الكثير من أعباء السلوك والإرادة فى السير إلى الله ويستحلى فيه مرارة القضاء أى يصبح فيه كل قضاء من الله حلوا مقبولا ولو كان فى نفسه مرا .

ثم قال الشيخ والدرجة الثانية : برق يلمع من جانب الوعيد فى عين الحذر (فيستقصر فيه العبد الطويل من الأمل) وهذا برق آخر أو لوامع أخرى من الصحو تنبع من عين الحذر فيستقصر فيـــه العبد الطويل من الأمل أى يستقصر فيه أيامه ، وما يأمل فيها ولو كان أجله طويلا وأمله عريضا وفى مثل هذا المعنى يقول من خبر هذا الحال شعرا :

وخذ لك منك على مهلة ... ومقبل عيشك لم يدبر

وخف هجمة لا تقيل العثار ... ومثل لنفسك أى الرعيل

يضمك فى حلبة المصدر والمحشر ... فتطوى الورود على المصدر

ثم قال الشيخ ويزهد فى الخلق على القرب أى يزهد فى الخلق على القرب منهم لأنهم يصبحون مغايرين للحال الذى عنده والوجد الذى هو فيه وهو الناشىء عن برق لوامع الحق ثم يقول الشيخ (ويرغب فى تطهير السر) أى ويصبح راغبا فى تطهير سره أى قلبـــه ووجدانه مما فيه من العوج والانحراف .

ثم قال والدرجة الثالثة : برق يلمع من جانب اللطف فى عين الافتقار فان كان البرق فى الدرجة الأولى ناشئا عن الرجاء فى الله ، وكان البرق فى الدرجة الثانية ناشئا عن الحذر من الاستمرار فى الذنوب مع انقضاء العمر ودنو الأجل فان البرق فى الدرجة الثالثة هذه يلمع من جانب اللطف الالهى الذى سببه والافتقار وانكسار القلب إلى الله ولذلك يقول الشيخ يلمع من جانب اللطف فى عين الافتقار فينشى سحاب السرور وهو ضرورى للشعور بترادف المنن وتواتر النعم القلبية قال ويجرى نهر الافتخار أى فيجرى من من هذا وذاك فيض الفخر بفضل الله على العبد وفى مثل هذا المقام يقول الامام الغزالى رضى الله عنه فى ابتداء أمره :

زفر الطالبون واتصل الوصل ... وقد فاز الأحباب بالأحباب

وبقينا مذبذبين حيارى　　بين هدى الاتصال والاجتناب
نرتجى القرب بالابتعاد وهذا　　نفس حال المحال للألباب
فاسقنا منك شربة تذهب الغم　　وتهدى إلى طريق الصواب
فياطبيب السقام يامرهم الجر　　ح ويا منقذى من الأوصاب
لست أدرى بما أداوى سقامى　　وبماذا أفوز يوم الحساب

قال هذا عند ظهور هواتف الحقيقة لقلبه وهو غارق فى مجال العلوم بين أوراقه وكتبه وأقلامه وقال بعضهم فى معنى الدرجة الثالثة درجة هواتف اللطف والمنن:

يا متفضلا جلت فواضله　　عن بغيتى إلى انقضاء أجلى
كم قد أفضت على من نعم　　وكم قد سترت على من زلل
إن لم يكن لى ما ألوذ به　　يوم الحساب سوى عفوك فيا أملى

باب الذوق

قال الله تعالى (هذا ذكر) ثم قال الشيخ رضى الله عنه . الذوق أبقى من الوجد وأجلى من البرق وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : ذوق التصديق لطعم العدة فلا يعقله ظن ولا يقطعه أمد ولا تعوقه أمنية ،

قال والدرجة الثانية . ذوق الإرادة لطعم الأنس فلا يعلق بشاغل ولا يفتنه عارض ولا تكدره تفرقة .

ثم قال والدرجة الثالثة : ذوق الانقطاع لطعم الاتصال وذوق الهمة طعم الجمع وذوق المسامرة طعم العيان .

أما قول الشيخ الذوق أبقى من الوجد لأن الوجد حال يذهب ويجىء. (أجلى من البرق لأن البرق أول شواهد الوجد وهو لوامع هواتف الحق كما قدمنا أما الذوق فانه وجدان ملازم لذات الحق فى صميمها تتذوق به المواهب والمعاطب واللذة والألم ثم قال الشيخ وهو على ثلاث درجات أى الذوق .

فالدرجة الأولى : ذوق التصديق لطعم العدة أى التصديق اوعد الله الذى وعد به المؤمنين والمحسنين بل وسائر عباده الصالحين فيصبح هذا التصديق مع الذوق السليم يقينا لا يعقله أى لا يعتقله ظن فيحجبه ولا يقطعه أمد من الزمن فيذهبه ولا تعوقه أمنية أى أمنية من نعم الدنيا وأمانيها لا تعوق هذا اليقين عن سيره واستمراره ثم قال والدرجة الثـــانية ذوق الإرادة لطعم الأنس وهى تذوق إرادة المريد السالك لطعم الأنس بالله والركون إليه فلا يعلق به شاغل من الشواغل الدنيوية ولا يفتنه عارض أو معارض من اللذائذ الحسية ولا تكدره تفرقة لأنه اطمأن إلى مولاه وتذوق الاستظلال بنعيم رحابه وفى مثل هذا المعنى يقول السـيد على وفا رضى الله عنه :

سكن الفؤاد فعش هنيئا ياجسد

هذا النعيم هو المقيم إلى الأبد

أصبحت فى كنف الحبيب ومن يكن

جار الحبيب فعيشه عيش رغد

ثم قال الشيخ والدرجة الثالثة ذوق الانقطاع لطعم الاتصال وذوق الهمة طعم الجمع وذوق المسامرة طعم العيان . فأما قوله ذوق الانقطاع لطعم الاتصال لا يريد الشيخ بالانقطاع إلى الله الانقطاع عن الأسباب منه وهو مسببها إنما يريد بهذا الانقطاع عن الأسباب لأن الأسباب منة وهو مطلق اللجوء فى كل أمر إلى الله وبهذا اللجوء و الانقطاع فى عرف الشيخ

يتذوق السالك طعم الاتصال الدائم بالحق عز وجل وليس هذا فقط وإنما كما يقول الشيخ وتتذوق همته طعم الجمع على الله والجمع عكس الفرق كماهو ظاهر وفى حال الجمع أو مقام الجمع لمن أسماه مقاما تحدث المسامرة مع الحق بالروح والوجدان فيتذوق العبد أيضا طعم العيان . وفى مثل هذا التذوق أو قل الذوق الخالص يقول ابن الميلق فى قصيدة طويلة تعتبر من أصول الطريق وقواعده :

من ذاق طعم شراب القوم يدريه ومن دراه غدا بالروح يشريه
ولو تعوض أرواحا وجاد بها فى كل طرفه عين لا يساويه
وقطرة منه تكفى الخلق لو طعموا فيشطحون على الأكوان بالتيه
وذو الصبابة لو يسقى على عدد الـ أنفاس والكوب كأس ليس يرويه
يروى ويظمأ لا ينفك شاربه يصحو ويسكر والمحبوب يسقيه
فى غيه غائب والصحو يسكره والوجد يظهـــر طورا ويخفيه
يبدو له السر من آفاق وجهته والسر منه له حقـــا يبديه
له الشهادة غيب والغيوب له كالجمع فى فرقه مازال يلقيه
له لدى الجمع فرق يستطيب له كالجمع فى فرقه مازال يلقيه
يدنو ويعلو ويرنو وهو مصطلم فى الحالتين بتمييز قوى فيـــه
له الوجودات أضحت طوع قدرته وما يشاء من الأطوار يأتيه
للقوم سر مع المحبوب ليس له حد وليس سوى المحبوب يحصيه
لهم تصرفهم فى الكائنات فما يشاء شاءوا وما شاءوه يقضيه
إن كنت تعجب من هذا فلا عجب لله فى الكون أسرار ترى فيه
لاشىء فى الكون إلا وهو ذو أثر فما المؤثر غير الله قاضيـــه

ليس الترفع مناعا لقدرته ... من حيث قدرته يأتى تعاليه
وللفقير وجوه ليس يحصرها ... عـد وكل وجود فهو راويه
أوصافه ظهرت من وصف مبدعه ... وكله مظهر يبدى تجليه
إذا رؤى ذكر المولى لرؤيته ... وفاز بالسعد والتقرب رائيه
تبدو عليه سمات القوم لائحة ... وخلعه العز والتحكيم عاليه
إن كنت تقصد أن تحظى بصحبته ... فاسلك على سيد طابت مساعيه
اخلص ودادك صدقا فى محبته ... والزم سرا بابه واعكف بناديه
واستغرق العمر فى آداب صحبته ... وحصل الدر والياقوت من فيه
وابذل قواك وبادر فى أوامره ... إلى الوفاق وبالغ فى مراضيه
واحذر بجهدك أن تأتى ولو خطأ ... ما لا يحب وباعد عن مناهيه
وكن محب محبيه وناصرهم ... والزم عداوة من أضحى يعاديه
واعلم يقينا بأن ناصره ... إن لم يكن ناصرا فالله يكفيه
وأنزل الشيخ فى أعلى منازله ... واجعله قبلة تكريم وتنزيه
ولست تفعل هذا إن ظننت به ... نقصا ولا خللا فيما يعانيه
واترك مرادك واستسلم له أبدا ... وكن كميت مخلى فى أياديه
واعدم وجوده لا تشهد له أثرا ... ودعه يهدمه طورا ويبنيه
متى رأيتك شيئاً كنت محتجبا ... بنية الشىء عما أنت ناويه
ولا ترى أبدا عنه غنى فمتى ... رأيت عنه غنى يخشى تناسيه
وغاية الأمر فيه أن تراه على ... نهج الكمال وأن الله هاديه
ومن إمرة هـذا أن تؤول ما ... عليك أشكل إظهارا لخافيه
والمرء إن يعتقد شيئا فليس كما ... يظنه لم يخف فالله يعطيه
وليس ينفع قطب الوقت ذا خلل ... فى الاعتقاد ولا من يواليه
إلا إذا سبقت للعبد سابقة ... يعود من بعدها أهدى توليه

ونظرة منه إن صحت لديه على … سبيل ود باذن الله تغنيـــه
والجذب أخذة عبد نفسه بيد … عناية نحو أمـــر ليس يدريه
هو المـــراد ومخطوب العناية لا … يحس كلفة تكليف يلاقيـــه
طوراً يرد عليه الحس تكملة … له فيقصد ماقد كان ناويه
تراه بعبد لا يلوى على شغل … سوى العبادات يستحلى تفانيه
ترى الحقائق تبدو منه فى نسق … مع الكشوف لأن الله يلقيه
وذو السلوك تراه فى لذاذاته … يجاهد النفس ذا وعى لباقيه
يمشى على نهج أهل الصدق ملتزما … شروطهم خائفا فيما يرجيـه
كم من مريد قضى ما نال بغيته … حق القضاء عليه فى تقضيه
وكم مريد ونى من بعد عزته … إذ عزمه ذاك ماصحت مباديه
من ليس يخلص فى مبدا إرادته … يهوى به الحظ فى أهوى مهاويه
وما المريد الذى صحت إرادته … إلا مراد له جذب يوافيه
والجذب إن كان من بعدالسلوك له … فضل على الجذب ماالسعى تاليه
وفى الحقيقة لولا الجذب ماسلكت … طريق حق ولا رؤية مرائيه
لولا العناية والتحصيل قد سبقنا … لدعوة العبد ما قامت دواعيه
إن المريد مراد والمحب هواك … محبوب فاستمل هذا من أمانيه
إن كان يرضاك عبد أن تعبده … وإن دعاك مع التمكين تأتيه
ويفتح الباب إكراما على عجل … ويرفع الحجب كشفا عن تدانيه
وتم تعرف مافد كنت تجهله … فما عن الحصر قد جلت معانيه
ويرتوى من شراب الأنس صافية … ياسعد من بات مملوءا بصافيه
وصل يارب ما غنت مطوقة … على النبى صلاة منك ترضيه

القسم الثامن وهو قسم الولايات
وفيه عشرة أبواب

اللحظ ، والوقت ، والصفاء ، والسرور ، والسر ، والنفس ، الغربة ، والفرق . والغيبة ، والتملق .

باب اللحظ

قال الله تعالى (انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى)

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : (اللحظ لمح مسترق وهو فى هذا الباب على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى . ملاحظة الفضل سبقا وهى تقطع طريق السؤال إلا ما استحقته الربوبية من إظهار التذلل لها وتنبت السرور إلا مايشوبه حذر المكر وتبعث على الشكر إلا ماقام به الحق تعالى من حق الصفة .

الدرجة الثانية : ملاحظة العبد نور الكشف وهى تسبل لباس التولى وتذيق طعم التجلى وتعصم من عوار التسلى .

والدرجة الثالثة : ملاحظة عين الجمع وهى توقظ الاستهانة بالمجاهدات وتخلص من رعونة المعارضات وتفيد مطالعة البدايات .

أما استشهاد الشيخ بالآية فمراده من ذلك أن الله أمر موسى بأن يلحظ أى ينظر لاحظا الجبل إذا تجلى الله عليه والجبل صخر فما بالك بما يحدث لموسى النبي الإنسان من مثل هذا التجلى وهو دم وعظم ولحم وهذا مانظنه مراد الشيخ من استشهاده هنا بتلك الآية والله أعلم بمراده .

أما قول الشيخ اللحظ لمح مسترق اشتقه من استرق يسترق اللحظ أو الشيء والمراد اللحظ بالنظر الباطني وكان أكثر الصحابة يسترقون النظرة تلو النظرة للنبي لمهابتهم له ولأنهم يلاحظون بقلوبهم نور وجـــه الكريم وجلال قدره ولهذا السبب كان يسترقون الظر إليه توقيرا له . فالشيخ يريد اللحظ المسترق لألطاف الله عز وجل وفضله وتجليه هيبته وإجلالا للحق عز وجل وذلك لا يتم إلا بلحظ قلبي ثم وهو فى هذا الباب على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى . ملاحظة الفضل سبقا وهى تقطع طريق السؤال إلا ما استحقته الربوبية من إظهار التذلل لها ثم قال وتنبت السرور إلا مايشوبه من حذر المكر وتبعث على الشكر إلا ما قام به الحق تعالى من حق الصفة أما قوله ملاحظة الحق سبقا أى فضل الله السابق على عباده ونعمائه الغامرة التى منها الايجاد والإرزاق وما بعد ذلك من الكرم والفضل وهو لا يحصى وذلك السبق من شأنه أن يقطع على العبد طريق سؤاله للخلق لعلمه بأن الله يعلم حاجته وقد تفضل وأمده بها من قبل أن يسأل وبل من قبل أن يخلق وهنا استثناء بما استحقته الربوبية من إظهار التذلل لها أى العبودية والخضوع وإظهار التملق والاضطرار وابداء الحاجة إلى الله وهذا التذلل من حق الربوبيه على العبودية ضرورة ثم قال (وينبت السرور) أى أن هذا اللحظ من العبـــد لافضال الرب ينبت السرور فى قلبه طبعا (ثم قال الشيخ إلا مايشوبه من هذا المكر) أى مايشوب هذا السرور والانبساط من خوف المكر والاستدراج والعياذ بالله لأن الانبساط إذا لم يصحبه الحذر أدى إلى الرجاء دون العمل فيكون الرجاء هنا ضربا من الاستدراج والفتنة ثم قال : (ويبعث على الشكر) أى هذا اللحظ لجميل صنع الله إلا ما قام به الحق تعالى من حق الصفة أى من حق الاتصاف بالشكر لاسمه الشكور الدال على تلك الصفة الثابتة للحق عز وجل .

ثم قال الشيخ والدرجة الثانية : ملاحظة العبد نور الكشف أى لحظ العبد لنور الكشف قال الشيخ وهى أى هــــذه الحالة تسبل لباس التولى والتولى أى اتخاذ الوالى لوليه فهو يأتى من ناحيتين من ناحية أن يتولى العبد مولاه بالطاعة فيتولاه الله بالقبول والرضى ، أو أن يتولى الله عبده من بادئ ذى بدء فيفطره على حسن الاستجابة وحب الطاعة من أول نشأته إلى آخر عمره فيكون دائم اللحظ لوليه الذى يتولاه فى كل أمر من الإنعام أو الضر ويرجع العبد بهذا الاعتبار إليه فى حالى الطاعة والمعصية فيكون دائما مع ربه بسبب تولى الله إياه وهذا كله معنى قول الشيخ (وهى تسبل لباس التولى) وليس هذا فقط ولكنها أيضا تذيق طعم التجلى أى تجلى نور الرب على قلب عبده وأيضا كما يقول الشيخ او تعصم من عوار التسلى) ومعنى العوار هنا النقص أو العيب فالتولى والتجلى يعصمان العبد من هذا العوار وهو عوار التسلى والتسلى قرين للتخلى فان تسلى العبد عن مولاه كان معرضا للتخلى عن سلوك طريقه ضرورة .

ثم قال والدرجة الثالثة . ملاحظة عين الجمع وهنا وفى هذه الدرجة ترقى اللحظ وتوطن فصار ملاحظة لعين الجمع أى الجمع على الله وللجمع ثلاث معان : جمع التوحيد وهو ملاحظة أو معاينة توحد الله عز وجل بالخلق والأمر وقولنا (الخلق والأمر) أى عالم الخلق وعالم الأمر الفعال والمسبب لوجود وتحركات عالم الخلق وجمع الألوهية دال على شهود الذات البازغ عنها سائر الأفعال والصفات المؤثرة فى الخلق والإبداع والثالث جمع الربوبية وهو شهود الرب أى البار المربى باحسانه على عباده وهذا الجمع يقتضى أى يرى العبد الخير كل الخير مما يصيبه أو يصيب غيره من الرب وهــــذه الملاحظة ملاحظة عين الجمع توقظه كما يقول الشيخ من الاستهانة بالمجاهدات أى عند السالك فيستهين بكل جهاد فى سبيل الحصول لشهود عين الجمع وليس هذا فقط بل قال وتخلص من رعونة المعارضات لأن من

وصل إلى مثل هذا الحال وغمره حتى أوصله لشهود عين الجمع يكون دابه التسليم والرضى بأفعال الله سرائها وضرائها فلا تحدث منه حينئذ معارضة لأفعال الحق ثم قال (وتفيد مطالعة البدايات) أى يشعر بصحة البدايات وكما يقول رجال التصوف (من صحت بدايته أشرقت نهايته) ويقول بعض من حظى بمثل هذا المقام شعرا .

تعدد هذا الكون والكثرة التى تلوح خيالا كالسراب فخلها
وما ثم إلا واحد جل ذكره لذا يتجلى فى المظاهر كلها

وقال آخر ممن بلغوا هذا المقام :

ما للخليقة إلا اسم الوجد على حكم المجاز وفى التحقيق ماجد
فعندما ظهرت أنواره سلبوا ذاك التسمى فلا كانوا ولا فقدوا
أفناهمو وهم فى عينهم عـــدم وللفناء فهم باقون ماجحدوا
فالعبد صار كما أن لم يكن أبدا والحق كان كما أن لم يزل أحدا
لكنه عندما أبدى محاســنه كسا الخليفة نور الحق فاتحدوا(١)

ومن أقوالهم المختصرة فى هذا المقام قولهم :

إن قلبا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتى الناس بالحجج

---

(١) الضمير فى اتحدوا عائد على الخليقة من حيث توحـــدهم فى عبودية الله تعالى لا أنهم اتحدوا بالله عز وجل .

باب الوقت

قال الله عز وجل (ثم جئت على قدر ياموسى) وقال الشيخ رضى الله عنه الوقت اسم لظرف الكون وهو اسم فى هذا الباب لثلاث معانى وهو على ثلاث درجات

الدرجة الأولى : حين وجد صادق لايناس ضياء فضل جذبه صفاء رجاء ثم قال الشيخ الدرجة الثانية : اسم لطريق سالك يسير بين تمكن وتلون ، لكنه إلى التمكن ماهو يسلك بالحال ويلتفت إلى العلم فالعلم يشغله فى حين ، والحال يحمله فى حين . فبلاؤه بينهما يذيقه شهودا طورا ويكسوه غيرة طورا ويريه غيرة التفرق طورا .

الدرجة الثالثة : قالوا الوقت الحق أرادوا به استغراق رسم الوقت فى وجود الحق وهذا المعنى يسبق على هذا الاسم عندى لكنه هو اسم فى هذا المعنى الثالث لحين تتلاشى فيه الرسوم كشفا لاوجودا محضا وهو فوق البرق والوجد ويشارف مقام الجمع لو دام وبقى ولايبلغ وادى الوجود لكنه يكفى مؤنة العامة ويصفى عين المسامرة ويشم رائحة الوجود .

أما استشهاد الشيخ بالآية (ثم جئت على قدر يا موسى) أى جئت فى وقتك أوفى الوقت المناسب لأن الوقت اسم لظرف الكون كمايقول الشيخ وهو اسم فى هذا الباب أى عندنا معاشر أهل التصرف على ثلاث معان وهو فى الوقت نفسه على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : حين وجد صادق لإيناس ضياء فضل جذبه صفاء رجاء أما قول الشيخ فى الدرجة الأولى : الوقت اسم فى هذا الباب لثلاث معانى : المعنى الأولى : حين وجد صادق أى وجد من سالك صادق فى وقت صادق أى فرض وجد يقوم بقلبه وهو صادق فيه غير متكلف له وذلك

الوجد يكون متعلقه ضرورة ايناس فضل أى الاستئناس بالفضل فى الوقت
أما قوله فى الدرجة الأولى الوقت ظرف الكون أى الظرف الذى يتعاقب فيه الحوادث او قل هو الوعاء الزمانى للحوادث المتوالية بالتكوين ومع ظرف الزمان يوجد ظرف المكان أيضا وهو الوعاء المكانى الذى يقع فيه حجم الجسم وهذا هو المعروف للعلم ولكن للوقت عند القوم معنى أعلى من ذلك وأسمى فان الوقت عندهم الوقت الذى يقع فيه الحال المباين أو الملائم ولذلك قالوا الصوفى ابن وقته فلا تتعدى همة السالك عمارية ذلك الوقت فهى أولى الاشياء به إن كان الوقت حال قربه شكر الله وإن كان الوقت عكس ذلك استغفر الله وأناب إليه لأنه يطالب بعمارية الوقت الراهن فالصوفى لايهتم بالوقت الماضى أو الوقت المستقبل بل يحرر نفسه للاشتغال بشأن الوقت الحاضر وإلا اعتبر وقته وقت ضائع . وروى عن الشافعى رضى الله عنه أنه قال صحبت الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتين سمعتهم يقولون: (الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل) وقد يريدون أى أهل طريق الله غرضا أعلى من ذلك للكمل منهم ألا وهو تصريف الحق لهم فى ذلك الوقت فلا يختارون لأنفسهم فيه شيئا وهذا معنى قولهم السالك يسلك بحكم وقته أى بما يتجلى الله به عليه فى الوقت دون معارضة واختيار ذلك عدا ما كان فيه حكم شرعى فيجب تنفيذه دون اهماله أوحكم قدرى فيجب التسليم فيه وإذا أراد الله بعبده خيرا أعانه على وقته وهناك المعنى الثالث وهى أعلى المعانى فى الوقت وهو النظر إلى سوابق الحق فى سالف الأزل فينقادون معها مسلمين الأمر لصاحبه مع جدهم فى القيام بالأوامر واجتناب النواهى وقيل إنه رأى الصديق بعضهم فى منامه فقال له أوصنى فقال كن ابن وقتك ولهذا وذاك يقول الشيخ رضى الله عنه الوقت اسم فى هذا الباب لثلاثة معانى: المعنى الأول حين وجد صادق أى من مريد صادق فهذا الوقت أى حال الوقت يصحبه الايناس ضرورة وهو الأنس بالحق فيسكن إليه والفضل هو العطاء لمن لا يستحقه .

أو العطاء فوق استحقاق الحق فكل عطاء بهذا الوصف فهو فضل ، فالوجد الصادق فى وقت الصدق يقتضى الإيناس من فضل الله ويكون قد جذبه أى جذب هذا الفضل الإلهى والإيناس (صفاء رجاء) أى رجاء صاف والرجاء الصافى هو الرجاء الذى لا تتوهم معه معارضة ليكون الفضل لله جميعا لاسيما وأن العبد لا يستطيع أن ينال من ذلك الفضل إلا بتوفيق الله وعونه وملخص هذه الدرجة الأولى أن الوجد الصادق مع النية الخالصة والرجاء الصافى ورؤية فضل الله على عبده يكون كما يقول الشيخ (عصمة جذبها صدق خوف) أى من الضياع أو الانصراف عن طريق الحق . قال والمعنى الثانى اسم لطريق سالك يسير بين تمكين وتلون لكنه إلى التمكن ما هو يسلك الحال أى مدة دوامة سلوك الحال،وفى هذا الحال يلتفت إلى العلم لأن العلم كان أساس سلوكه فالعلم قد يشغله عن الحال بانصرافه إلى النظر فى العلم والحال يحمله حينا إلى الانصراف عن العلم لأن الحال تحقق والعلم خبر ثم يقول الشيخ فبلاؤه بينهما أى بلاء السالك بين الحال والعلم يذيقه شهودا طورا وذلك بواسطة الحال ويكسوه عبرة طورا بواسطة العلم ويريه غيره تفرق طورا لحيرته بين الحال والعلم فالعلم ينصحه بالسكون والحال يحمله على الطيران لبغيته وهذا على حد قول الشيخ بلاؤه والبلاء هنا من الاختبار والامتحان أى ابداء ذلك قد يزيده خبرة بالطريق ودليل ذلك أن الكمل من رجال الله لا يصرفهم الحال عن العلم ولا يقعدهم العلم عن التماس الحال وبين الحال الصادق والعلم الصحيح صيانة للعبودية وذلك هو المعنى الثانى عند الشيخ من المعانى الثلاثة الوقت والمعنى الثالث قوله لكنه إلى التمكن أميل منه للتلون،والتلون من مقتضيات العلم والتمكن من مقتضيات الحال الصادق لما فيه من ثبات وترق وقدمنا أن صاحب الحال الكامل يكون أقرب للتمكن لأنه يتصرف بعلمه فى حالة ويزن حاله بعلمه وذلك ما يدعوه للكمال فلا يعقبه العلم عن الحال ولا يمنعه الحال من استيعاب العلم

وذلك هو المقام الأكمل الذى كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتلك وهى الدرجة الثانية .

والدرجة الثالثة : كما يقول الشيخ قالوا الوقت الحق وأرادوا به استغراق رسم الوقت فى وجود الحق . ثم قال الشيخ وهـذا المعنى عندى يسبق على هذا الاسم أى يسبق على معانى الوقت التى ذكرت ومعناه الفناء عن الوقت واستغراق رسم الوقت أى حدوده بسائر آناته ولحظاته فى وجود الحق لأن وجود الحق سابق على هـــذا التفصيل من الآنات واللحظات للوقت بل وسائر ظروف الزمان والمكان وهذا ماقصده الشيخ بالمعنى الثالث (المعنى الذى تتلاشى فيه الرسوم كشفا لا وجودا محضا) لأن الوجود المحض لله والكشف عن شأن عرفاء الزمان وسكان المكان لذلك جعل الشيخ هذا المقام فوق الوجد والبرق ومعنى الوجد مايجده السالك من حال ومعنى البرق ما يلحظه من تجل للحق . ولذا قال الشيخ وهو يشارف مقام الجمع أى الجمع على الله وشهود رتبة الربوبية والألوهية تلك الرتبة النزيهة التى لا يماثلها شىء غيرها، هذا لو دام الحال ولكنه لا يبلغ وادى الوجود الوجوبى لأن وجود السالك على كل حال وجود إمكانى كمخلوق ولكنه وإن لم يبلغ وادى الوجود يكفى مؤنة العامة بذهاب التكلف لا التكليف ويصفى عين المسامرة أى المسامرة مع هواتف الحق ويشم رائحة الوجود لكونه فى حال قرب من رحاب الحق وفى أنس بشهود الحقيقة وهذا مايعنيه الشيخ بالإيناس فى أول هذا الباب .

وأنشدوا فى معنى الاستدراك للوقت قولهم :

بادر لدرك الذى قد فات من عمرك ... ولتتخذ زادك التوحيد فى سفرك

وقل يامليك الورى يامنتهى أملى ... ما أشوق الوالة المضنى إلى سرك

ماظل لى أمل غير مشـــهدكم ... ولا قرأت كتابا ليس فى سيرك

وأنشدوا أيضاً فى معنى التمكن من الحال .

شغلت قلبى بما لديك فلا ينفك طول الحياة عن فكر
آنستنى منك بالوداد وقد أوحشتنى من جميع ذا البشر
فذكرك لى مؤنس يعاودنى ويعدنى عنك منك بالظفر

باب الصفاء

قال الله تعالى (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) .

وقال الشيخ رضى الله عنه : الصفاء اسم للبراءة من الكدر وهو فى هذا الباب سقوط التلوين وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : صفاء علم يهذب سلوك الطريق ويبصر غاية الجد ويصحح همة القاصد .

والدرجة الثانية : صفاء حال يشاهد به شواهد التحقيق ويذاق به حلاوة المناجاة وينسى به الكون

والدرجة الثالثة : صفاء اتصال يدرج حظ العبودية فى حق الربوبية ويغرق نهايات الخبر فى بدايات العيان ويطوى ضآلة التكاليف فى عين الأزل .

أما الآية التى استشهد بها الشيخ فمعناها ظاهر بين .

وأما قوله الصفاء اسم للبراءة من الكدر فمعناه أن الكدر نقيض الشوب فالشىء الصافى هو الخالص مما يشوبه من كل مغاير لمعنى الصفاء ومعنى الصفاء هنا كما يقرر الشيخ سقوط التلوين عن المريد المكدر لصفاء السلوك .

ثم قال وهو على ثلاث درجات :

فمن معانى الدرجة الأولى صفاء علم يهذب سلوك الطريق العلم الصافى وهو ما كان خالصا لوجه الله وما كان مصدره عن حقيقة كونية أو قرآنية وهذا العلم مادام — صافيا متينا فهو يهذب سلوك الطريق ويريد الشيخ بهذه التوريه أن يهذب سلوك السالك نفسه ثم يبصره بغاية الجـــد أى بفضل الهمة والاجتهاد وقوله ويصحح همة القاصد متعلق بغاية الجد لأن الجد فى السعي لا ينشأ إلا عن همة عالية لقاصد كريم مجد .

ثم قال الشيخ والدرجة الثانية : صفاء حال يشاهد به شواهد التحقيق ويذاق به حلاوة المناجاة وينسى به الكون والدرجة الثانية يقول فيها الشيخ صفاء حال يشاهد به شواهد التحقيق ومعناه الصفاء الذى يزيل الحجب عن بصيرة المشاهد فيبصر شواهد التحقيق للحقيقة وإذا زالت الحجب بتلك الواسطة يذوق السالك حينئذ حلاوة المناجاة لله بالذكر والفكر والمسامرة وينسى الكون وما فيه اشتغالا بما أقامه فيه الحق من الشهود وحلاوة المناجاة .

ثم قال الشيخ والدرجة الثالثة : وهى أرقى من الدرجتين السابقتين (صفاء اتصال) أى صفاء اتصال خاص تدرك بواسطته حظوظ العبودية من حقوق الربوبية فلا يصير للعبد إرادة ولا رغبة إلا فيما أراده الحق وليس هذا فقط وإنما هذا الاتصال يغرق نهايات الخبر أى ما أخبربه العبد من طريق العقل أو من طريق العلم أو من طريق الكتب المنزلة يغرق نهايات الخبر كله فى بديات العيان بواسطة الشهود ويطوى ضآلة التكاليف وإن كان لا يذوقها فى البداية والنهاية بالنسبة لمكارم الحق ورحمته وتفضله مما كان فى عين الأزل ولابن الفارض فى هذا المقام أبيات فى وصف الحقيقة حيث يقول فى قصيدته الميمية.

فان قيل صفها(١) فأنت بوصفها خبير أجل عندى بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى ونور ولا نار وروح ولا جسم

---

(١) أى محبوبتك

تقدم كل الـكائنات حديثها قديما   ولا ثم شكل هناك ولا وسم
ولا قبلها قبل ولا بعدها بعـــد   وقبلية الأبعاد فهى لهـا حتم
محاسن تهدى المادحين لوصفهما   فيحسن فيها منهم النثر والنظم

باب السرور

قال الله تعالى (قل بفضل وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : السرور اسم لاستبشار جامع وهو أصفى من الفرح لأن الأفراح ربما شابتها الأحزان ولذلك نزل القرآن باسمه فى أفراح الدنيا فى مواضع وورد اسم السرور فى موضعين من القرآن فى حال الآخرة وهو فى هذا الباب على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : سرور ذوق ذهب بثلاثة أحزان : حزن أورثه خوف الانقطاع وحزن هاجته ظلمة الجهل وحزن بعثته وحشه التفرق .

والدرجة الثانية سرور شهود كشف حجاب العلم وفك رق التكاليف ونفى صغار الاختيار .

والدرجة الثالثة : سرور سماع الاجابة وهو سرور يمحو آثار الوحشة ويقرع باب المشاهدة ويضحك الروح .

ومعنى قول الشيخ رضى الله عنه فى الدرجة الأولى : السرور اسم لاستبشار جامع وهو أصفى من الفرح لأن الأفراح ربما شابتها الأحزان ومعنى قول الشيخ اسم لاستبشار جامع والاستبشار ما يبدو على تقاطيع الوجه من السرور ولذا سميت البشرى بشرى لأنها تؤثر فى بشرة الوجه وجعل الشيخ السرور أصفى من الفرح ورأى أن الأفراح ربما شابتها الأحزان أى مازجتها وهى ضدها بخلاف السرور .

وأما قوله ولذلك نزل القرآن باسمه فى أفراح الدنيا يعنى قوله تعالى (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة) وقوله (لاتفرح إن الله لا يحب الفرحين) وإن كان الفرح قد نزل أيضا فى مواضع من الكتاب العزيز كقوله تعالى (فرحين بما آتاهم الله من فضله) وأما قوله وورد اسم السرور فى القرآن فى حال الآخرة ويعنى قوله تعالى (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا) والموضع الثانى عنى به قوله تعالى (ولقاهم نضرة وسرورا) والسرور أعم من الفرح قد يطرأ على النفس ويزول بأسباب من ضده وهو الحزن والسرور أدوم مع شموله لمعنى الفرح .

ثم قال الشيخ وهو فى هذا الباب على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : سرور ذوق ذهب بثلاثة أحزان ولما كان السرور ضد الحزن ولا يتفق معه كان محددا له . ولما كان سببه تذوق الشيء السار فانه كلما كان التذوق للشيء أتم كان السرور به أكمل وأعم. ويقول الشيخ إن هذا السرور المعنى يذهب بثلاثة أحزان : الحزن الأول حزن أورثه الخوف من انقطاع وهو حزن المتخلفين عن ركب المحبين فالمنقطعون قد تخلفوا عن هذا الركب فاذا آبوا إلى الله وأنابوا أذهب حزنهم الذى حدث بسبب الانقطاع وذلك السرور لسبب العظة إلى الله تعالى. أما قوله وحزن هاجته ظلمة الجهل فالجهل بالعلم أو بعدم المعرفة ولا سيما المعرفة لله ولطريقه وهو مقصود الشيخ هنا فزوال هذا الجهل بالمعرفة يحدث أنسا بالله وسرورا بفضله ، ومن أحسن ماقيل فى هذا المعنى قول الله تعالى(الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) فهذا النور الإلهى بما يحدثه فى القلوب من سعة ومعرفة يحدث سرورا بفضل الله عليهم بأن هداهم وهذا الفتح الإلهى مما يزيد الذوق فى المتذوق لفضل الله فى هدايته وعرفانه وهذا معنى قوله (وذوق الإرادة طعم السرور) .

ثم قال الشيخ والدرجة الثانية . سرور شهود كشف حجاب العلم وفك رق التكاليف ونفى صغار الاختيار فمعنى قوله (سرور شهود كشف حجاب العلم) لأن العلم المعروف بالعقل والحس قد يكون حجابا بالنسبة للكشف لا سيما أن الكشف ينبع عن البصيرة والبصيرة من الإنسان تقع فى بؤرة الذات وهى مجرد نور الفطرة ينشع على القلب فيحدث شعورا مبصرا فاذا انكشف حجاب العلم بالشهود أحدث سرورا لا يدركه سوى من تذوقه وأما قوله (وفك رق التكليف ونفى صغار الاختيار) ذلك لأن التكاليف الشرعية فى عرف السالك المبتدىء يجهده ويباين هوى نفسه فيجد له مشقة تقتضى الصبر عليها والصبر فيه بعض معانى الرق ولذا قال الشيخ رق التكليف وأما قوله (ونفى صغار الاختيار) فالصغار اسم مصدر ومنه صغر يصغر صغارا وهنا بمعنى التافة وأطلقه الشيخ على اختيار العبد مع الله وحقا ما أتفه هذا الأمر وهو من الصغار بمكان وكان الأولى والأكمل ولا سيما للعبد السالك لطريق الله أن يسلم كل أموره إلى الله تعالى .

ثم قال الشيخ والدرجة الثالثة : سرور سماع الإجابةوهو سرور يمحو آثار الوحشة ويقرع باب المشاهدة فاذا تجرد السالك لطريق الله من رؤية مشقة العبادة ، وإذا تجرد أيضا من الاختيار مع الله ذلك الأمر الموجب للصغار فى نظر الله اتجه وإذا اتجه تنبه وإذا تنبه تذوق وإذا تذوق عرف وسمع بأذن كيانه المعنوى صوت الاستجابة وتذوق السرور الذى يفيض على نفسه ويبدو على أسارير وجهه فيمحو آثار الوحشة وليس هذا فقط بل إنه أيضا كما يقول الشيخ يقرع باب المشاهدة وطبعا يضحك الروح لهجمة السرور .

وأنشدوا فى معنى هذا الباب قولهم .

إن شئت أن تقضى محياك طيبة   فاعط الرضى بالذى يرضى به الله
واختر إرادته فيما كرهت وما   أحببت فالخير فيما الله أولاه

وقالوا أيضا :

خفض عليك ولا تكن قلق الحشا   مما يكون وعـــله وعساه
فالدهر أقصر مدة مما ترى   وعساك تلقى الذى تخشاه

باب السر

قال الله تعالى (الله أعلم بما فى أنفسهم)

ويقول الشيخ رضى الله عنه : أصحاب السر هم الأخفياء الذين وردفيهم الخبر وهم على ثلاث طبقات : —

الطبقة الأولى : طائفة علت هممهم وصفت قصودهم وصح سلوكهم فلم يوقف لهم على رسم ولم ينسبوا إلى اسم ولم تشر إليهم الأصابع وأولئك ذخائر الله حيث كانوا .

ثم قال والطبقة الثانية : طائفة أشاروا عن منزل وهم فى غيره ووروا بأمر وهم لغيره ونادوا على شأن وهم على غيره فهم بين غيرة عليهم تسترهم وأدب فيهم يصونهم وظرف يهذبهم .

والطبقة الثالثة : طائفة سترهم الحق عنهم فلاح لهم لائح أذهلهم عن إدراك ماهم فيه وهيمهم عن شهود ماهم له وضن بحالهم على علمهم معرفة ماهم فيه فاستتروا عنهم مع شواهد تشهد لهم بصحة مقامهم عن قصد يهيجه غيب وحب صادق يخفى عليهم مبدأ علمهم ووجد غريب لا ينكشف لهم موقده وهذا من أرق مقامات أصل الولايات .

أما وجه استشهاد الشيخ بالآية (الله أعلم بما فى أنفسهم) أى من سر خفى مع الله وإيمان به صدقوا الرسل واتبعوهم وآثروا الله لما أودعه فى

قلوبهم من سره وهو الاستعداد للإيمان والمعرفة بما خفي على قومهم الذين لم يصدقوا الرسول ولم يتبعوهم .

ثم قال الشيخ وأصحاب السر هم الأخفياء الذين ورد فيهم الخبر ويريد به حديث سعد بن أبي وقاص (حيث قال له ابنه أنت هاهنا والناس يتنازعون الإمارة فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي وقد يريد به أيضا قوله عليه الصلاة والسلام (رب أشعث أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره) .

وأما قوله الشيخ وهم على ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : طائفة علت هممهم وصفت قصودهم وصح سلوكهم فلم يوقف لهم على رسم ولم ينسبوا إلى اسم ولم يشر إليهم بالأصابع وأولئك ذخائر الله حيث كانوا وقد وصفهم الشيخ في أول ماوصف بعلو الهمة وعلو الهمة يأبى أن يعرج على مادون الحق ولا يني حتى يصل إليه . ولا ترتضي همته شيئا سواه فيقربه ربه فيفرح و يأنس بقربه ولا يبتغي دون هذا القرب شيئا من القيم الفانية لأن الهمة العالية من شأنها العلو وتأبى على نفسها السقوط ثم وصفهم بصفاء القصد وهو خلوص القصد من كل شائبة للهوى فصفاء القصد تجريده لمطلوب واحد بينما غيره من أهل الهمم الضعيفة تطلب الأمر لغيره والقصد لسواه وحتى قد يعبدون الله لا لذاته وإنما لمخافة عقابه والرغبة في ثوابه .

ثم وصفهم أى أهل مقام السر أيضا بصحة السلوك وهو سلامته من العوائق والقواطع وأما قوله ولم يوقف لهم على رسم يريد به أنهم انمحت رسومهم والرسم مايخفي الحقيقة وراءه كالسحاب لوجه السماء والكسوف

أو الخسوف للشمس والقمر ويريد بالرسم الجسم وقد أراد باسم الروح أو القلب أو الرسم وهو كل ماسوى الله مما يكون فهو رسم ومعنى محوه عدم الوقوف معه أو التعلق به واللبيب دائما يتعلق بالحقائق لا بالرسوم فأولئك الموصوفون من أهل الله لا رسم لهم يقفون معه أو ينظرون إليه وأن كان موجودا بالفعل وجودا اعتباريا وإنما اشتغلوا عنه بالحقائق والمعانى ويريد الشيخ إجمالا إنهم لم ينقطعوا عن الله بشيء من الأشياء وعن طلب رضى مولاهم الذى تفضل عليهم بأن وفقهم ثم إنهم لما فيهم من همة عالية ومعرفة سامية عميقة لم يوقف لهم فى الناس على أثر.. فهم فى الناس من الغرباء أو المفردون والسابقون فلا يوقفون على أثر من آثارهم لسبقهم .

وأما قوله ولم ينسبوا إلى اسم لعدم حبهم للاشتهار غابوا عن كل اسم يريدون به الشهرة وإن اشتهروا بالخير والتقى وهم لا يعلمون وحتى شيوخ هذه الطائفة من الصوفية لم يقصدوا أن ينسبوا إلى الصفاء أو الصوف أو الصفة وإنما الناس بعد الصحابة هم الذين أطلقوا عليهم هذا الاسم الذى اختلفوا فى اشتقاقه تم دون أن يقصدوه هم ثم وصفهم الشيخ رضى الله عنه بأنهم لم يشر إليهم بالأصابع لخفائهم على الناس حيث لم يعرفوا بينهم بالصلاح أو بالتقى أو بالفضل أو بالعلم فيشار إليهم بالأصابع .

وأما قوله أولئك ذخائر الله حيث كانوا والذخائر مايخبأ حرصا عليه لنفاسته ويضن به ويدخر للأمور الشداد وذخيرة الرجل مايدخره أو يزخره لحوائجه ومهماته وهؤلاء لما كانوا من المستورين فى الناس وأولئك الذين لا يشار إليهم بالبنان هم فى الحقيقة بمنزلة الذخائر الإلهية المخبوءة التى لا يجليها الله إلا لمن أحب من عباده وأولئك هم كبار الأولياء .

ثم قال الشيخ والطبقة الثانية : طائفة أشاروا عن منزل وهم فى غيره ووروا بأمورهم لغيره ونادوا على شأن وهم على غيره فهم بين غيرة عليهم

تسترهم وأدب فيهم يصونهم وظرف يهذبهم ويقصد الشيخ بأولئك من أهل الطبقة الثانية : أهل الفتوة من سالكى طريق الحق فإن من تقاليد أهل الفتوة أن يتفتوا أى يتفضلوا على الناس دون انتظار مقابل كما فعل موسى عليه السلام مثلا مع أولا سيدنا شعيب عليه السلام ويعملون لله دون ترقب لأجر أو مثوبة ومن دأبهم أن يخفوا أعمالهم الصالحة وإذا لزم الأمر أظهروا بعض الصفات — المناقضة سترا لحالهم كما فعل الخضر وغيره على مقامهم وتظرفا للخلق وتأدبا مع الحق وقد ذكرنا بعض أحوال أهل الفتوة فى غير هذا المقام من الكتاب فمن شاء راجع أحوالهم هناك وقد نورد هنا استدلالا على أحوالهم وقد يسموا أيضا بأهل الملامة أو الملامتية وأصح تسميه لهم (أهل الفتوة) فمن أحوالهم أن — شيخا لهم شكا إليه بعض أتباعه أنه وقع فى ضائقة وهى ضمان شخص لم يف فسمعه أحدهم ولم يبد فى المجالس شيئا وإنما سمع الشخص يدعو لهذا الأخ فى الله ولما ذهب النهار وأظلم الليل ذهب هذا المريد الفتى إلى منزل الشيخ ومعه مائة دينار وقال له خذها فربما تسد بها خلة أخينا فأخذها الشيخ سرا وإنما أعلنها فى إخوانه فى اليوم الثانى قائلا والله لقد فرج الله ضائقة أخيكم فلان وألهم فلانا أن يدفع لى مائه دينار أعطيتها للأخ الآخر يفرج بها ضائقته .

ولما جاء الليل ذهب الذى كان دفع المائة دينار إلى منزل الشيخ وقال له أعطى المائة دينار لأنها ملك أمى فقال له الشيخ ألم تفعل وتفعل قال المريد نعم ولكنك أظهرت الأمر وكنت أريد إخفاء قال اذهب إلى فلان وخذها منه فذهب إليه وقال له قل للشيخ سرا إنى وهبتها لله . ونوادر أهل الفتوة من هذا القبيل كثيرة فان شئت راجعها فى بعض أبواب هذا الكتاب أو راجعها بإسهاب فى كتابنا (جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف) .

وأما قوله فى الطبقة الثالثة : إنهم طائفة أسرهم (أى أخفاهم) الحق عنهم فلاح لهم لائح أذهلهم عن إدراك ماهم فيه ووهبهم عن شهود ماهم له

وضن بحالهم على علمهم ومعرفة ماهم فيه فاستتروا عنه مع شواهد تشهد لهم بصحة مقامهم عن قصد صادق يهيجه غيب وحب صادق ويخفى على الواحد منهم مبدأ علمه ويجد موردا عذباً لا ينكشف فيه موقفه له وهذا من أرقى مقامات أهل الولايات .

ومعنى قوله الطبقة الثالثة (الذين أسر الحق أحوالهم عنهم) وهى تورية يريد بها أن الحق أخفى أحوالهم حتى عن أنفسهم، فلاح لهم من الله لائح من الشهود والعرفان أذهلهم عن إدراك ماهم فيه من الأحوال الجميلة وهيمهم أى هيمهم بمعرفة الله وحبه عن شهود ماهموا له من قصد الطريق لعلمهم بمنة الله عليهم ، تلك المنة التى لا يرون لأنفسهم فيها كسبا أوعطاء، وهذا ماجعلهم يضنون بحالهم حتى عن أن يتناولها وبالغوا علمهم فى هذا حتى تستروا بأنفسهم عن مواهب أنفسهم لجعلهم ما بينهم وبين الله سرا بينهم وبينه ، وكانت هذه الشواهد من الحقيقة تشهد لهم بصحة مقامهم العالى وهى ناشئة عن قصد صادق يغيبه غيب ساتر أى أمور غيبية عن الناس وحب صادق يحدوهم إلى هذا الخفاء لوجد غريب لا ينكشف للناس موقده وهو شوق الحب والهيام بالقرب :

ثم قال الشيخ وهذا من أدق مقامات أهل الولاية وهم حقا الأغنياء الأخفياء .

قال قطب الدين القسطلانى :

لما رأيتك مشـــرقا فى ذاتى ... بدات من حالى ذميم صفاتى
وتوجهت أسرار فكرى سجدا ... لجميل ما واجهت من لحظات
وتلوت من آيات حسنك صورة ... صارت محاسنها لجمع شتات
وبلوت أحوالا فصرت معبرا ... فى الصحو عن سكرى بصدق ثباتى
فتحولت أحوال سرى فى العلا ... وعلت على محو وعن إثبات

وتوحدت صفتي فرحت مبهجا   نظرا لما أشـــهدت من آيات
ألا وقدظهرت عن شهود بواطن   شهدت بنطق كان من سكتات
فدع المعنف والعذول وقل له   الحق أبلج فاســـتمع كلماتى
لا تأنس بذاهب من حاضر   أوغائب يدعو إلى الغفلات
ولا تنظرن لغير حالك واسترح   من كل مافى الكون من طلبات

باب النفس

قال الله تعالى (فلما أفاق قال سبحانك) .

وقال الشيخ رضى الله سمى النفس نفسا لترويح المتنفس به وهو على ثلاث درجات وهى تشابه درجات الوقت والأنفاس ثلاثة :

النفس الأولى : نفس فى حين استتار مملوء بالكظم معلق بالعلم إن تنفس تنفس بالأسف أو أن نطق نطق بالإذن وعندى أنه يتولد من وحشة الاستتار وهى الظلمة التى قالوا إنها مقام .

والنفس الثانى : نفس فى حين التجلى وهو نفس شاخص عن مقام السر إلى روح المعاينة مملوء من نور الوجود شاخص إلى مقام السرور وذلك روح منقطع الإشارة .

والنفس الثالث : نفس مطهر بماء القدس قائم بإشارات الأزل وهو النفس الذى يسمى صدق النور .

فالنفس الأول للمريد سراج والنفس الثانى للقاصد معراج والنفس الثالث للمحقق تاج ،

هذا وأما وجه استشهاد الشيخ بالآية (فلما أفاق) أى من غشية الحال .

قال سبحانك والمعنى يعبر عن الانتقال من حال إلى حال ولذا قال الشيخ رضى الله عنه سمى النفس نفسا لترويح المتنفس به أى عما كان يجده من ثقل حال الانتقال وفى الانتقال من حال إلى حال أو من مقام إلى مقام استتار لأنها فترة احتجاب بين حالين أو مقامين ويقول الشيخ وهو على ثلاث درجات وهى تشابه درجات الوقت والأنفاس ثلاثة .

والقوم يعبرون بالوقت عن الوقت الإلهى الذى فيه السالك فيلتزم بحكم وقته من الله فعلا أو تحركا أو سكونا . والنفس يعبرون عنه بفترة انتقال كما قدمنا وهو استرواح من التوقف والاستتار بين حالين تبين أحدهما ولم يستبن الثانى .

ثم قال والأنفاس ثلاثة :

النفس الأول : نفسى فى حين استتار مملوء بالكظم أى بالكبت لسبب أن هذا الاستتار الغامض المظلم بين حالين أو مقامين معلق بالعلم الذى يبينه وهو علم السلوك الذى يبين أنه انتقال فإن تنفس تنفس بالأسف لوجود غاشية الحجاب وأن نطق نطق بالحزن لذهاب الحال الذى كان فيه وعدم استبانته الحال الذى سيكون فيه ، ثم قال الشيخ وعندى أنه يتولد من وحشة الاستتار وهى الظلمة التى قالوا إنها مقام ويقول الشيخ قالوا أى زعموا أنه مقام بين مقامين وهـذا الحال عند الشيخ ليس بمقام لأن المقام يجب أن يكون ثابتا والحال يأتى ويذهب ولذلك قالوا كل حال يحول .

ثم قال والنفس الثانى : نفس فى حين التجلى وهذا يشعر بذهاب ظلمة الوقفة وظهور الحال الجديد أو المقام الجديد الذى سيكون السالك فيه ثم قال وهو نفس شاخص عن مقام السرور إلى روح المعاينة وقوله شاخص أى ذاهب أو راحل كقولك زيد شاخص عن المدينة أى ذاهب عنها إلى غيرها وفى هذا النفس يكون المريد كما يقول الشيخ شاخصا عن مقام

السرور إلى روح المعاينة فبعد أن سر وتنفس مسرورا بسرور الانتقال شخص إلى روح المعاينة أى إلى راحة المعاينة، والراحة من الارتياح والارتياح أشد وأثبت من السرور كما لايخفى حيث فى هذا الشخوص يستروح السالك روح المعاينة بسبب التجلى الآلهى الذى أذهب ظلمة الاستتار وذلك الروح أو الارتياح مملوء أى مستمد من نور الوجود الحق أى تجليه وشاخص أيضا أى راحل إلى مقام السر وذلك التروح الذى نتحدث عنه الشاخص إلى مقام السر روح منقطع الإشارة أى لاتصل إليه عبارة أو إشارة من حيث إنه سر بين العبد وربه لا يمكن التعبير عنه بلغة كلام أو إيماءة إشارة .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه والنفس الثالث : نفس مطهر أى للأغيار والظنون ومما تحويه العبارات والإشارات من ماء القدس أى من نفحات الحق وهو ماء الطهارة العظمى ومن معانى القدس لغة : الطهر لأن التطهر بمعنى التقديس أيضا وذلك التطهير قائم بإشارات الأزل . وإشارات الأزل ليست كالإشارات المعلومة التى يشار بها إلى المقام وإنما هى إشارات مواجيد والهامات يكون نبعها الأزل .

ثم قال الشيخ وهذا النفس هو الذى يسمى أى هو الذى يسمى عند القوم بصدق النور أى بالنور الصادق ، والصادق هنا بمعنى الحقيقى أو قل نور الحق .

ثم قال الشيخ : فالنفس الأول أى الذى فى الدرجة الأولى للمريد سراج أى يدله على مواضع سيره ومواطىء أقدامه فى سلوكه من حيث إنه ينتقل به من حال إلى حال أو من مقام إلى مقام فيتنفس الصعداء عند كل نقله. ثم قال والنفس الثانى للقاصد معراج لظهور التجلى فيه فيعرج بقلب صاحبه إلى عالم الحقيقة والتقديس .

وقال والنفس الثالث للمحقق تاج لأنه النفس المطهر بماء القدس

والموصل إلى آفاق تنقطع عندها دلالات العبارات والإشارات فهو تاج للمحقق ولا شك .

وأنشدوا فى مثل هذه المعانى قائلين :

تصاعد أنفاسى إليك عتاب وكل إشاراتى إليك خطاب
وإن لاحت الأسرار فهى رسائل فهل لرسالات المحب جواب
فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب
فإن صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب
إذا لم يكن بينى وبينك ريبة فكل نعيم صد عنك عذاب
فحيث أولى أنت قصدى ووجهتى ووجهك محرابى وأنت الباب
فكيف توانى الخلق عنك وقد بدا جمال به قد هامت الألباب

باب الغربة

قال الله تعالى : (فلولا أن كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن نجينا منهم) .

ويقول الشيخ رضى الله عنه . الغربة اسم يشار به إلى الانفراد عن الاكفاء وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : الغربة عن الأوطان وهذا الغريب موته شهادة ويقاس له فى قبره من مدفنه إلى وطنه ويجمع يوم القيامة إلى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام .

والدرجة الثانية : غربة الحال وهذا من الغرباء الذين طوبى لهم وهو

رجل صالح فى زمان فاسد بين قوم فاسدين أو عالم بين قوم جاهلين أو صديق بين قوم منافقين ،

والدرجة الثالثة : غربة الهمة وهى غربة طلب الحق تعالى وهى غربة العارف لأن العارف فى شـــاهده غريب ومصحوبه من شاهده غريب وموجوده لا يحمله علم أو يظهره وجد، أو يقوم به رسم أو يطيقه إشارة أو يشـمله اسم غريب فغربة العارف غربة الغربة لأنه غريب الدنيا وغريب الآخرة .

أما شاهد الشيخ فى الآية فالقلة : أو الغربة غربة الذين ينهون عن الفساد فى الأرض وشرح الشيخ الغربة بقوله الغربة اسم يشار به إلى الانفراد عن الاكفاء فكل منفرد عن صحبه بنفسه أو منفرد عن قومه بعلو كعبه فى علمه أو منفرد بحبه للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو كل منفرد بعرفانه للحق والسير إليه فهو غريب،ووجود هؤلاء فى الناس يعبر عنه بالغربة وهو أحسن تعبير عن الانفراد بميزة أو التوحد فى صفة تعلو عن مستوى معاشريه فيكون وجوده غربة ويكون فى الناس غريبا .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه فى الدرجة الأولى أو فى الغربة الأولى : إنها التغرب عن الأوطان وهذا الغريب عن وطنه إن مات فى غربته يكون موته شهادة ويكون شهيدا ويقاس له فى قبره كما جاء فى الحديث المروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (موت الغريب شهادة) وأما قوله يقاس له فى قبره من مدفنه إلى وطنه فيشير به إلى مارواه أبو عبدالرحمن البجلى عن عبد الله بن عمرو قال توفى رجل بالمدينة وكان ولد بالمدينة فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال (ليته مات فى غير مولده) فقال رجل ولم يا رسول الله فقال : (إن الرجل إذا مات قيس له من موطن مولده إلى منقطع أثره فى الجنة) .

أماقول الشيخ ويجمع يوم القيامة إلى عيسى بن مريم فيرجع إلى حديث الذى رواه الإمام أحمد والذى يسنده أيضاً إلى عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أحب شيء إلى الله الغرباء) وقيل وما الغرباء يارسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال الفارون بدينهم يجتمعون إلى عيسى بن مريم يوم القيامة .

ثم قال الشيخ والدرجة الثانية : غربة الحال وهـذا من الغرباء الذين طوبى لهم وهو رجل صالح فى زمان فاسد بين قوم فاسدين أو عالم بين قوم جاهلين أو صديق بين قوم منافقين . وقد جعل الشيخ الغرباء فى هـــذه الدرجة ثلاثة: صاحب صلاح ودين بين قوم فاسدين، وصاحب معرفة وعلم بين قوم جهال، وصاحب صـدق وإخلاص بين قوم أهل كذب ونفاق . فالصفات الثلاث تتنافى مع صفات من يعيشون بين أظهرهم ووجود أحدهم فى بلدة كوجود شخص غريب وأكثرهم غربة هو ذلك العارف الصديق الذى صدق الله فى قوله ، وفعله ، وحاله وصدق بماجاء فى القرآن على لسان رسول الله وحبيبه فاتجهت كل مقاصـــده ونواياه إلى حب الله ورسوله والعمل لله ولرسوله ومعرفة حق الله وحق رسوله فإن عاش بين قوم كاذبين منافقين (والمنافق هو الشخص الذى يدل ظاهر عمله على خلاف مافى باطنه فذلك الصديق يكون أشد الناس غربة ولو كان فى وطنه بين بين قومه وأهله وهذا وأمثاله ممن قال فيهم الرسـول صلى الله عليه وسلم (طوبى للغرباء) فى الحديث الذى رواه عبد المطلب بن حنطب عن النبى صلى الله عليه وسلم وخرجه الإمام أحمد قال « طوبى للغرباء قالوا يارسول الله ومن الغرباء قال الذين يزيدون إذا نقص الناس) وفى رواية أخرى (الذين يقلون إذا زاد الناس). وهذا الإنقلاب فى لفظ الحديث تبعته على الرواة، ومعنى يزيدون إذا نقص الناس أى يزيدون فى الخير إذا أنقص الناس من فعل الخير والمراد بالخير هنا عموم الخير ومعنى الذين يقلون إذا زاد الناس أى إذا

كثر الناس وقل مافيهم من خير قل أولئك الأخيار فى الناس تبعا لذلك وأيضاً يؤيد ذلك الحديث المشهور (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء) قيل ومن الغرباء يا رسول الله قال الذين يصلحون إذ فسد الناس . وفى رواية عن نافع بن مالك أنه دخل عمر بن الخطاب المسجد فوجد معاذ بن جبل جالسا وهو يبكى فقال عمر مايبكيك يا أبا عبد الرحمن أهلك أخوك قال لا ولكن حديثا حدثنيه حبيبى صلى الله عليه وسلم وأنا فى هذا المسجد فقال ماهو قال (إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة) فأولئك جميعا هم الغرباء الممدوحون من الله والمغبوطون من رسوله وسموا غرباء لقلتهم فى الناس وتلك هى غربة الحال التى يعنيها الشيخ رضى الله عنه .

ثم قال الشيخ فى الدرجة الثالثة : غربة الهمة وهى غربة طلب الحق وهى غربة العارف لأن العارف فى شاهده غريب ومصحوبه فى شاهده غريب وموجوده لا يحمله علم أو يظهره وجد أو يقوم به رسم أو تطيقه إشارة أو يشمله اسم غريب فغربة العارف غربة الغربة لأنه غريب الدنيا والآخرة فلو كانت الدرجة الأولى فى الغربة غربة الأبدان عن الأوطان وأن كانت الغربة فى الدرجة الثانية غربة الأقوال والأفعال والأحوال فإن هذه الغربة الثالثة غربة الهمم لأن همة العارف لا تقف عند موطن أو علم أو معرفة أبدا لتعلقها الدائم العارم بالمعروف الأعظم وهو الحق عز وجل وبهذا تكون غربة العارف هى غربة الغربة ويكون العارف فى سـائر معلوماته وشواهده ومصحوبه من معرفته وما يشاهد ويتجلى على قلبه من ذلك غريبا فى بيته وبيئته لماذا ؟ . لأنه موجوده من المعرفة لا يحمله علم مما يصطلح الناس عليه والحال أن العلم المعروف لا تزيد أبحاثه عن شقين أو ناحيتين : علم بالدين من فقه وأصول وغير ذلك وعلم بالدنيا من طبيعة

ورياضة واقتصاد الخ فوجود العارف فى معرفته لا يحمله أى علم من هـ القبيل أو يظهره وجد أى ولا يظهره وجد من مثل تلك المواجيد لأن هـ الوجد أعلى وأكرم من كل وجد سواه ولا يقوم به رسم أى أن موجود العارف أو محصوله من معرفته لا يقوم به رسم من العلوم الظاهرة لأنه مبنى على محو الرسوم وتوحيد الحقيقة ثم يقول الشيخ ولا تطيقه إشارة وكيف تطيق الإشارة أو العبارة معرفة أو علما يتعلق بالأزل والأبد ولا تحول فيه إلا الذات الإنسانية بما فطرت عليه من الهام وكشف . وتجريد التوحيد طلبا لكمال التنزيل وحتى هذا المعنى لا يشمله اسم غريب مما يصطلح على تسميته بالغريب فى وطنه أو الغريب فى أحواله أو الغريب فى مواجيده فاذن تكون غربه العارف على التحقيق غربة الغربة لأنه كما يقول الشيخ يكون أى حينئذ غريب الدنيا والآخرة .

وفى هذه المعانى كلها أنشدوا قولا غريبا فى الأقوال أيضاً لعمق معناه فى المعرفة وبعد مداه فى سمو الطلب :

لمعت نارهم وقد عسعس الـ ... ـليل ومل الحادى وحار الدليل
فتأملتها وفكرى من السـ ... ـن عليل ولحظ طرفى كليل
وفؤادى ذاك الفؤاد المعنى ... وغرامى ذاك الغرام الدخيل
ثم قابلتها وقلت لصحبي ... هـذه النار نار ليلى فميلوا
فرموا نحوها لحاظا صحيحا ... ت فعادت خواسئا وهو حول
ثم مالوا إلى الملام وقالوا ... خلبا مارأيت أم تخييل
فتجنبتهم وملت إليهـا ... والهوى مركبى وشوقى الزميل
ومعى صحبة أتت تقتفى الآ ... ثار والحب شأنه التطفيل
وهى تبدو ونحن ندنو إلى أن ... حجزت دونها طلول تحول
فدنونا من الطلول فحالت ... زفرات من دونهـا وعويل

قلت من بالديار قالت جريح وأسير مكبل وقتيل
ما الذى جئت تبغى قلت ضيف جاء يبتغى القرا فأين النزول
فأشارت بالرحب دونك فاعقر ها فما عندنا لضيف رحيل
من أتانا ألقى عصا السير عنه قل من لى بذا وكيف السبيل
فحططنا إلى منازل قوم صرعتهم قبل المذاق الشمول
درس الوجد منهم كل رسم فهو رسم والقوم فيه حلول
منهم من عفا ولم يبق للشكـ وى ولا للدموع فيه مقيل
ليس إلا الأنفاس تخبر عنه وهو عنها مبرأ معذول
ومن القوم من بشير إلى وجـ ـد تبقى عليه منه القليل
قلت أهل الهوى سلام عليكم لى فؤاد عنكم بكم مشغول
لم يزل حاد من الشوق يحدو بى إليكم والحادثات تحول
جئت كى اصطلى فهل لى بنار قراكم من الغداة سبيل
فأجابت حوادث الحال عنهم كل حال من دونها مغلول
أتروقنك الرياض الانيقا ت فمن دونها ربى ودخول
كم أتاها قوم على غرة منـ ـها وراموا قرآ فعز الوصول
وقفوا شاخصين حتى إذا ما لاح للوصل غرة وحجول
بدت راية الوفا بيد الوجـ ـد ونادى أهل الحقائق جولوا
أين من كان يدعينا فهذا اليـ ـوم فيه سيف الدعاوى يصول
حملوا حملة الفحول ولا يصر ع يوم اللقاء إلا الفحول
بذلوا أنفسا سخت حين شحت بوصال واستصغر المبذول
ثم غابوا من بعد ما اقتحموها بين أمواجها وجاءت سيول

قذفتهم إلى الرســـوم وكل ... دمه فى طلولها مطلول
منتهى الحظ ماتزود منها اللحـ ... ـظ والمدركون قليل
نارنا هـــذه تضىء لمن ير ... ى بليل لكنها لا تنير
جاءها من عرفت يبغى اقتباسا ... وله البسط والمنى والسول
فتعالت عن المنال وعزت ... عن دنو إليه وهو رسول
ولكل منهم رأيت مقاما ... شرحه فى الكتاب مما يطول
واعتذارى ذنب فهل عند من ير ... ام عذرى فى ترك عذرى قبول
فوقفنا كما عرفت حيارى ... كل عزم من دونها محلول
ندفع الوقت بالرجاء وناهيـ ... ـك بقلب غذاؤه التعليل
كلما ذاق كأس بأس مرير ... جاء كأس من الرجا معسول
وإذا ماسولت له النفس أمرا ... حيد عنه وقيل صبر جميل
هـــذه حالنا وما بلغ العلـ ... ـم إليه وكل حال تحول(١)

(١) من يطلع على هذا القصيد يندهش ويستغرب لما فيه من غرابه: وغربة: غرابة في المعانى وغربة فى طلب المأمول ثم ينتهى إلى هذا البيت الاخير والذى يسبقه أيضا إلى القول بأن الحقيقة الإلهية متسامية بذاتها عن أن تدرك فضلا عن أن ترى بالعين اللهم إلا فيما بعد الموت حيت أتتجرد الروح من شوائب الجسم وتصير فى تواوق مع مصدرها الأعظم . ومن أراد عرفانها فلا مجال له إلا فى عرفان ما اتصل بالذات من خصائص وصفات وأفعال قادرة باهرة تورى بأن الذات حية عالية مريدة قادرة فمن شاهد تلك الصفات وطبقها على ملزوماتها مما يرى من بدائع الاكوان أغرم بحب تلك الذات الغيبية التى يعجز الفكر والقلب والروح عن إدراك كنهها اللهم الا نورها ونورها فقط ويصح هنا التمثل بأبيات مضت خلال الكتاب وفى آخرها بيتان هما الشاهد الذى تريد أن نسوقه لنا وهما .

فأن رام عاشقها نظرة ... لم يستطعها لعلا مجـــدها
أعارته طرفا رآها به ... فكان البصير لها طرفها

باب الفرق

قال الله تعالى (فلما أسلم وتله للجبين)

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : هذا اسم يشار به فى هذا الباب إلى من توسط المقام وجاوز حد التفرق وهو على ثلاث درجات .

الدرجة الأول : استغراق العلم فى عين الحال وهذا رجل قد ظفر بالاستقامة وتحقق فى الإشارة فاستحق صحة النسبة .

الدرجة الثانية : استغراق الإشارة فى الكشف وهذا رجل ينطق عن موجوده ويشير مع شهوده ولا يحس رعونة نفسه .

والدرجة الثالثة : استغراق الشواهد فى الجمع وهذا رجل شملته أنوار الأولية ففتح عينه فى مطالعة الأزلية فتخلص من الهمم الدنية .

ويقول الشيخ إن الفرق اسم يشار به إلى من توسط المقام أى السالك الذى توسط المقام أى المقام الذى هو فيه وجاوز حد التفرق لأنه تمكن فى مقامه بعض التمكن فهو بهذا يجاوز حد التفرقة والرجوع عن المقام الذى هو فيه وأما شاهد الشيخ فى الآية فهو الاستغراق الواقع من الوالد والولد إبراهيم عليه الصلاة والسلام وابنه اسماعيل استغراقهما فى مقام التسليم فأخذ الشيخ من هذا الاستغراق شاهدا له فى باب الفرق .

ثم قال الشيخ فى الدرجة الأولى : إنها استغراق العلم فى عين الحال وهذا رجل قد ظفر بالاستقامة وتحقق فى الإشارة فاستحق صحة النسبة ومعناه استغراق علم السالك فى عين حالة فانقلب العلم باليقين إلى مقام عين اليقين وسبب هذا أن ذلك السالك قد ظفر بالاستقامة والاستقامة فى السلوك هى طرد المبالغة وعصيان التقصير وذلك بالتوسط المنشود عند

شيوخ هذا الطريق ولما ظفر بالاستقامة تحققت الإشارة وهنا صحة المقامات والأحوال التى يشار إليها فى عمومها الخاصة المتعلقة بالطريق وليس عموم العلم فاستحق بذلك صحة النسبة إلى أهل طريق الله ومعنى الاستغراق هنا أن يستغرقه الحال أو المقام كما تستغرق اللجة من خاضها واستغراقه فى حاله أو فى مقامه يسبب له اليقظة التى تصحح الاستقامة ثم تصحح النسبة إلى القوم ويصير علمه بالسلوك حالا بالفعل . والعلم غير الحال طبعا لأن العلم هو العلم بالشيء والحال هو التلبث بما علم فعلا . فان العلم بمقام الرضى مثلا لايخرج عن عرفان العالم بماهية المقام ولكن الراضى بالفعل قد تلبث بمقام الرضى فصار الرضى مقاما له بعد العلم به .

والدرجة الثانية : استغراق الإشارة فى الكشف ومعنى الإشارة هنا الإشار إل مقام ما أو حال ما أو لون ما بواسطة العلم . وأما الكشف فيستغرق هـــذه الإشارة فتذهب الإشاره بوجود الشهود لأن الإشارة أصبحت ذوقا بالفعل ولما كشف له فذاق أصبح ينطق عن موجوده الذى حصله بالذوق والشهود لا العبارة والإشارة ولا العلم ويستنير مع شهوده أى وأنه فى هذا الحال يسير مع شهوده الذى من الله به عليه وقد أصبح لايحس رعونة نفسه أى رعونة الدعوى بأنه صاحب هذا الحال أو المقام بنفسه لأن الشهود زاده معرفة بأن المفيض عليه نور الشهود هو فعل ربه وليس قوة سلوكه ناشئة عن علمه أو نفسه ولاعطاؤه من عنده لذلك يسير مع شهوده من ربه لامع سلوكه بنفسه ومن شأن الكشف أن يذهب بلبس النفس ومتى ذهب لبس النفس ظفر السالك بطريق الاستقامة وأصبح لا يحس رعونة نفسه بسبب الدعوى ، فانه كان قبل ذلك يدعى مواهب مولاه جاعلا إياه من فعله هو لا من فعل مبدعه ولذا قال الشيخ .

والدرجة الثالثة : استغراق الشواهد المسببة عن العلم والمعرفة فى الجمع أى فى مقام الجمع فبعد أن كان يعلم حقائق الطريق بالشواهد جعله الكشف

يترك شواهده ويفنيها فى شهود الجمع ، والجمع هنا رؤية الوجود والحق بالروح والفعل الحق لله عز وجل وذلك بالشهود لا بمجرد العلم وبالمؤثر لا بالأثر وأن كل ما سوى الله ظلال إمكانية يستوى فيها طرفا الوجود والعدم ويكون هذا السالك كما يقول الشيخ رجلا شملته أنوار الأولية أى أولية الوجود الحق ففتح عينه فى مطالعة الأزلية ، والمراد هنا بالعين عين البصيرة وقد جعل الله لقلب السالك عينا يطالع بها الأزلية وسبق الالوهية فيتخلص من الهمم الدنية .

وأنشدوا تلك فى المعانى من تائية ابن الفارض الكبرى رضى الله عنه المسماه بنظم السلوك حيث يقول فيها :

نخلى لهـــا خلى مرادك معطيـــا
قيادك عن نفس بهـــا مطمئنة
وأمسى خليا من حظوظك واسمو عن
حضيضك واثبت بعـــد ذلك تثبت
وسدد وقارب واعتصم واستقم لها
مجيبا إليهـــا عن إنابة مخبت

وعد من قريب واستجب واجتنب غدا
وشمر عن ســـاق اجتهاد بنهضة
وكن صارما كالوقت فالمقت فى عسى
وإياك علّ فهى أخطر علة
وقم فى رضاها واسع غير محاول
نشـــاطا ولا تخلد لعجز مفوت
واقدم وقـدم ما قعـدت له الـ
خوالف واخرج عن قيود التلفت

وجز بسيف العزم سوف فان تجد
تجد نفسا فالنفس إن جدت جدت
وأقبل إليها وانحها مصغيا فقد
وصيت لنصحى إن قبلت نصيحتى

ثم قال :

إذا أسفرت[١] فى يوم عيد تزاحمت
على حسنها أبصار كل قبيلة
فأرواحهم تصبو لمعنى جمالها
وأحداقهم من حسنها فى حديقة
وعندى عيدى كل يوم أرى به
أجمال محياها بعين قريرة
وكل الليالى ليلة القدر إن بدت
كما كل أيام اللقا يوم جمعة
وسعيي لها حج به كل وقفة
على بابها قد عادلت كل وقفة
وأى بلاد الله حلت بها فما
أراها فى عينى حلت غير مكلة
وأى مكان ضمها حرم كذا
أرى كل دار وطنت دار هجرة
وما سكنته فهو بيت مقدس
بقرة عين فيه أحشايا قرت

باب الغيبة

قال الله تعالى (وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف)
ثم قال الشيخ رضى الله عنه الغيبة التى يشار إليها فى هذا الباب على ثلاث درجات :

---

(١) الذات الإلهية بنورها لابذاتها .

الدرجة الأولى : غيبة المريد فى تخلص القصد عن أيدى العلائق ودرك العوائق لالتماس الحقائق .

الدرجة الثانية . غيبة السالك عن رسوم العلم وعلل السعى ورخص الفتور .

الدرجة الثالثة : غيبة العارف عن عيون الأحوال والشواهد والدرجات فى عين الجمع .

وشاهد الشيخ فى الآية التى بدأ بها الباب : أن يعقوب عليه السلام غاب بحبه ليوسف عن ذكر أخيه فلم يذكر إلا يوسف . ثم قال الشيخ الغيبة التى يشار إليها فى هذا الباب على ثلاث درجات كعادته .

الدرجة الأولى . غيبة المريد أى المريد السالك لطريق الحق فى تخلص القصد أى فى تخليص القصد ، والقصد هنا مقصده ومطلوبه وهو الوصول إلى حضرة الحق : يريد الشيخ تخليص هذا القصد من أيدى العلائق أى المغايرة له والصارفة ودرك الفوائق أى تدارك سلوكه مما يعوقه عن المقصد الأعلى لالتماس الحقائق أى لأجل أن يتفرغ من العوائق والعلائق ملتمسا بذلك للحقائق .

ثم قال والدرجة الثانية : غيبة السالك عن رسوم العلم وعلل السعى ورخص الفتور : وهنا أشار إلى نوع من الغيبة أرقى من النوع الأول ألا وهو غيبة السالك عن رسوم العلم بشهود الحال أو المقام وقدمنا أن الحال أو المقام تلبث بالفعل بما كان يعلمه علما من حقائق السلوك فعند مباشرته للحال أو المقام وغيبته فى أحدهما عن العلم به يتخلص أيضاً من علل السعى أى نسبة السعى إلى نفسه وادعاء الوصول بمجرد علمه وكذلك يتخلص المريد من رخص الفتور لأن للعلم تأويلات ورخصا حين حصول الفترة فى السلوك قد يأخذ بها المريد ويلتمس بها العذر لنفسه وهذا مما يعوق طريقه .

ثم قال الشيخ والدرجة الثالثة : غيبة العارف عن عيون الأحوال والشواهد وتلك درجة أعلى وأكرم من الدرجتين السالفتين : درجة الشواهد على الحقيقة وهى مبلغ العلم وحتى درجة الأحوال وهى التلبث بحقائق تلك الشواهد لاتدراج تلك الدرجات فى عين الجمع . ويريد هنا بعين الجمع معاينة وشهود الجمع ومعنى شهود الجمع استغراق الشواهد والعبارات وكذلك الأسماء والصفات فى الذات وهى الحقيقة الجامعة لها ، فإذا بلغ العبد درجة الاستغراق فى عين الجمع غابت الأدلة والشواهد والأحوال كلها لدى تلك الحضرة القدسية وصار العبد يشهد كثرة فى وحدة ووحدة فى كثرة والوحدة هنا وحدة الذات والكثرة لوازم الأسماء والصفات وبهذا وذاك يفهم العبد أن نظره كان بالله لا بنفسه وتوفيقه كان من الله لا من فعله وتحقيقه اجتباء من الله لا من سعيه وعمله .

وفى معانى الغيبة يقول الشيخ عبد العزيز المنوفى رضى الله عنه ابن أبى الأفراح :

وجدت بقائى عند فقد وجودى	فلم يبق حد جامع لحدودى
وألفيت سرى عن ضميرى ملوحا	برمز إشاراتى وفك قيودى
فأصبحت منى دانيا بمعارف	وقد كنت عنى غائبا لجمودى
ومن عين ذاك الأمر حكم مبين	لتحقيق ميراثى وحفظ عهودى
فمن مبتدا فرقى عن وجهتى	إلى منتهى جمعى يكون سجودى
وعاكف ذاتى مطلق لامقيد	وبادى صفاتى قد وفا بعقودى
سألقى عصاى فى رحاب تجردى	ليأتى من نحو القبول ورودى

باب التمكن

قال الله تعالى (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون)

ثم قال الشيخ رضى الله عنه التمكن فوق الطمأنينة وهو إشارة إلى غاية الاستقرار وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : تمكن المريد وهو أن يجتمع له صحة قصد تسيره ولمح شهود يحمله وسعة طريق تروحه .

الدرجة الثانية : تمكن السالك وهو أن يجتمع له صحة انقطاع وبرق كشف وصفاء حال .

والدرجة الثالثة : تمكين العارف وهو أن يحصل فى الحضرة فوق حجب الطلب لابسا نور الوجود .

وأما شاهد الشيخ فى الآية فإن التمكين متمكن فى حاله أو فى مقامه فلا يصرفه عنه ولا يستخفه عن تمكنه من لا يوقن بالذوق أو بالشهود مثله لأنه يفقده ثم قال الشيخ إن التمكن فوق الطمأنينة وهذا صحيح لأن الطمأنينة من قلق يذهب وقد يعود وأما التمكن فى الحال أو فى المقام ثم قال وهو على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى : تمكين المريد وهو أن يجتمع له صحة قصد تسيره ولمع شهود يحمله وسعة طريق تروحه ومعنى قول الشيخ إن الذى يدل على تمكن المريد فى سلوكه أن يجتمع له صحة قصد أى أن يتيقن من صحة قصده وهو وجود الله وطاعته والعبودية له .

ويساعده على ذلك الوهب اذا من الله عليه بلمع شهود يبرق لقلبه من الغيب فيحمله وينسيه مشقة الطريق وسعة طريق تروحه أى طريق واسعة ميسرة مستقيمة وهذه الصفات كلها صفات طريق الله فإن تحقق بها المريد روحه أى أراحه تحققه فجعل الطريق واسعا له وميسرا ليسلكه .

ثم قال الشيخ والدرجة الثانية : تمكن السالك وهو أن يجتمع له صحة انقطاع وبرق كشف وصفاء حال : تمكن السالك فى سلوكه حتى يقطع المقامات والأحوال متمكنا بفضل الله فيها فإنه يحمل العبد السالك على أن يجتمع له صحة انقطاع عن الشواغل والصوارف فى طريق سلوكه ويساعده على ذلك أمران برق كشف يلمع له من جهة الغيب وصفاء حال دون عوائق تكدره أو صوارف تشوب استقامته .

ثم قال الشيخ الدرجة الثالثة وهى من أرقى وأكرم الدرجات تمكن العارف فى معرفته بعد سلوكه وقطع مراحل طريقه وذلك أن يحصل مباشرة فى الحضرة القدسية وهذا معنى حصوله فيها وتلك الحضرة من شأنها أن تكون فوق حجب الطلب ضرورة وكيف لا والعارف الآن وفى تلك الحضرة يكون لابسا نور الوجود أى يكون فى حال تجل يحوطه روحا وقلبا ونفسا من نور الوجود الإلهى الأزلى وتلك غاية الغايات ومحط كل سلوك ومنتهى رفع الهمم .

وأنشدوا فى معنى التمكن قولهم :

أنا فى حالة النوى والتدانى ... لست أثنى عن الغرام عنانى
لا يروم السلو قلبى ولا يفـ ... ـتر عن ذكر من أحب لسانى
فاقتراب الديار لفظ وقرب الـ ... ـود معنى فاسلك سبيل المعانى
ياخليلى خليانى ووجـــدى ... وامزجا لى بذكره واسقيانى

القسم التاسع وهو قسم الحقائق

وفيه عشرة أبواب وهى :

باب المكاشفة ، وباب المشاهدة ، وباب المعاينة ، وباب الحياة وباب القبض ، وباب البسط ، وباب السكر ، وباب الصحو ، وباب الاتصال ، وباب الانفصال) .

باب المكاشفة

قال الله تعالى (فأوحى إلى عبده ما أوحى)

ثم قال الشيخ المكاشفة مهاداة السر بين متباطنين وهى فى هذا الباب بلوغ ما وراء الحجاب وجودا وهى على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى : مكاشفة تدل على التحقيق الصحيح وهى أن تكون مستديمة فإذا كانت حينا دون حين لم يعارضها تفرق يعنى أن المكاشف ربما شاب مقامه أنه قد بلغ مبلغا لا يقطعه قاطع ولا يلويه سبب ولا يلفته حظ وهى درجة القاصد فإذا استدامت فهى الدرجة الثانية ،

وأما الدرجة الثالثة فمكاشفة عيان لا مكاشفة علم ولا مكاشفة حال وهى مكاشفة لا تذر سمة تشير إلى التذاذ أو تلجئ إلى توقف أو توقف على رسم وغاية هذه المكاشفة المشاهدة .

وموضع استشهاد الشيخ وهو أن الله عز وجل كاشف عبده محمدا صلى الله عليه وسلم من طريق الوحى بما لم يكاشف به غيره ويقول الشيخ بعد ذلك المكاشفة مهاداة السر بين متباطنين ويريد بتلك المكاشفة اطلاع أحد الطرفين المتحابين صاحبه وهو الطرف الآخر على جلية من أمره .

وحقيقة من سره ولذلك معنى مهاداة السر . بين متباطنين لأن المهاداة هنا تحصل بلسان الفهوانية وهو غير لسان العلم أو لسان الإلهام وإنما هو لسان أعمق وهو لسان الفطرة الأصلية التلقائية أى لغة السر للسر: سر العبد وهو خلاصة ذاته وسر الرب وهو بعض غيوب علمه وإذا بلغ هذا المقام من المعرفة أطلعه الرب على مالا عين رأته ولا أذن سمعته ولا خطر خطوراً سطحيا على قلب بشر والخطور من الخاطر والخاطر يقل ويكثر ويأتى ويغيب ولكن المكاشفة خالصة من تلك الشوائب وحينئذ يشاهد العبد ربه عند رفع حجب الاغيار بعين روحه وقلبه فيعبده كأنه يراه بعد أن كان يعبده فى مقام التقوى على حد أن الله يراه . وهذا معنى قول الشيخ وهى فى هذا الباب (المكاشفة) بلغ بلوغ ما وراء الحجاب وجودا وقد احترز بهذا من بلوغ ما وراء الحجاب سماعا أو علما وأين العلم بالحقيقة من شهود وجودها بالفعل ثم قال الشيخ وهى على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : أنها مكاشفة تدل على التحقيق الصحيح وهى لا تكون مستدامة إن كانت حينا دون حين ولم يعارضها تفرق غير أن الغين ربما شاب مقامه أى ربما شاب الغين وهو ما يغين على البصيرة من حجاب مقامه أى هذا المقام أما قوله مكاشفة تدل على التحقيق الصحيح فهو واضح وهى لا تكون مستدامة أى تلك المكاشفة إذا كانت أى متى كانت حينا دون حين إلا إذا لم يعارضها تفرق فيمنعها بالغيبة عنها ثم استأنف الشيخ بقوله غير أن الغين وهو مايغين على عين البصيرة : بصيرة القلب كما تقدم ربما شاب ذلك الغين هـــذا المقام مع الاعتراف بأنه أى هذا السالك قد بلغ مبلغا لا يلفته عن المكاشفة المستديمة أو الطارئة شىء حينا بعد حين ذلك لأنه بشر فإذا استدامت كان وقعها طابعا مستديما مانعا لها كلية وهذا نادر والمهم ألا يمنع أى السالك عن تلك المكاشفة مهما كان نوعها سبب أى سبب من الأسباب وليس هذا فقط بل ولا يقطعه عنها حظ من الحظوظ

وهى درجة القاصد أى وتلك درجة القاصد الصادق المجد على كل حال فإذا استدامت واستمرت ولم تنقطع حينا وتجىء حينا فهى الدرجة الثانية أى المكاشفة الحقيقية الخالصة المستمرة وما تتضمنه تلك المكاشفة الصحيحة من أسرار وهذا فى غالب الأمر قاصر على من عصمهم الله من الرسل والأنبياء فى الدرجة الأولى وربما كانت معارف لدنية وعلوم ربانية ومكاشفات غيبية يلقيها الرب سبحانه وتعالى فى قلب عبده الذى اصطفاه نبيا أو صديقا وبها يطلعه الله على أمور تخفى على غيره من العلماء والفهماء والعرفاء . هذا إذا كانت مستمرة وقد تتوارى تلك المواجيد الإلهية حينا بعد حين كما تقدم بالغين الذى يغشى قلبه وهو أرق الحجب وهو غير الران والغيم وتلك من أغلظ الحجب وأراد الشيخ بالغين وهو من لوازم البشرية التى لابد منها إلا إذا أراد المولى كشفه أو كشفه مستمرا وهذا الغين الذى هو من لوازم البشرية لا يعيب السالك الواصل ولا يزيل رتبته لأنه مع هذا الغين قد بلغ مبلغا لا يلفته أى عن مطلوبه وهو الله قاطع ولا يصرفه عنه سبب من الأسباب الدنيوية أو غيرها ولا يرده عن مطلوبه أى حظ .

ثم قال الشيخ وأما الدرجة الثالثة : فمكاشفة عين[١] لا مكاشفة علم وهى مكاشفة لا تذر سمة تشير إلى التذاذ أو تلجىء إلى توقف أو تنزل إلى رسم ثم قال الشيخ وغاية هذه المكاشفة المشاهدة .

ومعنى قول الشيخ فى هذه الدرجة أنها مكاشفة عين لا مكاشفة علم أى مكاشفة شهود يقين بعين اليقين أو بحقه وليس بعلمه وتلك المكاشفة ضرورة لا تذر أى لا تدع سمة أى علامة تشير إلى التذاذ فى النفس لأن صاحبها أى صاحب هذه الدرجة غائب عن نفسه بشهود ربه وهى أيضاً

(١) ويريد الشيخ بالعين . العيان وهذا بعض ما قد نأخذه عليه واستبدال العيان بالعين لأن العيان هنا بالروح وليس معاينة عين باصرة ولكننا بشر قد نخطىء ونصيب على كل حال وعلى هذا وذاك فالأجر ثابت .

لا تلجىء إلى توقف يحدث من رؤية الاغيار أو التعلق بها وهذا قد فنى عن الاغيار وعن نفسه فلا تنزل به حالة ضروزة إلى رسم من الرسوم إذا بلغ مثل هذا الحال والرسوم ظلال الحقائق فى عالم الإمكان ثم قال الشيخ وغاية هذه المكاشفة التى نحن بصددها المشاهدة .

ولنا فى هذا الباب شعر يدل عليه :

يا غراما عز عن فهم الورى وسما بالنفس فوق الأنفس
أن تمتنى بعلو قدرى فى الهوى أو فكن الروح خلا مؤنس
هيج الأشواق صوت هامس فى صميم الغيب أجرى أدمعى
حيث سهم الحب يثوى رائشا فى فؤادى الصب حتى الأضلع
بات حى فى هواكم شغفا وفؤادى بالأمانى منزع
جدد الذكرى بريق وامض مثل لمع الصبح يمحو الغلسا
طار معه الفكر يبغى قبسا من هدى الأحباب نعم القبس

باب المشاهدة

قال الله تعالى (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .

ثم قال الشيخ المشاهدة سقوط الحجاب بتا وهى فوق المكاشفة لأن المكاشفة ولاية النعت وفيها شىء من بقايا الرسم والمشاهدة ولاية العين أو الذات وهى على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : مشاهدة معرفة تجرى فوق حدود العلم فى لوائح نور الوجود منيخة بفناء الجمع .

والدرجة الثانية : مشاهدة معاينة تقطع حبال الشواهد وتلبس نعوت القدس وتخرس ألسنة الإشارات .

والدرجة الثالثة : مشاهدة جمع تجذب إلى عين الجمع مالكة لصحة الوارد راكبة بحر الوجود .

وشاهد الشيخ فى الآية إثبات وجود القلب واستعداده للتلقى من الله والقاء سمعه أيضا وهو شهيد لما يلقى أى مشاهد لما يلقى فيه من أنوار الحق وتجلياته وقال الشيخ المشاهدة سقوط الحجاب بتا وهى فوق المكاشفة لأن المكاشفة ولاية النعت وفيها شيء من بقايا الرسم . والمشاهدة ولاية العين أوالذات أماقوله المشاهدة سقوط الحجاب بتا أى كلية وهو فوق المكاشفة وذلك لأن المكاشفة أولا تأتى حينا وتنقطع حينا وثانيا فإن المكاشفة تتعلق بالصفات دون الذات ولذلك قال الشيخ لأن المكاشفة ولاية النعت وفيها شيء من بقايا الرسم وذلك ضرورى لوجود المكاشف بإزاء المكاشفة فالمكاشف حينئذ مع رسمه أى نفسه موضوعا لاذاتا . وتلك هى بقايا الرسم فى المكاشف . وأما المشاهدة ففضلا عن دوامها فإنها كما يقول الشيخ ولاية العين أو الذات ويريد بتلك الولاية مشاهدة الذات عيانا(١) لا النعوت وصفا .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه وهى على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : مشاهدة معرفة تجرى فوق حدود العلم فى لوائح نور الوجود منيخة بفناء الجمع ، وبما أن المشاهدة من لوازم اليقين وقوته فى عينه أو فى حقه فهى ارتفاع عما يوجبه العلم أى الوصف فى مثل هذا المقام من حجب مانعة لمعاينة الحقيقة فالمكاشفة تتعلق بالصفات الإلهية فولايتها ولاية نعوت تأتى عن طريق العلم باليقين ثم حصول عين اليقين إذا قوى واشتد الحال فعند ذلك فلقد كوشف فى صاحبه بما لم يكن يعلمه فى محيط

(١) قوله عيانا : يفيد المعاينة ، والمعاينة للذات بالعين فى الدنيا ممتنعة قاطبة وأما المعاينة بالروح فربما تحصل مع استحالة أن يحيط المخلوق بذات خالقه بتاتا .

العلوم . وأما شهود الذات ـ ومايتعلق بذلك من مقاربة وزيادة انكشاف فإنه للشهود الكاشف للذات أولا ثم للنعوت ثانيا .

والمراد هنا بشهود الذات شهود نورالذات ـ لاشهود إحاطة وشمول ـ المندرج فى قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) ولهذا كانت المشاهدة فوق المكاشفة وأكمل منها وأدوم والفرق بين ولاية النعت أى الوصف وولاية العين أو الذات ظاهر جدا لأن من يشاهد الصفات لابد له أن يشاهد ماتتعلق به من أغيار فمن شاهد القدرة مثلا شاهد متعلقها وملزومها وهو المقدور ومن كوشف بعظمة العلم علم الله وشموله لكل معلوم فى الوجود شاهد معه المعلومات الموجودة والتى يشملها العلم وهكذا بخلاف من خصص نظره القلبى على شهود الذات وشاهد بحق اليقين أزليتها وبقاءها وانفرادها بالوجود الحقيق دون مبدعاتها وأسبابها ومسبباتها إلى آخره فهو مشاهد للعين والأول مكاشف بعظمة الصفات فالأول فى جمع وفرق والثانى فى جمع خالص فمن استغرق قلبه فى مثل ذلك الشهود استحق اسم المشاهد وانطبقت عليه صفة المشاهدة ذلك إذا غاب عن إدراك رسمه وكل ماعنده من علم أو عمل أو حال وذلك يكون ضرورة عندما تفاجئه لوائح نور الوجود الحق فتنيخ(١) ركائبه الى تحمله فى طريق السلوك إلى فناء الجمع المطلق ، والفرق بين العلم والمعرفة عند القوم أن العلم مجرد إدراك المعلوم أو بعضه بصفاته ولوازمه التى تلزم عنه وأما المعرفة فإنها إحاطة كاملة بعين الشىء على ماهو عليه فلاريب فى أن تكون المعرفة فوق العلم على هذا الاعتبار ومعنى الوجود عند الشيخ الوجود المطلق وهو حضرة الجمع ويسمى أيضا حضرة الوجود .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : والدرجة الثانية : مشاهدة معاينة تقطع حبال الشواهد وتلبس نعوت القدس وتخرس ألسنة الإشارات .

---

(١) والأناخة هنا مأخوذة من أناخ الرجل بعيره فى فناء الدار .

أما قول الشيخ مشاهدة معاينة تقطع حبال الشواهد أى تسقط عنها الشواهد المجموعة من عالم الرسوم وهو عالم الامكان فتسقط الشواهد لأن صاحب هذا المقام يرى الأسباب تصدر عن ذات واحد متقدم وجوده على وجودها حالا وذوقا فهو فى هذا المقام غير محتاج لشواهد الرسوم لتمكنه فى مقام المشاهدة ولأنه أيضا قد تطهر من نعوت النفس وأوصافها المباينة لمقصده فأسقط رسوم نفسه بعدما أسقط رسوم سواه من الكائنات الممكنة فلبس حينئذ نعوت القدس وتطهر من الالتفات إلى غير مشهوده الأعظم وفنت أيضا اشاراته التى كانت له حينما كان فى حال المكاشفة المحتاجة لاشارات ودلائل كونية وقلبية وخير المقام السابق وهنا قدسكن قلبه ولسانه عن الاشارة لأن الإشارة وإن كانت لائقة بحال المكاشفة فانها تسقط جميعا فى حال المشاهدة لأن معرفة العارف حينئذ تكون منبثقه عن لوائح نور الوجود الأول وهو الوجود الحق .

ثم قال الشيخ والدرجة الثالثة : مشاهدة جمع تجذب إلى عين الجمع مالكة لصحة الورود راكبة بحر الوجود وهذه درجه أعلى فى حال المشاهدة وان المشاهد هنا أصبح فى عين الجمع الذى عبر عنه الشيخ بحضرة الوجود فهو متمكن فى حاله وفى مقامه وحينئذ تتوارد عليه أنواع المعارف والمكاشفات لأن مشاهدته تصبح مالكة لصحة الورود كما يقول الشيخ أى ورود — وردها مورد حضرة الجمع وكذلك يشهد الوجود الامكانى كله لها بصدق ذلك الشهود المطابق لحقيقة الأمر الواقع وهو مقام فى الشهود وأرقى من سابقه .

وهنا أمر يجب علينا أن ننبه عليه وهو الفرق بين هذا الشهود وبين الاتحاد الذى يحتمه مذهب وحده الوجود صاحبه إن الوجود الإمكانى الوجود الوجوبى أى وجود الحادث ووجود القديم أصبحا شيئا واحدا وهذا خطأ ينفيه أن الله أحد صمد لا يشبه شيئا ولا يشبهه شىء ولا يمازج

شيئا ولا يمازجه شيء من الأشياء التي يحتويها الوجود الإمكاني ومن القواعد الثابته أن الجزء لايحيط بالكل الكوني[١] وهذا أيضا ماينفي وجود الحلول أي حلول الحقيقة الإلهية في عامة الكائنات الثلاثة الجماد ، والنبات ، والحيوان (والإنسان طبعا) وحسبنا في هذا المقام قوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) .

وبهذا وذاك يكون مذهب وحدة الوجود وما يقتضيه من حلول أو اتحاد خطأ محضا .

والمراد لنا وللشيخ وحدة الشهود : شهود الحقيقة لا وحدة الوجود وبقسميه : الوجوبي وبعبارة أخرى القديم والحادث والله في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته منزه عن ذلك كله ويعلو بكماله عن مثل هذا الخلط علوا كبيراً .

وأنشدوا في معنى المشاهدة شعرا :

ظهر الوجود الحق في الأشيا ... ء متجليا[٢] جهرا بغير خفاء
إن الوجود عن البصائر غائب ... من حيث ماهو ظاهر الرائي
والفيء يكشف أن ثمة شاخصا ... متحكما فيه بغير مراء
فرأيته من حيث لاتعلم به ... وعلمته من رتبة الأسماء
والشمس تستطع لرؤية ذاتها ... لتألق فيها وفرط ضياء

وأنشدوا في هذا المعنى أيضا بيتين من الشعر :

ولي في خيال الظل أكبر عبرة ... لمن هو في علم الحقيقة راقي
شخوص وأشكال تمر وتنقضي ... وتفنى سريعا والمحرك باقي

---

(١) وليس معنى الجزء هنا أنه جزء من الذات ولكنه جزء من ابداعه وفعله والمقصود بالكل هنا الإحاطة والاطلاق ويظل الذات الالهي بعيدا من معنى الكلية والجزئية المفهومين في الأشياء .
(٢) والتجلي : نور تتجلى به الذات وهو غير الحلول أو التوحد مع الحادث الفاني.

باب المعاينة

قال الله تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل)

ثم قال الشيخ المعاينة ثلاث إحداها : معاينة الأبصار والثانية معاينة عين القلب وهى معرفة الشىء على نعته علما يقطع الريبة ولايشوبه حيرة وهذه معاينة بشواهد العلم ، والثالثة معاينة بعين الروح وهى التى تعاين الحق عيانا محضاوالأرواح إنما ظهرت وا كرمت بالبقاء لتعاين ثناء الحضرة وتشاهدبها العزة وتجذب القلوب إلىفناء الحضرة(قال الشيخ الحضرةومراده حضرة الحق) .

أما قول الشيخ المعاينة ثلاث أى أنواع أحداها معاينة الأبصار بالمبصر والثانيةمعاينة عين القلب وهىمعرفة عين الشىء على نعته علما يقطع الريبة ولا تشوبه حيرة . والثالثة معاينة عين الروح وهى التى تعاين الحق عيانا محضا وتجذب القلوب إلى فناء الحضرة .

أما معاينة الأبصار فهى معلومه لأنها المعاينة الحسية وهى كم مشترك بين جميع المبصرين بأعينهم . وأما الثانية فهىمعاينة عين القلب وهذه مختصة بأهل المعرفة القلبية الذاتية وهى خصيصة للعارفين من أهل طريق الله ومن أقوالهم فى هذا(إن القلوب لها عيون : ترى مالايراه الناظرون) .

وفى هذا الكتاب فى أكثر مايهدف إليه خاص بمثل تلك المعرفة هى المعاينة القلبية أو معرفة عين الشىء على نعته أى على صفته الحقيقية بحيث يكون هذاالعلم قاطعا لكل ريبة ولا تشوبه أى حيرةوهو أمر معلوم لأهل طريق الله .

ثم قال الشيخ والثالثة معاينة عين الروح وهى التى تعاين الحق عيانا محضا خالصا لاحدود له والروح الإنسانية لمعة أو ومضة من الروح الالهى

المطلق وهى النور (نور السموات والأرض) الذى قامت به كل حياة فى الوجود الإمكانى فلا بدع أن تعاين الحق عيانا محضا فى الدنيا فضلا عن الآخرة لأنها قبس من نوره الذاتى ويدل عليه قوله تعالى (قل الروح من أمر ربى) أى من شئونه (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أى ولكن ما أوتيتم من العلم هو قليل بالنسبة لعلم الله تعالى .

ثم قال الشيخ والأرواح إنما طهرت وأكرمت بالبقاء لتعاين ثناء الحضرة وتشاهد بهاء العزة تجليها وتجذب القلوب إلى فناء الحضرة أى حضرة الحق أما قوله والارواح إنما طهرت واكرمت لأن الروح طاهرة بفطرتها وبالرجوع إلى أصلها الطاهر المقدس تزداد طهارة وتخلصا من الاغيار وقد أكرمها الله بالبقاء لأن الازل نبعها والأبد مآلها ولهذا وذلك فهى تعاين سنا الحضرة دون حجاب إلا ماتقتضيه الرسوم : رسوم المظاهر الكونية فاذا أزيلت عن الروح تلك الحجب التى كانت تحجبها عن نبعها الاقدس فإنها تشاهد حينئذ بهاء العزة الإلهية فهى ليست غريبة عنها وكذلك تجذب القلوب لأنها سرها ومددها وقوله إلى فناء الحضرة أى حضرة الحق عز وجل لأن الروح تقوم بها كل القوى فى الإنسان القوة الباصرة والقوة السامعة والقوة العاقلة والقوة الباصرة حدثا والهاما بعين القلب والروح وحدة غيبية آلهية فلا مناخ لها إلا فى فناء الحقيقة وإن كان بها تقوم الحياة وبها يقوم البصر والبصيرة القلبية والمنطق العقلى والادراك الحسى جميعا وإنما إذا جردت من تلك العلائق كلها فهى أمر إلهى غيبى لم يصل العلم بعد القديم والحديث إلى ادراك كنهه وقد يطلق على الروح أيضا اسم النفس حينا واسم القلب حينا فهى الروح باعتبار مبدئها الإلهى وهى القلب باعتبار بصرها القلبى (إنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلب التى فى الصدور) وهى أيضا النفس باعتبار تعلقها فى الجسد وتدبيرها له ولذلك مدح الله الروح مطلقا وأما النفس فمدحها حينا وذمها حينا آخر فهى تمدح إذا ارتفعت بغرائز الجسد عن جبلة الطينة وحولتها إلى مطالب سامية وقيم خلقية من لون الروح وتذم إذا تأثرت بمطالب

الجسد وخضعت لتلك المطالب فطبعا تذم وفى مثل هذا المعنى وذاك يقول الشاعر الالمعى :

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمتـــه
وتطلب الربح ممـــا فيه خسران
فاقبل على النفس واستكمل فضائلها
فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وأنشدوا هذا البيت أيضا :

وجودى أن أغيب عن الوجود لمـا يبدو على من الشهـــود

باب الحياة

قال الله تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه) .

ثم قال الشيخ اسم الحياة فى هذا الباب يشار به إلى ثلاثة أشياء :

الحياة الأولى حياة العلم من موت الجهل ولها ثلاثة أنفاس نفس الخوف ونفس الرجاء ونفس المحبة والحياة الثانية حياة الجمع من موت التفرقة ولها ثلاثة أنفاس نفس الاضطرار ونفس الافتقار ونفس الافتخار .

والحياة الثالثة : حياة الوجود وهى حياة الحق ولها ثلاثة أنفاس نفس الهيبة وهو يميت الاعتلال ونفس الوجود وهو يمنع الانفصال ونفس الانفراد وهو يورث الاتصال وليس وراء ذلك ملحظ للنظارة ولا طاقة للإشارة .

أما شاهد الشيخ فى الآية التى افتتح بها الباب فظاهر وفقط المراد بالحياة هنا حياة القلوب وإلا فكم فى الأحياء الذين يعيشون على الأرض من موتى وهم أحياء عرفا ولذلك قال الشيخ فى تعريفه للحياة : إن اسم الحياة

فى هذا الباب يشار به إلى ثلاثة أشياء : الحياة الأولى حياة العلم من موت الجهل ولها ثلاث أنفاس : نفس الخوف ونفس الرجاء ونفس المحبـــة . أما قوله اسم الحياة فى هذا الباب يريد به شيئا غير الحياة المعروفة فى النبات والحيوان والإنسان وإنما يريد حياة القلوب ولذا قال الحياة الأولى حياة العلم من موت الجهل فالقلب له بالعلم حياة وله بالجهل موت معنوى ولاسيما العلم بالله العلم بالطريق المؤدى إليه فالعلم بهذا المعنى الذى يحفز إليه الإيمان هو المقصود للشيخ وهذا المعنى ضمنه الشاعر فى شطر من بيت حينما قال :

(الناس موتى وأهل العـــلم أحياء)

ومن كلام لقمان لابنه فى هذا المعنى نفسه (يابنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحي القلوب بنور الحكمة كما يحي الأرض بوابل القطار) وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومذاكراته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة لأنه مبين لمعالم الحلال والحرام ومنار سبل أهل الجنة وهو الأنيس فى الوحدة والصاحب فى الغربة والمحدث فى الخلوة والدليل على السراء والضراء والسلاح على الأعداء والود عند الأخلاء يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة وأئمة تقتص آثارهم ويقتدى بأفعالهم وينتهى إلى رأيهم ، ترغب الملائكة فى خلتهم وبأجنحتهم تمسحهم ويستغفر لهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه لأن العلم حياة القلوب من الجهل ومصابيح الأبصار من الظلم ويبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة والتفكر فيه يعدل الصيام ومدارسته تعدل القيام به توصل الأرحام وبه يعرف الحلال من الحرام وفى الجهل يقول الشاعر الحكيم .

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله   وأجسادهم قبل القبور قبـــور

وأرواحهم فى وحشة من جسومهم　　فليس لهم حتى النشور نشور

ويقول آخر فى معنى الحياة مع الجهل :

نهارك يامغروك سهو وغفلة　　وليلك نوم والردى لك لازم
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى　　كما غر باللذات فى النوم حالم

وحسبنا فى هذا المعنى قول الشاعر الثالث :

ليس من مات فاستراح بميت　　إنما الميت ميت الأحياء

فالرجل الذى يحيا الحياة الحقيقية يخشى دائما موت قلبه لا بدنه إذ أكثر الغافلين يخافون موت أبدانهم ولا يبالون بموت قلوبهم وقد قيل إن الموت موتان موت إرادى وموت طبيعى والموت الإرادى هو قمع شهوت النفس وتسكين نزواتها المتلفة فبهذا يتفرغ القلب والروح لخصائص الكمال وصفات الصالحين الأحياء فإذا عاش العبد كذلك ثم مات الموت الطبيعى كانت بعد موت جسده حياة روحه عامرة بالخير وبنتائج الأعمال الصالحة وإجمالا فان أكمل النفس حياة أكملهم علما ونفسا.

ثم قال الشيخ رضى الله عنه ولها أى لهذه الحياة ثلاثة أنفاس : نفس الخوف ، ونفس الرجاء ، ونفس المحبة والأنفاس هنا أنفاس معنوية ضرورة وهى تنفس عن القلب كدره وأو شابه المتأتية من جراء الجهل : أولها : نفس الخوف : أى الخوف من الله وهى التقى أو النقى وهو العلم بأن الله سبحانه وتعالى مطلع على سريرة الإنسان وما يجول فيها من خير وشر ثم نفس الرجاء فى الله بالنجاة مع متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من عند الله وهـذه المتابعة فى الخير والبر والطاعة تؤدى بصاحبها حتما إلى طريق المحبة ويدل على هذا قول الله تعالى (أفمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها)

الآية ، فالطاعة مؤدية إلى القرب وفى القرب يرى العبد منن الحق ويكون شهود تلك المنن مؤديا حتما إلى الحب وليس القرب المقصود هنا قرب مسافة أو مماسة بل هو القرب الحقيقى : قرب القلب من نور الرب . وفى ذلك حقيقة العبودية وسر السلوك وفيه أيضا معنى الوصول المصطلح عليه عند أهل طريق الله وفى هذا المعنى يقول الشاعر الصوفى :

لا كان من لسواك فيه بقية   يجد السبيل بها إليه العزل

وهذا معنى ماورد فى بعض الحديث القدسى من قوله الله عز وجل (من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا) الحديث .

وهذا نفسه مايعنيه الشيخ من قوله (نفس المحبة) فنفس الخوف أى خوف الذنوب مع استقامته بالطاعة يدعوه إلى الرجاء فى الله ويذكره بسعة مغفرته وعفوه فينتقل السالك من نفس الخوف إلى نفس الرجاء فإن حصل على هذا النفس وذكر عفو الله ورحمته وإحسانه وانعامه تنفس نفس الحب وفى هذا النفس حقيقة القرب لأنه أشرف أنفاس العبد على الاطلاق .

ثم قال الشيخ : والحياة الثانية حياة الجمع من موت التفرقة ولها ثلاثة أنفاس : نفس الاضطرار ونفس الافتقار ونفس الافتخار .

فنفس الاضطرار يحدث الانقطاع فى أهل العبد مما سوى الله فيلجأ إليه مضطرا بفكره وقلبه وعمل بدنه إلى ربه . وأما نفس الافتقار[1] فهو الباعث على ذلك الاضطرار إلى الله من ناحية وهو أعلى قمة فى الاضطرار من ناحية أخرى لأن الشعور بافتقار العبد إلى ربه يضطره إلى اللجوء إليه

(١) ومعنى الافتقار هنا : دوام انكسار القلب الى الله لافتقار العبد اليه سواء كان غنيا بالمال أو فقيرا وليس المراد بالافتقار الفقر المصطلح عليه فى عرف الناس .

من ناحية ويثبت ذلك الاضطرار فيجعله اضطرارا دائما من ناحية اخرى فإذا صح له ذلك انتقل إلى نفس الافتخار لأن نفس الاضطرار يذهب رؤية الخلق عن قلب السالك ونفس الافتقار يجعل قلبه متعلقا بربه وهذا وذاك مما يدعو إلى نفس الافتخار بربه لا بنفسه وذلك لحصول القرب والأنس بالرب فيتنفس تنفسا مفتخرا يجد به الروح والريحان والشيخ لا يريد بذلك الافتخار أن يتيه العبد افتخارا على بنى جنسه بل فقط يريد فرح العبد وابتهاجه بقربه من ربه وبفضل ربه عليه والله عزوجل يحب أن يرى أثر نعمته على عبده وبهذا الافتخار يقع معنى الشكر فهو افتخار بمنة الله ونعمته وليس افتخار العبد بنفسه .

ثم قال الشيخ والحياة الثالثة حياة الوجود وهى حياة بالحق وله أنفاس ثلاثة : نفس الهيبة وهو يميت الاعتلال لأن الهيبة للحق تدعو العبد إلى الاستقامة فينتفى الاعتلال ونفس الوجود وهو يمنع من الانفصال أى أن العبد يجد فى هذا النفس وجوده وجودا حقا يقوم بالحق ويهدى إليه فهو مانع لانفصال العبد عن طريق الرب ثم نفس الانفراد أى التفريد أى تفريد التوحيد فى الوجود الحق وهويورث الوصل ضرورة . ثم قال الشيخ وليس وراء ذلك ملحظ للنظارة ولا طاقة للإشارة أى ليس وراء ذلك ما يلحظه الناظر بالعقل ولا تصل إليه الإشارة باللغة أو بالعبارة فإن هذه الحياة الكائنة فى نفس الوجود هى حياة الواجد للحقيقة وهذا المقام نفسه ما أشار إليه الحديث القدسى فى بقية الحديث المتقدم (فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى) .

فإذا كان الله عز وجل هو سمع العبد فى هذا المقام وهو بصره فبه يسمع وبه يبصر إلى آخره فهنالك يسقط اللحظ والإشارة وتسقط معهما كل عبارة وهذا الذى يقصده الشيخ (بنفس الوجود) لأنه وجود للحق

بالحق ويريد به وجود العبد بربه فيتنفس به ويسمع به ويبصر به إلى آخره لأن هذا النفس يورث العبد الاتصال بربه بحيث لا يبقى له مراد فى غيره ولا إرادة لسواه .

وفى هذا المعنى أنشدوا شعرا :

لطيفة كوننا[1] لا تنسى عهدى	ويوم الست فاذكر ياحبيبى
وقد أعطيتنى عهـــدا وثيقا	وحفظ العهد من شيم اللبيب
ألم أجعلك سرا فى وجود	ونقطة دارة الأمر الغريب
ألم أظهر صـفاتى فيك جهرا	واستر ذاك بالجسم العجيب
وأنوار وأسرار تراهـــا	إذا ألقيت سمعك من قريب
إذا ناديت يارب استجب لى	ترى الأسرار تسرع من قريب
وليس إجابتى قولا ولـكن	يبذل الجهد فى طوع الحبيب

باب القبض

قال الله تعالى (ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا) .

ويقول الشيخ رضى الله عنه : القبض فى هذا الباب اسم يشار به إلى مقام الضنائن الذين ادخرهم الحق عز وجل اصطناعا لنفسه وهو على ثلاث فرق :

فرقة قبضهم الحق إليه قبض التوقى فأخفاهم عن أعين العالمين وفرقة قبضهم بسترهم فى لباس التلبيس وأسبل عليهم كلة الرسول فأخفاهم عن عيون العالمين وفرقة قبضهم منهم إليه فصافاهم مصافاة ســترفضن بهم عليهم .

(١) لطيفة كوننا : تعبر عن الإنسان لأنه أشرف ما فى الـكائنات .

وشاهد الشيخ فى الآية بقبض الظل الوارد فيها وتقلصه بعد سبوغه وامتداده وفى الآية يخبر الله سبحانه وتعالى أنه يبسط الظل ويمده ثم يقبضه بعد بسطه إليه قبضا يسيرا ولو شاء الله لجعله ساكنا .

فأخذ الشيخ هذا المعنى وصبه على القبض المراد بهذا الباب وهو الجذب[1] الحقيقى ولذا قال الشيخ القبض فى هذا الباب اسم يشار به إلى مقام الضنائن الذين أدخرهم الحق اصطناعا لنفسه والقبض فى اصطلاح القوم ينصب على — معنيين معنى يراد به القبض فى الأحوال وهو أمر يطرأ على القلب فيمنعه من الانبساط وهو مختص بأحوال القلوب وهو قبض تأديب وقبض تهذيب وهذا مايختص بالحال وفى المعنى الآخر قبض فرق فقبض التأديب يكون عقوبة على عقله أوخاطر سيء وقبض التهذيب يكون أعدادا لحال البسط الذى يأتى بعده وفى المعنى الثانى وهو قبض الجمع فهو ما يحصل للقلب حال جمعيته على الله ولذلك طريقان : طريق المجاهدة والرياضة وهو طريق السالكين والسائرين إلى الله وطريق القبض أو الواهب الجذب وهو طريق من اختصهم الله برحمته ومحبته من بادىء ذى بدء وهم من المحبوبين إليه ولذا كان فى طريق الله محب ومحبوب وطالب ومطلوب وسالك ومجذوب فالمحبوب أو المطلوب لابد من وصــــوله إلى الله أما بيد الامتنان وأما بعصا الابتلاء والامتحان وفى مثل هـذا الحال لايسع العبد إلا اللجوء إلى مولاه والإنابة إليه وبذا يستمر سلوكه .

وأما سلوك الطالب أو السالك بالطاعة والتقرب فبقدر كفاحه يعطى من قرب ربه فإن وقف قبض عن الطريق وهذا القبض هو قبض التفرقة فيتفرق قلبه عن الله وعن طريقه والعياذ بالله وإلى الأول أشار الشيخ بالقبض . . وقال القبض فى هـذا الباب اسم يشار به إلى مقام الضنائن

---

(١) ومعنى الجذبة هنا : الانجذاب إلى الله وقد يكون المرء فى هذا الحال من أحكم الحكماء وليس المراد به الجذب المعروف للعامة وبعض المتعلمين .

والضنائن جمع ضنينة وهى الخاصة الثمينة التى يضن بها صاحبها على غيره ويصطفيها لنفسه ولهذا قال الشيخ فى الضنائن الذين اختارهم الحق اصطناعاً لنفسه والادخار هنا افتعال من الذخر وهو ما يعده المرء لحوائجه الخاصة والاصطناع هنا بمعنى الاصطفاء والمقصود أن الله عز وجل حال بين هؤلاء الضنائن من عباده و بين التعلق بغيره ثم صرف قلوبهم وهممهم إليه .

وهم كما يقول الشيخ ثلاث فرق : فرقة قبضهم إليه قبض التوقى فضن بهم عن أعين العالمين ، ومعناه أنه حال بين هؤلاء الضنائن وبين التعلق بالخلق وصرف قلوبهم إليه وقاية لهم وضناً بهممهم وعزائمهم التى لا ينبغى أن تتوجه إلا إليه سبحانه وتعالى ، وقسمهم الشيخ إلى ثلاث فرق : فرقة قبضهم عن غيره و بسطهم اليه وقاية لهم وضناً بهم عن أعين العالمين وغيبهم عن أعين الناس ليصون أسرارهم عن غيره لنفسه فلم يطلع الناس على أحوالهم السنية وهممهم العلية ضناً بهم وأولئك أهل العزلة والانقطاع إلى الله عن الناس وقت فساد الزمان ولعلهم الذين قال فيهم النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث له (ورجل معتزل فى شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شر وهذا يحسن ويحمد فى بعض الأحوال لا فى جميعها وإلا فالصبر على أذى الناس والإحسان إليهم أفضل) ثم قال وفرقة قبضهم بسترهم فى لباس التلبيس وأسبل عليهم أكلة الرسوم فأخفاهم عن عيون العالم والكلة من معناها الستائر من كلل يكلل أى أسبل وستر والكلة فى العرف ما يطلق عليه الناس اصطلاحا (الناموسية) وتلك الفرقة من أحباب الله هم المخالطون للناس ظواهرهم دون بواطنهم لأن الله يستر حقائقهم وأحوالهم عن الخلق فالناس فى لبس من أمرهم أصالحون هم أم طالحون وغالباً ما تكون هذه الصفة من صفات أهل القوة الذين ذكرناهم فى غير موضع وخصوصاً فى باب الفتوة فهم يشاركون الناس فى لباسهم وأعمالهم وأنكحتهم بشرط ستر احوالهم مع الله متحلين بطلاقة الوجه وحسن العشرة فإذا نظر الناس إليهم قالوا إنهم من أبناء الدنيا وإذا رأوا ما هم فيه من مكارم الأخلاق وعلو الهمة وملازمه

الذكر والشكر رأوا أموراً ليست من أمور أبناء الدنيا وإنما هي من امور أبناء الآخرة فليتدبر بطبيعة الحال حالهم عليهم وهم يعيشون مع الناس مستورين عنهم بأسبابهم وملابساتهم دون أن يظهروا فيهم بأى إشارة تدل على حقائقهم وأولئك من أهل الرسوخ فى طريق الله وقد صانهم الله عن معرفة سواد الناس تكريماً لهم لئلا يفتتن الناس بهم فهم مع الناس بأبدانهم ومع الله بقلوبهم .

ثم قوله وأسبغ الله عليهم كلة الرسوم أى أجرى عليهم أحكام الخلق بحيث يساكنونهم ويعاشرونهم ويعاملونهم وهم مع ذلك بقلوبهم فى واد والناس فى واد آخر والذى سترهم عن الناس ومعرفة حقائقهم هو مشاركتهم للناس فى أعمالهم ومداخلهم ومخارجهم وهذا معنى قول الشيخ سترهم بكلة الرسوم والرسوم هى الأعمال والأسباب التى يقوم بها جميع الناس .

ثم قال الشيخ (وفرقة قبضهم منهم إليه فصفاهم مصافاة سر فضن بهم عليهم) وهذه الفرقة هى الأعلى مقاما من الفرقتين المتقدمتين وهو مقام أحبابه الذين سترهم عن نفوسهم فلا يرونها لكمال ما أطلعهم عليه وشغلهم به من حبه والاهتمام بإقبالهم عليه وإقباله عليهم فهم وإن كانوا فى أعلى المقامات فلا يلتفتون إلى مقاماتهم بل يتجاهلون قيمة أنفسهم لشـــهودهم عظمة ربهم وابتهاجهم بقربه فقلوبهم عامرة بالأسرار وأجسامهم خالصة عن الأغيار فهو بهذه الوسيلة أحبهم وحببهم فيه وسترهم عن أنفسهم وحتى عن مقامهم فى حضرته وذلك ليصافيهم كما يقول الشيخ مصافاة سر فيجعل مواجيدهم وأسرارهم ولطف مداركهم متجهة إليه وغارقة فى فضله وبهذه الوسيلة ضن بهم عليهم وأفناهم عن أنفسهم به فقبض قلوبهم إليه وجذب أرواحهم إلى معارج نفسه فهو قبض كريم من رب عظيم لقوم كرماء وقلوب عارفة ملأى بالصفاء .

وأنشدوا فى مثل هذا المعنى قولهم :

أيا من ليس لى منه — وإن عذبتنى بد
ويا من نال من قلبى — منالا ما له حد
كل شيء سوى ودكم — فقد ما ضرنى الفقد

وأنشدوا أيضاً هذا البيت :

أنا إن مت فالهوى حشو قلبى — وبداء الهوى تموت الكرام

باب البسط

قال الله تعالى (يذرؤكم فيه) ويقول الشيخ رضى الله عنه : البسط أن يرسل شواهد العبد فى مدارج العلم ويسبل على باطنه رداء الاختصاص وهم أهل التلبيس وإنما بسطوا فى ميدان البسط لأحد ثلاثة معانى لكل معنى طائفة : فطائفة بسطت رحمة للخلق يباسطونهم ويؤانسونهم فيستضىء الناس بنورهم والحقائق مجموعة والسرائر مصونة وطائفة بسطت لقوة معانيهم وتصميم مناظرهم لأنهم طائفة لا تخالج شواهد شهودهم ولا تفرق رياح الرسوم موجودهم فهم منبسطون فى قبضة القبض ، وطائفة بسطت أعلاماً على الطريق منهم أئمة الهدى ومصابيح السالكين .

ومعنى قول الشيخ أن البسط يرسل شواهد العبد فى مدارج العلم ويرسل من الإرسال أو الإدخال لعل هذا شاهد الشيخ من الآية (يذرؤكم فيه) بمعنى يدخلكم أى يدخل شواهد العبد من لمحات وبوارق إلهية تبدو له فى مدارج العلم إكمالا لحاله والشواهد من دأبها أن تكون فى مكان الوسط بين المعلوم والمشهود المعاين مع إسبال رداء الاختصاص على باطنه ومعنى الاختصاص هنا الاختصاص المشاهد بمعنى المشاهدة وهو مقام الذين خصهم الله بالشهود بعد العلم ، ثم قال الشيخ وهم أهل التلبيس أى أهل الفتوة الذين

يلبسون على الناس حالهم أي يخفوه ، قال وإنما بسطوا بميدان البسط أى الخارجين من حال القبض إلى ميدان البسط لأحد ثلاثة مقاصد ولكل معنى طائفة : فطائفة منهم وهم أهل الفتوة كما تقدم بسطوا رحمة للخلق يباسطونهم وهم يبطنون الانقباض بأحوالهم عنهم ويؤانسونهم بالتفنى عليهم أى إخفاء مكارمهم من صفات الفتوة على الخلق فيؤنسونهم ويباسطونهم ولذلك يسمى القوم أهل هـذه الطائفة والذين اختصموا بهـذا الحال (بالبهاليل) ومعنى البهلول الـكريم النفس واليد ويضاف إلى ذلك صـــفة النبل والعلو أيضاً فيستضئ الناس بنورهم أى والحال والحقائق مجموعة والسرائر مصونة والواو هنا للحال أى حالة أن حقائقهم مجموعة فى بواطنهم وسرائرهم النبيلة التى اختصوا بها مصونة فى سرائرهم الـكريمة التى ربما اخفوها على الناس وتظاهروا بالمباسطة وضروب المرح هذا فى الطائفة الأولى ثم قال الشيخ : وطائفة بسطت لقوة معاينتهم وتصميم مناظرهم أى خرجوا من حال القبض إلى حال البسط لما فى قلوبهم من معان قوية وأما قوله وتصحيح مناظرهم أى معارفهم المنظورة بأرواحهم وقلوبهم ثم قال لأنهم طائفة لا تخالف الشواهد مشهودهم والشواهد قدمنا أنها درجة بين العلم والمعاينة أى والشهود فتسقط عنهم الشواهد فلا تخالج مشهودهم أى ما يشاهدونه من الحقائق ثم قال ولا تفرق رياح الرسوم والرسوم ظلال الحقائق ومنها الشواهد موجودهم أى أن الشواهد المتأتية من تلك الرسوم لا تذهب رياحها موجودهم أى مواجيدهم من الحقائق (فهم منبسطون فى قبضة القبض) لكمالهم ورسوخهم وأكمل منهم ومن الطائفة الأولى الطائفة الثالثـة وهى طائفة الـكمل من أهل طريق الله وأولئك بسطوا أى بسطهم الله وأوجدهم أو أخصهم أعلاما على الطريق أئمة للهدى يروون من عطش ويدلون من استدل ويرشدون المسترشد إلى طريق الحق فأولئك كما يقول الشيخ أقيموا مصابيح للسالـكين يهتدون بهديهم إلى طريق الله المستقيم .

يسقى ويشرب لا يلهيه سكرته   عن النديم ولا يلهون عن الكاس
أطاعه سكره حتى تحكم فيـه   حال الصحاة وذا من أعجب الناس

باب السكر

قال الله تعالى حاكياً عن كليمه موسى عليه السلام (قال رب أرنى أنظر إليك) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : السكر فى هذا الباب اسم يشار به إلى سقوط التمالك فى الطرف وهذا من مقامات المحبين[1] خاصة فإن عيون الفناء لا تقبله ومنازل العلم لا تبلغه ثم قال وللسكر ثلاث علامات :

الأولى : الضيق عن الاشتغال بالخبر والتعظيم قائم واقتحام لجة الشوق والتمكن دائم .

والثانية : الغرق فى بحر السرور والصبر هائم وماسوى هذا وهى العلامة الثالثة لحيرة تنتحل اسم السكر جهلا أو هيمانا يسمى باسمه جورا قال وما سوى ذلك فكله يناقض البصائر كسكر الحرص وسكر الشهوة . وربما كان شاهد الشيخ فى الآية غيبة موسى لاندهاشه عن أنه لا يمكنه النظر إلى ربه بعينى رأسه ثم قال الشيخ رضى الله عنه السكر فى هذا الباب يشار به إلى سقوط التمالك فى الطرب أى إنه الحال التى لا يتمالك فيها الشخص تماسكه عن أن يطرب لما يشاهد وهذه الدرجة تسمى سكرا مجازا ثم قال وهذا من مقامات المحبين خاصة أى ليس من مقامات المحبوبين أو الكمل الذين زادهم الله بسطة فى العلم والمعرفة فانهم لتمكنهم يملكون أنفسهم فتمتنع عن أظهار الهيام أو الدهش اللذين قد يظهران بمظهر السكر[2] ولذلك قال

---

(١) وهو غير مقامات المحبوبين وقد بينا الفرق فيما مضى .

(٢) ويوضح ذلك ما حدث لأخوين فى الله حاله ذكر وتواجد ، فتواجد أحدهما وظل الآخر ساكنا ، فقال له صاحبه : أليس لك قلب (أى فتواجد) فتلا الآخر قول الله تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) .

الشيخ فإن عيون الفناء أى الفناء فى كمال المحبة لا نقبله لأن المندهش أو الهائم سكرا فيه بقية من وجود الرسم ثم قال ومنازل العلم لا تبلغه أى لا تقره ولا توافق عليه لأن العلم قرين الصحو فيكون ذلك أما عن الجهل وأما عن الدهش الذى يأخذ اسم السكر ولذا قال الشيخ واقتحام لجة الشوق والتمكن دائم أى دائم فى حال أهل الفناء فى الحب المتمكنين ففناؤهم أخذ منهم البقية من رسومهم ورعونتها من الهيام المسمى سكرا إلى الشهود بسبب الشوق الشديد والتمكن الدائم فى أحوالهم.

والعلامة الثانية : الفرق فى بحر السرور والصبر هائم وهذا حال المستعدين للفناء طلبا لشهود البقاء ولذا كان صبرهم هائما أى غير مستقر لشوقهم الشديد إلى المعاينة والتحقيق بدلا من الأخبار والشواهد .

ثم قال الشيخ وما سوى هذا من أنواع السكر وهى العلامة الثالثة فكلمة سكر تناقض البصائر لأنه ينحل صاحبه اسم السكر جهلا أو يكون هيمانا بشيء سوى الحقيقة يسمى باسمها حوارا كالدعوى وهذا كله مما يناقض البصائر أى بصائر العارفين فلا يطلقون عليه اسم السكر الحقيقى الذى يصطلحون عليه فى معارفهم ومثاله سكر الحرص وسكر الجهل وسكر الشهوة فهو سكر وهيمان فى حب الرسوم والأغيار لا فى سبيل حب الخالق — والمعانى الإلهية .

وأنشدوا فى هذا المعنى قولهم :

قم يا نديمى إلى المدامة واسقنا	خمرا تضيء برشفها الأرواح
أو ما ترى الساقى القدير يديرها	فكأنهـــا فى نورها مصباح
هى أسكرت فى الخلد آدم أولا	فكسته منها حـــلة ووشاح
وكذلك نوح فى السفينة أسكرته	فله بذاك أنين ونواح
وكذلك تجلت للمــكلم نورها	ألقى العصا وتكسرت ألواح

وكذلك عيسى فى هواها هائمـــا　　متولها فى حب [illegible]واح
ومحمد لما تجلت أمها　　فاختاره لشرابها [illegible]
فتشبهوا أن لم تكونوا مثلهم　　إن التشبه بالرجال فلاح

باب الصحو

قال الله تعالى (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق) :

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : الصحو فوق السكر وهو يناسب مقام البسط والصحو مقام صاعد عن الانتظار مغن عن الطلب طاهر من الحرج فإن السكر إنما هو فى الحق والصحو إنما هو بالحق وكل ما كان فى عين الحق لا يخلو عن حيرة لاحيرة الشبهة بل حيرة فى مشاهدة أنوار العزة وما كان بالحق لم يخل من صحة ولم يخف عليه من نقيصة ولم تتعاوره علة والصحو من منازل الحياة وأودية الجمع ولوائح الوجود .

ولعل شاهد الشيخ فى الآية التى استهل بها (الباب حتى إذا فزع عن قلوبهم)أى الدهش ثم ارتحل عنها صحوا من دهشهم (قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق) .

ثم قال الشيخ فى تعريف الصحو : الصحو فوق السكر وهو يناسب مقام البسط لأن البسط حضور فى الانبساط والسكر غيبة فهو إلى حال البسط أقرب ولذا قال الشيخ الصحو مقام صاعد عن الانتظار أى نازع إلى عدم الانتظار فى السكر لأنه صحو وهو مغن عن الطلب لأنه حال واقع موجود ومفارق لحال غيبه وهو حال السكر فلهذا ولذاك يكون الصحو طاهر أى متخلص من الحرج والطهارة هنا بمعنى الخلوص وسبب خلو الصحو من الحرج أن السكر كما يقول الشيخ إنما هو فى الحق أى كائن فى سبيل طلب الحق والصحو إنما هو بالحق وذلك هو الفارق بين كائن فى طلب الحق وكائن بالحق نفسه . وكل ما كان فى عين الحق أى فى سبيل طلب عين الحق لم

يخل عن حيرة ثم قال الشيخ لا حيرة الشبه بل حيرة فى مشاهدة أنوار العزة أى إنما هى حيرة فى طريق تحقيق المشاهدة لأنوار العزة ثم قال وما كان بالحق لم يخل من صحة وهذا تجوز من الشيخ وكان الأولى به أن يقول فهو صحيح بالضرورة بدليل قوله بعد ذلك ولم يخف عليه من نقيصة الشيء الذى لا تخشى عليه النقيصة يكون كاملا أو على الأقل صحيحا من جميع وجوهه وذلك بدليل قول الشيخ نفسه ولم تتعاوره علة أى لا تشوبه أو لا تخالطه علة ثم قال والصحو من منازل الحياة أى الحياة الالهية الخالصة — الكاملة — ومن أودية الجمع أى الجمع على الله بدليل قوله ولوائح الوجود أى الوجود الوجوبى وهو بخلاف الوجود الامكانى الزائل .

وأنشدوا :

لما رأيتك مشرقا فى ذاتى	بدلت من حالى ذميم صفاتى
وتوجهت أسرار فكرى سجدا	لمت محاسنها جميع شتاتى
وبلورت أحوالى فصرت معبرا	فى الصحو عن سكرى بصدق نياتى
وتحولت أحوال سرى فى العلا	أفنيت عن محو وعن اثبات
وحدت صفتى فرحت مروحا	نظرا لما أشهدت من آياتى

باب الاتصال

قال الله تعالى « ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى »

ثم قال الشيخ رضى الله عنه والاتصال على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : اتصال الاعتصام ثم اتصال الشهود ثم اتصال الوجود فاتصال الاعتصام تصحيح القصد ثم تصفية الإرادة ثم تحقيق الحال .

والدرجة الثانية : اتصال الشهود وهو الخلاص مع الاعتلال والغنى عن الاستدلال وسقوط شتات الأسرار .

والدرجة الثالثة : اتصال الوجود وهذا الاتصال لا يدرك منه نعت ولا مقدار إلا اسم معار ولمح إليه مشار .

هذا ويقول الشيخ فى معنى الآية التى صدر بها باب الاتصال أيأس العقول وقطع البحث بقوله (أو أدنى) أى وصف القرآن وهو كلام الله تعالى حيث وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه دنا فتدلى أى بلغ أعلى مبالغ القرب فكان قاب قوسين أو أدنى يريد الشيخ أن يقول بأن القرآن فى نص هذه الآية قد أيأس العقول عن أن تصل إلى ذلك الأفق من الرفعة الروحية فقطع البحث أى السبيل على البحث العقلى الذى لا يمكنه بوسائله الخاصة ومنطقة المعلوم أن يحوم حول مثل تلك الآفاق فضلا عن الوصول إليها ثم قال والاتصال على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى اتصال الاعتصام وهو التمسك بالكتاب والسنة والعمل بما تهدى إليه من هدى للعمل الصالح وقال ثم اتصال الشهود ومعناه اتصال شهود العبد لعظمة الرب ولخصائصه التى لا يشاركه فيها غيره . وقال الشيخ ثم اتصال الوجود ومعناه التحقق بالوجود الحق الخالد الدائم بالأعراض عن الاغترار بالوجود الظاهر الفانى وأن خدعت بعض العقول بظواهره ومظاهره ثم بين الشيخ معنى الاعتصام وجعله بتصحيح القصد ويريد قصد وجه الله فى العلم وفى العمل ثم تصفية الإرادة — بتفريدها لهذا القصد دون غيره بحيث لا تنثنى عنه بغرض من الأغراض الزائلة أو بقيمة من القيم الفانية وقال ثم تحقيق الحال أى بألا يكون هذا مجرد علم وإنما يكون بالتطبيق تطبيق العلم على العمل وتطبيق المقام على الحال .

ثم قال الشيخ والدرجة الثانية : اتصال الشهود أى بعد ذلك الاعتصام

والخلوص . ثم عرف اتصال الشهود كيف يكون فقال هو الخلاص من الاعتدال أى من العلل المانعة لذلك الشهود ثم قال والغنى من الاستدلال أى عدم الابتداء مثل الابتداء من رجع . ثم أراد أن يعود ثانية مبتدأ من جديد وبالخلاص من الاعتلال والغنى عن الاستدلال أى الرجوع يحدث ضرورة سقوط شتات الأسرار أى تشتتها أى تشتت السر وهو عين القلب أيدى سبا بواسطة الاعتلال وتوزع النفس حول العديد من المطالب التى لا تنجى ولا تدوم والانشغال بها عن المطلب الحق وهو الاعتصام لتصحيح المقصد الأعلى .

ثم قال والدرجة الثالثة : اتصال الوجود اى التمكين فى الاتصال بالوجود الحق الدائم الخالد وقد وصف الشيخ هذا الاتصال وذلك التمكن بقوله إنه اتصال لا يدرك منه نعت أى لا يوصف لأنه فوق الإشارة والعبارة ولا المقدار أى ولا يدرك له مقدار لأنه مطلق وفوق كل تقدير وتقسيم ثم استثنى الشيخ فقال إلا اسم معار أى عدا شىء واحد هو التسمية باسم الوجود لأن الوجود المطلق لله وحده واستثنى اللمح أيضاً أى لمح هذا الوجود المطلق بنور البصيرة يريد أن هذا الاتصال لايدرك منه إلا الاسم وإلا أن يلمح بنور البصيرة فيشار إليه بشواهد معنوية مجردة عن الحس والمحسات .

وأنشدوا

يا غائبا والحق فيه حاضر	أتغيب عنه وما شهدت سواه
من لم يشاهد بالبصيرة ذاته	فلقد أحاط به حجاب عماه
من لا يرى فى كل حال غيره	فمن المحال عليه أن ينساه
من كان فى الملكوت يسرى فكره	فالفوز بالحسنى ثواب تراه
سبحان من خرق الحجاب لبعده	وهداه منهم قصده فرآه

سبحان من ملأ الوجود أدلة ليلوح ما أخفى بما أبداه
سبحان من لو لم تلح أنواره لم تعرف الأضداد والأشباه

باب الانفصال

قال الله تعالى « ويحذركم الله نفسه » .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه ليس من المقامات شىء فيه من التفاوت ما فى الانفصال ووجوهه ثلاثة .

الأول : الانفصال هو شرط الاتصال وهو الانفصال عن الكونين بانفصال نظرك إليها وانفصال توقفك عليهما وانفصال مبالاتك بهما .

والثانى : انفصال عن رؤية الانفصال الذى ذكرنا وهو ألا يتراءى عندك فى شهود التحقيق شىء يوصل بالانفصال منهما إلى شىء .

والثالث : انفصال عن الاتصال وهو انفصال عن شهود مزاحمه والاتصال عن السبق فإن الاتصال والانفصال على عظم تفاوتهما فى الاسم والرسم فى العلة سيان .

ولعل شاهد الشيخ فى الآية : التحذير مما يوجب الفتنة أو الاستدراج للسالكين فى طريق الله ، ثم قال الشيخ ليس من المقامات شىء فيه من التفاوت ما فى الانفصال ويريد بذلك التعجب من هذا التفاوت بجعل الانفصال سبباً للاتصال وهو ماسيبينه فى الأوجه الثلاثة التى عددها فى بيان هذا الباب حيث قال ووجوهه ثلاثة .

الأول : الانفصال هو شرط الاتصال وهو الانفصال عن الكونين انفصال نظرك إليهما توقفك عليهما وانفصال مبالاتك بهما وفى قوله

(الانفصال هو شرط الاتصال) موضع تعجبه من هذا التفاوت الذى يجعل الانفصال سبباً فى الاتصال مع أنه نقيضه ولكن له فى ذلك وجه معقول وهو قوله الانفصال عن الكونين والكونين : الدنيا والآخرة فمن أراد الصدق فى الاتصال بالله وبجنته العظمى من المعرفة ألا يرى فى سبيل هذا الاتصال من شئون الدنيا أو شئون الآخرة سبباً يعوق هذا الاتصال ولو كان السبب العمل للآخرة ومفهوم أن الانشغال بالدنيا معوق عن ذلك الاتصال فلينفصل قلب الطالب عن التعلق بأسباب الدنيا وأن اشتغل بها فى سبيل واجب المعاش بحواسه وعقله .

وأما أسباب الآخرة فهى فى هذا المقام عائق أيضا عن ذلك الاتصال لأن طالب الآخرة مغاير فى قصده ضرورة لطالب وجه الله فإن طالب الآخرة يطلبها حبا فى الثواب وفراراً من العقاب وطالب وجه الله منفصل تماما عن التعليق بأسباب الدنيا أو بأسباب الآخرة . وأن عمل لهما اتباعا لشرع الله تعالى ولكن مقصده فى هذا العمل وجه الله وحسب وهو سبب الاتصال المنشود فكان سبب اتصاله بالله انفصاله عن كل سبب آخر ودل على ذلك بقوله « وهو الانفصال عن الكونين بانفصال نظرك إليهما » وليس هذا فقط وإنما قال وانفصال توقفك عليهما وفيه معنى التعلق بهما ولذا قال (انفصال مبالاتك بهما) .

ثم قال والثانى : أى الوجه الثانى : رؤية الانفصال الذى ذكرنا ويريد أن يقول أن تنفصل عن ذلك الانفصال لأن نظرك إليه واعتدادك به فيه من رؤية النفس مافيه والمراد الانفصال عن الكونين ومافيهما من سبب نفسى أودنيوى أو اخروى ثم عقب بقوله وهو ذلك الانفصال ألا يتراءى عندك فى شهود التحقيق شىء يوصل بالانفصال إلى شىء منهما أى أن انفصالك عنهم يجب أن يخلو بتاتا من أى حال كرؤية انفصالك واتصالك لأن

الانفصال لم يحدث منك بل هو توجيه من الله وكذلك الباعث على الاتصال بالله إنما كان من منن الله عليك وليس لك فى كلا الحالين من فعل أفضل على أن الاتصال والانفصال هاهنا أمور نفسية ذاتية ليست من الامور الحسية ولا علاقة لهما بالاعمال كالطاعة والمعصيه الواقعة بالفعل كاتصال شىء بشىء أو انفصال شىء عن شىء وإنما الاتصال هنا والانفصال أولا هما أمران نفسيان ذاتيان خارجان عن الاتصال والانفصال اللذين تقع عليهما الرؤية الحسية فلا يزاحمان بالوهم الذى يوهم وجود سبب غير الغاية الالهية يوصل شيئا بشىء أو يفصل شيئا عن شىء وهذا معنى قوله وهو ألا يتراءى عندك فى شهود التحقيق شىء يوصل بالانفصال منهما إلى شىء .

ثم قال الشيخ والثالث أى الوجه الثالث : انفصال عن الاتصال وهو انفصال عن شهود مزاحمة الاتصال عن السبق من رؤية شىء منهما بنفسك أو لنفسك فتزاحم بذلك الحقيقة وهى عين السبق فى الازل أى سبق فعل الله وأن اتصالك به كان صادرا عنه وبه وليس منك ولا بك فإن الاتصال والانفصال هنا أمران اعتباريان ولذا كان كما يقول الشيخ (على عظم تفاوتهما فى الاسم والرسم فى العلة سيان) لانهما أمران اعتباريان يعبر عنهما بالمجاز لمجرد البيان فى التحقيق لا لمجرد الوقوع فى الكيان الحسى فإن أدخلت نفسك فى الانفصال عن الأسباب الدنيوية والأخرية للاتصال بحسبهما فقد أدخلت الوهم على نفسك وهضمت حق المشيئة الأزلية فى تقريبك بانفصالك عما يشغل قلبك عن الله أو اتصالك بالوسائل المقوية إلى الله فإن ذلك يكون كما يقول الشيخ مزاحمـــه الاتصال لعين السبق الأزلى بما فى علم الله من منن هيأها لك .

وأنشدوا :

يبكى إذا برق الحمى وهنا سرى متألقــــا
ريح الصبـــا مرت على تلك الربى فاستنشقـــا

يفنى الزمان ودمعـــه في حبـــكم ماقد رقى
إن مات دون وصالـــكم فلـــكم إذن طول البقـــا

* * *

(القسم العاشر : قسم النهايات وهو عشرة أبواب)

باب المعرفة ، باب الفناء ، باب البقاء ، وباب التحقيق ، وباب التلبيس ، باب الوجود ، باب التجريد ، باب التفريد ، باب الجمع ، باب التوحيد .

باب المعرفة

قال الله تعالى : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه المعرفة إحاطة بعين الشيء كما هو وهى على ثلاث درجات والخلق فيها على ثلاث فرق .

الدرجة الأولى: معرفة الصفات والنعوت وقد وردت أساميها بالرسالة وظهرت شواهدها فى الصبغة بتبصير النور القائم فى السر وطيب حياة العقل وذريعه الفكر وحياة القلب ويحسن النظر بين التعظيم وحسن الاعتبار وهى معرفة العامة لاتنعقد شرائط اليقين إلابها وهى على ثلاثة أركان .

أحدها إثبات الصفة باسمها من غير تشبيه ، ونفى التشبيه عنها من غير تعطيل والأياس من إدراك كنهها وابتغاء تأويلها ثم قال والدرجة الثانية معرفة الذات مع اسقاط التفريق بين الصفات والذات وهى تثبت بعلم الجمع وتصفو فى ميدان الفناء — وتستكمل بعلم البقاء وتشارف بعين الجمع وهى على ثلاثة أركان .

إرسال الصفات على الشواهد وإرسال الوسائط على المدارج وإرسال العبارات على المعالم وهى معرفة الخاصة التى تؤنس من أفق الحقيقة .

ثم قال والدرجة الثالثة : معرفة مستغرقة فى محض التعريف لا يوصل إليها الاستدلال ولا يدل عليها شاهد ولا تستحقها وسيلة وهى على ثلاثة أركان :

مشاهدة القلوب والصعود عن العلم ومطالعة الجمع وهى معرفة خاصة الخاصة

أما شاهد الشيخ فى الآية فهو واضح فى قوله تعالى (بما عرفوا من الحق) ثم قال الشيخ المعرفة احاطة بعين الشىء كما هو أى الاحاطة بذات الشىء لا بوصفه فإن الاحاطة بوصف الشىء تتعلق بالعلم لأن موضوع العلم : العلم بأوصاف الاشياء . وظواهرها المحسه والمعقوله وليس بعللها ولا بالحقائق المسببة لها أو الصادرة عنها فإن قولك أعرف فلانا أى أعرفه كله بالذات معرفة عينيه وأما قولك أعلم من فلان خلقه أوفضله أو فهمه فهو علم . أما الوجه الأولى فانه معرفة تملك الاحاطه بالذات وأوصافها وهذا معنى قول الشيخ الاحاطه بعين الشىء كما هو ذاتا وهوية ثم قال وهى أى المعرفه على ثلاث درجات والخلق فيها على ثلاث فرق .

ثم قال الدرجة الأولى معرفة الصفات والنعوت وهى العلم اليقينى الداخل فى باب المعرفة بصفات الله عز وجل ونعوته التى تلزم عنها أفعاله من الإيجاد والإبداع والتكوين والإحياء والامداد الخ ويوضح ذلك كله قول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام لفرعون عند سؤاله (من ربكما يا موسى) (قالا ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) ثم قال وقد ورد أساميها أى الصفات بالرسالة أى الرسالة المحمدية والدين الإسلامى الحنيف جاء وحيا بواسطة رسوله الملك جبريل عليه السلام فى القاءه أو خطابا مشافهة ظاهرا فى روع عبده محمد صلى الله عليه وسلم ثم قال وظهرت شواهدها

فى الصبغة أى صبغة الله وفطرته التى فطر الناس عليها ومن أحسن من الله صبغة وذلك كما يقول الشيخ بتبصير النور القائم فى السر أى النور الالهى سر القلب وهو الفؤاد ثم قال وطيب حياة العقل أى العقل الطيب الحى الذى يهدف دائما إلى الحق ويحيد ويجنح عن الباطل وذلك بزرع الفكر أى بزرع التفكير السليم وحياة القلب أى الفكر الذى أساسه حياة القلب .

قال وبحسن النظر أى المبنى على حسن النظر بين التعظيم السليم الذى يكون موقعه بين تعظيم الحقيقة وحسن الاعتبار بالشواهد: تعظيم الحقيقة بالقلب. فالمرء إزاء تلك المعرفة بين تعظيم للحقيقة واعتبار بشواهدها المعقولة . ثم قال الشيخ وهى معرفة العامة أى تلك وإلى هذا الحد فإنها معرفة العامة ومراده بالعامة ليس عوام الناس كما يخال وإنما يريد عمومهم وغالبيتهم تلك المعرفة التى لا تنعقد كما يقول الشيخ شرائط اليقين أى الإيمان الصحيح إلا بها وهى على ثلاثة أركان أحدها (إثبات الصفة باسمها من غير تشبيه) أى إثبات الصفة كما جاءت من الله فى القرآن من طريق الوحى كاسمه الحى والعليم مثلا اللذين ينبعان من صفتى الحياة والعلم دون تشبيه بمماثل من صفات الخلق فإن علم الله يغاير علمنا بالاتساع والاحاطة وإن كان علمنا ينبع من علمه وحياة الله لا تشبه حياة غيره من الأحياء الذين يحيون بها وعنها فإن الذات الإلهية تنفرد بحياة خاصة بها ومناسبة لها وهى مطلقة لا يشاركها فيها غيرها ثم قال الشيخ ونفى التشبيه عنها أى نفى إقامة الشبه بينها وبين غيرها من صفات المخلوقات أو تعطيل لها أى تجريدها من الفاعلية فتصبح سلبية (كما عند المعتزلة) هذا مع الأياس من إدراك كنهها كما يقول الشيخ لأن إدراك كنه الحقيقة التى تبزغ الأسماء والصفات عنها مستحيل لأنها ذات الله تعالى فإدراك كنهها ممتنع لتأويل الصفات الإلهية بزعم إدراك كنهها أو تشبيهها بصفات المحدثات وذلك يكون تحصيل حاصل يؤدى إلى الدور والتسلسل .

ثم قال والدرجة الثانية : وهى أعلى من الأولى ضرورة معرفة الذات

مع إسقاط التفريق بين الصفات والذات والتفريق هو جعل الصفات أمراً خارجاً عن الذات ومغايراً لها والواقع ينفى ذلك لأن الصفات تنبع من عين الذات وهى خصائص لها .

وأما قول الشيخ وهى تثبت بعين الجمع فمعناه أن ذلك يتكشف أكثر ما يتكشف للعارفين بالله الذين بلغوا من حدود العلم أعلاها ودخلوا فى رحاب المعرفة الواسعة الشاملة. قال وهى على ثلاثة أركان : إرسال الصفات على الشواهد ومعناه إرجاع الشواهد الدالة على الصفات إلى الأصل الثابت الذى كانت الصفات من خصائصه وهو الذات الإلهية المطلقة وبهذا تكون الصفات الإلهية هادية للشواهد عليها لأن الشواهد تنبعث عن الأعمال والأعمال من لوازم الصفات ثم قال (إرسال الوسائط على المدارج) والواسطة تكون مدرجة إلى الحقيقة التى تدل عليها فالوسائط لعرفان الذات أو الصفات أى الذات الإلهية أو صفاتها أو أفعالها فالدلائل والشواهد تندرج فيما يلزم عن الصفات ثم قال (إرسال العبارات على المعالم) فإن الذات الإلهى أو صفاته لا تصل إلى حقيقتهما العبارات لأن العبارات إنما تنصب على المعالم والمعالم هنا أعيان الأشياء التى هى آثار لأفعال الحق ثم قال وهى معرفة الخاصة أى المعرفة التى لا يبلغها من الناس إلا خاصتهم كالعارفين بالله وأوليائه . ثم قال التى تؤنس من أفق الحقيقة أى شواهد المعرفة التى تؤنسهم بعرفانها وهى منبعثة من أفق الحقيقة وليس من مجالات الخليقة وتلك الشواهد الإلهية تنبعث عن نور الحق خالصة لهداية السالكين فهو مبدأ الطريق ووسطه وغايته وهى محرك عزائمهم إلى السير ببلوغ كشف الحجب عن الحقائق الإلهية فمن كان لا شاهد له من الله يبدو فلا سير له ولا سلوك وأعظم تلك الشواهد تلك الشئون الإلهية التى هى من لوازم الصفات العلية صفات محبوبهم وهى السبيل إلى مطلوبهم وتلك هى الأعلام الدالة على المعالم: معالم الطريق إلى الحقائق الإلهية وحينما رفعت لهم الأعلام وبدت لهم المعالم (وهى

الأحوال والمقامات) فمروا فى السير مجدين بغية الوصول إلى الحقائق التى تهدى إليها وتدل عليها ولذلك قال الشيخ (إنها تثبت بعلم الجمع وتصفو فى ميدان الفناء وتستكمل بعلم البقاء وتشارف أى تتطلع بعلم الجمع أى إلى الحقيقة وهذا أيضا معنى قوله بعد ذلك وهى معرفة الخاصة التى تؤنس أى تؤنسهم من أفق الحقيقة أى تبدو من ذلك الأفق الشامخ المتسامى فتؤنسهم .

ثم قال والدرجة الثالثة : معرفة مستغرقة فى محض التعريف أى مستغرقة كلية فى محض التعريف الإلهى لهم وقد سئل الصديق الأعظم رضى الله عنه بم عرفت ربك؟ قال (عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى) وتلك معرفة لا يوصل إليها الاستدلال ووسائل المنطق المعلوم . كما يقول الشيخ ولا يدل عليها شاهد أى من شواهد العلم ولا تستحقها وسيلة أى وسيلة من وسائل النفس نفس السالك تستحقها أى تستحق تلك المعرفة فتكون موصلة إليها إلا بالله.

ثم قال وهى على ثلاثة أركان أى تلك المعرفة اللدنية الإلهية أولها : مشاهدة القلوب ثم قال والصعود عن العلم أى المشاهدة بالقلوب الصاعدة عما يعطيه العلم من شواهد علمية كونية (وهى الركن الثانى) ثم قال (ومطالعة الجمع) أى مطالعة مقام الجمع بعين المكاشفة وهى الركن الثالث ثم قال وتلك معرفة خاصة الخاصة. أى معرفة الذين اصطفاهم الله فاختصهم برحمته ثم أوصلهم بفضله إلى آفاق معرفته .

هذا وللقوم فى مجال تلك المعرفة أقوال تؤثر عنهم فمنهم أنه لما سئل الجنيد عن العارف أى العارف بالله قال (لون الماء لون إنائه) أى أن العارف كمخلوق يتلون بحسب فيوضات مبدعه على قلبه فهو متلون فى أقسام العبودية، فبينما تراه مصليا إذ بك تراه ذاكراً أو قارئا أو معلما أو متعلما أو

مجاهداً فهو مع أهل الأسباب متسبب ومع المتعلمين متعلم ومع العلماء عالم ومع العارفين عارف فينتقل فى كل منزلة من منازل العبودية وهو مستشرف بنظر قلبه إلى معبوده الذى لا يتلون ولا يتغير وقال يحي بن معاذ (العارف كائن بائن) أى كائن مع الخلق بظاهره بائن عنهم بقلبه وأنه كائن مع الله بموافقته وبائن عن خلقه بمخالفتهم فى نزعاتهم ونزواتهم ثم هو داخل فى الأشياء بالله وخارج عنها له على أن غالب الناس يدخل فيها ولا فكاك له من الخروج عنها وأما العارف فهو داخل فى الأسباب بربه وخارج عنها بمعرفته لربه فهو حر من رقها . وقال ذو النون المصرى وهو من أبلغ القول فى المعرفة ومن أقوى الدلائل على عدم التفرقة بين الشريعة الحقيقة: علامة العارف ثلاثة (لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ولا يعتقد باطنا من العلم ينقضه عليه ظاهر من الحكم (الشرع) ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك أستار محارمه وفى معنى قوله (لا يعتقد باطنا من العلم ينقضه عليه ظاهر من (من الحكم) فإنه يشير بهذا إلى ما يفعله الجاهلون من المنتسبين إلى طريق الله ظلما فإنهم قد تقع لهم أوهام يظنونها مواجيد من مواجيد الحقيقة وواردات من وارداتها وهى تخالف حكم الشرع فعلا فيتركون ظاهر حكم الشرع اشتغالا بمواجيدهم الموهومة وذلك لجهلهم بحقائق الطريق وآداب الشرع وفى معنى المعرفة الحقيقية يقول أبو سعيد الخراز :

(المعرفة تأتى من عين الوجود وبذل المجهود وبهذا يشير إلى أن المعرفة فى الاستعداد إليها وفى الاستحقاق لحصولها امر إلهى مع أنها وهى تحتاج إلى بذل المجهود فى الأعمال الصالحات وهى أوامر الشريعة وهى بذور الأحوال التى هى مواهب يكافىء بها العبد على أعمال الجوارح وإن كانت المعرفة نفسها تأتى من عين الوجود أى الوجود الحقيقى أو وجود الحقيقة وتلك لا تنال بمجرد العلم أو البحث والجدل ولكنها تنال نتيجة العمل الصالح المطهر للجوارح والمنبه للقلب لصحوه وفطنته لأن يفهم السلوك الحق الإلهى

فى طريق الرب ولذا يقول محمد بن الفضل (المعرفة حياة القلوب مع الله ونحن نزيد على قوله وعمل الجوارح على طاعة الله .

وقال بعض العارفين رضى الله عنهم : إن مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست من الشك إلى اليقين . ومن الرياء إلى الخلاص ومن الغفلة إلى الذكر ومن الرغبة فى الدنيا إلى الرغبة بقلبك عنها وتدعوك من الكبر إلى التواضع ومن سوء الطوية إلى حسن النية :

وأنشدوا:

من شدة القرب منى ظننت أنك انى
فقلت ما قلت جهلا وذاك من سوء ظنى
وحين حققت أمرى والوهم قد زال عنى
أدركت هذا وذاك ثم الفنا صار فنى
وصرت عن غيب غيبى بما أقول أكنى
أزال عنى الترجى علمى به والتمنى
والعلم كالجهل عندى سواء وزال التظنى
إذ كل ذلك خلـــق والخلق ما عنه يغنى
وليس يشبه ربى شىء فدع التظنى
أنا الموحد ذوقا فخلنى يا مثنى

باب الفناء

قال الله تعالى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال الإكرام)

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : الفناء فى هذا الباب : إنس لاضمحلال مادون الحق علما ثم جحدا ثم حقا وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأول : فناء المعرفة فى المعروف وهو الفناء علما وفناء العيان فى المعاين وهو الفناء جحدا وفناء الطلب فى الوجود وهو الفناء حقا .

والدرجة الثانية : فناء شهود الطلب لاسقاطه وفناء شهود المعرفة لاسقاطها وفناء شهود العيان لاسقاطه .

والدرجة الثالثة : الفناء عن شهود الفناء وهو الفناء حقا شائما برق العين راكب بحر الجمع سالكا سبيل البقاء .

أما شاهد الشيخ فى الآية فهو ظاهر وأن كان يوجد فرق بين الفنائين ولكنهما يفضيان إلى بعضهما .

وأما قوله الفناء فى هذا الباب تحصيصا لما قدمنا من تشابه أنس لاضمحلال مادون الحق علما يعنى أن العلم القائم بالموجودات هو علم بما مصيره للفناء من حيث الأيلولة إلى الله فإذ أشرف على آفاق فى المعرفة أوسع من مقام العلم الظاهر جحد ما كان يعلمه لسعة ما تعرف إليه ودوامه ثم حقا أى كان مستحقا من حيث أنه قد عرف فى النهاية أن سبب وجود الخلق وجود الحق وأن صيرورة الخلق إلى الفناء فى أبدية الحق ثم قال وهو على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى : فناء المعرفة فى المعروف وهو الفناء علما أى تصحيح ما كان يعرفه علما بما عرفه عن التحقيق من طريق المعرفة التى هى أوسع آفاقا من العلم وفسر الشيخ ذلك بقوله وفناء العيان فى المعاين أى فناء شواهد العيان أى شواهد عالم العيان فى الحقيقة المعاينة من طريق المعرفة الصحيحة وهو الفناء جحدا أى جحوداً لما كان يعلم عن عالم الرسوم عند رحاب ماعرف من الحقيقه فى عالم الدوام والبقاء ثم قال وفناء الطلب فى الوجود أى فناء طلب الطالب للحق فى وجود الحق وهذا يبقى الطلب من حيث أصبح ذلك الوجود الثابت ظاهرا معاينا له بعين اليقين أو بحقه وهو الفناء

حقا كما يقول الشيخ أى فناء مايزول من الرسوم فى وجود من لم يزل وينزهه سبحانه عما كان يرى فى علمه من أشباح زائلة أولها ظلال الحقيقة من أعيان الموجودات وآخرها ظلال يستلزم فناء العلم فيها وبالتالى فناء نفس المعرفة فى المعروف .

وهو أيضا فناء المعاينة أى فى وجوه المعاين وهذا المقام من مستلزمات فناء المعرفة فى المعروف وهذا الفناء يستلزم جحده ما كان يعرفه من وجود الأعيان الزائلة التى كانت حجبا عن مقامه وهذا مقام الشهود وكان فى جحدها فناء الطلب وفناء الطلب غيبة فى الوجود : أى وجود المطلوب وهو الفناء حقا كما يقول الشيخ .

ثم قال والدرجة الثانية : فناء شهود الطلب لاسقاطه لأن الطلب يكون عند غيبة المطلوب وقد صار المطلوب مشهودا لوجوده وبظهوره للشهود يتم فناء شهود المعرفة أيضاً لأن شهود المعرفة إنما يكون فى غيبة المعروف فإذا صار المعروف حاضرا سقط ذلك الشهود الذى هو شهود المعرفة وأيضا سقط شهود الحقيقة ثم هو معنى قول الشيخ (اسقاطه) ولا يسقط الطلب إلا فى حضور المطلوب ثم (فناء شهود العيان لاسقاطه أيضا) لأن العيان إنما يكون وسيلة لشهود المعاين فيطلب لأجل ذلك فإذا حصلت المشاهدة والمعاينة فعلا سقط طلب الشهود فى معنى الشهود نفسه وهو الأمر الذى كان يطلبه السالك فى سبيل شهوده .

ثم قال والدرجة الثالثة : الفناء عن شهود الفناء وذلك بالانتقال من شهود الطلب والمعرفة والفناء بسبب واحد هو شهود العيان للحقيقة فتسقط كل العوامل وسائر المعانى التى كانت تعين السالك على تطلب معاينة مشهوده وذلك هو الفناء حقا كما يقول الشيخ ثم قال إن السالك يشهد الفناء شائما برق العين أى ملاحظا نور العين التى كان يطلب معاينتها وهى الحقيقة فيفنى كل ما عداها وكل ذلك يتم للسالك حال كونه راكبا بحر الجمع

سالـكا سبيل البقاء والبقاء هو عند الحاصل ضرورة بعد تحقق ... في طريق الله أولا يطلب ثم يخوض بحر الشهود ليشهد فإن شام أي ... برق العين أي نور الحقيقة سقط حينئذ ... لأنه قد صار راكبا بحر الجمع سالـكا سبيل البقاء وهذا المقام مقام جمع على الله لاتحويه عبارة ولا تصل إليه إشارة كما يقول الشيخ في بعض أجوبته السابقة فلا يعبر عنه إلا من طريق المجاز كما يعبر الشيخ فيكثر من قول عبارات إسقاط الطلب واسقاط الشهود وفناء شهود العيان وشيم برق العين وهكذا .

وقالوا في معنى الفناء رجزا :

لو جرى معنــــاه في الفؤاد	جرى الغذا في جملة الأجساد
عندها جازى مراة القلب (١)	لوح الغيوب وهو غير مخبي
فادرك المعلوم والمجهــــول	حيث ارتضى لتركها قبولا (٢)
حتى إذا جاء بطـــور القلب	خوطب إذ ذاك بكل خطب
فقيــــل لوعرفتنى بـكونى	قيل إذن فاخلع نعال الـكون
كذا ليفنى عن رؤية العوالم	ولم ير في الـكون غير العالم
ثم يفتهى لفلك الحقيقــــة	فقيل هـــذا غاية الطريق
ثم انمحى في غيبة الشهود	فاطلب القول أنا معبودى (٣)
وعند رفضه الخلق نحو الحق	كى مايرى واجبات الرق
فيـــكلم الناس بكل رمز	ويلغز في التعبير أي لغز
وعندما سلك السالك	أقامه شيخا لـــكل سالك

(١) مقصود الراجز : المرآة حذف الهمزة لوزن الشعر .

(٢) فادرك المعلوم والمجهول أي ادرك مع ما كان معلوما من الآثار والأغيار الذى كان مجهولا له وهو الحقيقة فنعى بعرفان الحق ماليس بحق .

(٣) قوله هنا أنا معبودى : لايريد التأله أو الحلول أو الاتحاد انما يريد أن يقول أن معبودى حقيقى وأما أنا كجسم ونفس ففان وزائل كبقية الـكائنات .

باب البقاء

قال الله تعالى (والله خير وأبقى) ثم قال الشيخ رضى الله عنه : البقاء اسم لما بقى قائما بعد فناء الشواهد وسقوطها وهو على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى : بقاء المعلوم بعد سقوط العلم عينا لا علما .

الدرجة الثانية : بقاء المشهود بعد سقوط الشهود وجودا لا نعتا .

الدرجة الثالثة : بقاء من لم يزل حقا باسقاط من لم يكن محوا .

أما شاهد الشيخ فى الآية فواضح وأما قوله (البقاء اسم لما بقى قائما بعد فناء الشواهد وسقوطها ، فمعناه أن الشواهد وجدت لتدل على شهود غائب عن معاينة المشاهد فيستدل على وجود خالقه بجملة من الشواهد الوجودية الدالة عليه كالإبداع والنظام فى الكون والحياة وغير ذلك فإذا عاين المشاهد ما كان يطلب شهوده سقطت شواهده التى كانت دليلا للطالب على وجود مشهوده وهو الله الذى كانت ذاته وخصائصها مغيبة عنه قبل ذلك وهذا معناه بقاء المعلوم بعد سقوط العلم عينا لا علما كما يقول الشيخ وسقوط العلم عينا يحصل بشهود ما كان معلوما له فيفنى العلم بوجود الشهود الذى كان غائبا عينا لا علما — وإن كان العلم حاضرا — أى ليس بمجرد العلم بفنائه كما تفنى المعاينة فى المعاين والعلم فى المعلوم والمعرفة فى المعروف وهكذا .

ثم قال الشيخ والدرجة الثانية . بقاء المشهود بعد سقوط الشهود وهذا يكون حاصلا بالضرورة إذا وصل السالك لمثل هذا المقام وبقاء المشهود يكون وجودا وتحقيقا لا نعتا ولا وصفا من طريق الشواهد والدلائل والقرائن الدالة على وجوده بالعلم .

ثم يقول والدرجة الثالثة وهى أرقى من الدرجتين السابقتين بقاء من لم يزل حقا أى تحقيق بقاء من لم يزل حقا أزلا وحاضرا وأبدا وذلك بإسقاط مالم يكن من الأشياء والكائنات موجودا إلا معانيه التى هى حجب محوا أى إسقاطها محوا بعد المعاينة وفناء الشهود وفناء الطلب وما ماثل ذلك وتطلق هنا مجـــازا لأن المقصود بها الذات الإلهية المغيبة عن الإدراكين الحسى والعقلى إلا ما كان من لمح البصيرة أو كما يعبر الشيخ دائما (بشيم برق البصيرة) .

ولنا فى هذا المعنى من قصيدتنا العينية أبيات :

جمـال التى أهوى عزيز ممتـع ... فرأيت اسمها فى كل شىء أطالعه
أراها بها فى كل معنى رأيته ... وتنزيهها عن رؤية العين شائع
فما الشمس إلا من مظاهر حسنها ... وما البدر إلا نورها فيه طالع
وما الـكون إلا نقطة من جمالها ... وما الروح إلا سرها فيه واقع
وما الـكل إلا لفتة من لحاظها ... وفى جمعها الضدين بانت بدائع

* * *

باب التحقيق

قال الله تعالى (أولم تؤمن قال بلى ولـكن ليطمئن قلبى) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه التحقيق تخليص مصحوبك من الحق ثم بالحق ثم فى الحق وهذه أسماء لدرجات ثلاث .

الدرجة الأولى : تخليص مصحوبك من الحق بأن لا يخالج علمك علمه .

والدرجة الثانية : بأن لا ينازع شهودك شهوده .

والدرجة الثالثة : بأن لا يناسم رسمك سبقه فتسقط الشهادات وتبطل العبارات وتفنى الإشارات .

أما شاهد الشيخ فى الآية قول الله تعالى لإبراهيم عليه السلام حين طلب تحقيق الوصف بالمعاينة أو لم تؤمن قال إبرهيم بلى أى أؤمن ولكن ليطمئن قلبي بالشهود بعد العلم والمعاينة والوصف للحقيقة .

ولذلك قال الشيخ فى الدرجة الأولى أن التحقيق تخليص مصحوبك من الحق علما بتحقيقه وذلك على قدر كفايتك فى التحقيق لا على قدر كفاية الخالق فى علمه وذلك لكى لا يخالج علمك الضيق علمه الواسع والمخالجة هنا معناها المخالطة المنافسة وذلك لا ينبغي ولا يمكن لأن علمك محدود بالنسبة لعلمه كما قدمنا ومعرفتك قاصرة عن الإحاطة بما يعلمه الحق من شئون عالمى الغيب والشهادة .

ثم قال الشيخ والدرجة الثانية : بأن لا ينازع شهودك شهوده .

وذلك بأنك إنما تشهد منه نوره الذى يتجلى به على قلبك لا شهود ذاته على التحديد فشهودك مهما اتسع محدود بمحدودية طاقتك وأما شهوده أى شهود الحق لذاته ولغيره فشهود مطلق لا يحاط بكهنه ولا يدرك مداه .

ثم قال وأما الدرجة الثالثة : فبأن لا يناسم رسمك سبقه أى فذلك لأن رسمك الزائل لا يتناسم مع سبقه ومعنى المناسمة : مزاحمة له سبحانه فى العلم كما لو هبت ريح من الشمال وريح من الغرب فتناسمتا مزاحمة . وهنالك وعند المواجهة مواجهة شهودك مع وجود رسمك المحدود لشهوده أى شهود الحق المطلق لذاته وأسمائه وصفاته على سعته وما يلزم عن ذلك من خلق وإبداع عند كل ذلك يسقط رسمك ويبقى وجوده الحق فكيف يتم التناسم بين شهودك المحدود بوجود رسمك مهما اتسع ذلك الشهود مع شهود الحق المطلق الذى عنده تسقط الشواهد وتبطل العبارات وتفنى

الإشارات كما يقول الشيخ ذلك لأنها رسوم نسبية وجدت لتدل على حقيقة مطلقة فإذا واجهت الحقيقة تلك الرسوم بطلت ومحيت بما فيها من عبارات وإشارات .

وأنشدوا فى هذا المعنى قولهم :

فاذكرونا مثل ذاكرانا لكم — رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبا إذا غنى بكم — شرب الدمع وعافى القدحا

وأنشدوا أيضا قولهم :

إذا صار قلب العبد للسر معدنا — تلوح بأعطافه بهجة السنا
وإن فاته المعنى علته غمامة — فأصبح فى أفعاله متلونا

باب التلبيس

قال الله تعالى (وللبسنا عليهم ما يلبسون) .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه : التلبيس : نور به يشاهد معار عن موجود قائم وهو اسم لثلاثة معان .

أولها : تلبيس الحق بالكون على أهل التفرقة وهو تعليقه الكوائن بالأسباب والأماكن بالأحايين وتعليقه المعارف بالوسائط والقضايا بالحجج والأحكام بالعلل والانتقام بالجنايات والمثوبة بالطاعات وأخفى الرضى والسخط اللذان يوجبان الوصل والفصل ويظهران السعادة والشقاوة .

والتلبيس الثانى : تلبيس أهل الغيرة على الأوقات باخفائها وعلى الكرامات بكتمانها والتلبيس بالمكاسب والأسباب والتعلق الظاهر بالشواهد والمكاسب والمظاهر تلبيسا على العيون الكليلة والعقول العليلة مع تصحيح التحقيق عقدا وسلوكا ومعاينة وهذه الطائفة رحمة من الله تعالى على أهل التفرقة والأسباب فى ملابستهم .

والتلبيس الثالث : تلبيس أهل التمكين على العالم ترحما عليهم بملابسة الأسباب والمكاسب توسعة . على العالم لا لأنفسهم وهذه درجة الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ثم الأئمة الربانيين الصادرين عن وادى الجمع المشيرين عن عينه .

يفسر الشيخ التلبيس وهو شاهده فى الآية بالتورية بلاغة وفسر التورية بأنها تورية بشاهد معار أى بشاهد من القول من طريق الاستعارة معبرا عن موجود قائم مشار إليه بالتورية . ثم قال وهو اسم لثلاثة معان .

قال أولها : تلبيس الحق بالكون على أهل التفرقة وحقيقة التلبيس إلباس شيء بمظهر شيء آخر ويراد الإشارة إليه خفية من طريق الاستعارة والتورية وهذا معنى تلبيس الحق بالكون على أهل التفرقة الذين لا يرون إلا ظواهر الأشياء والأسباب الظاهرة بصرف النظر عن حقائقها الخفية الغيبية. ثم قال الشيخ وهو تعليق الكوائن بالأسباب والأماكن بالأحايين ويريد إخفاء ظهور صفات المكون بمظاهر الكون من الأزمنة والأحايين ذلك التعدد الذى من شأنه اخفاء — الحقيقة المتوحدة فإذا أردنا التعبير عن الحقيقة الكلية القائمة وراء الكائنات جعلنا سبيلنا إلى ذلك التورية بالقول للاستدلال بوجود المظاهر على وجود الحقيقة ومن أمثال ذلك قوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) . ثم قال الشيخ وتعليقه أى تعليق الحق (على المعارف بالوسائط والقضايا بالحجج) على أن معارفنا المكتسبة مستمده من النظر فى الحقائق الكونية وهى من علم الله كعلمنا بالنجوم أو بطبقات الأرض أو بالحساب والهندسة وما إلى ذلك كلها مأخوذه عن آثار أفعال الله فى الكون وهذا معنى تعليق الحق للمعارف على الوسائط وكذلك القضايا بالحجج وأصل القضايا الفعلية مكسوبة بما يتقدمها من بدائه أولية فإذا التمسنا حجة على قضية من القضايا المنطقية اعتمدنا فيها أول ما نعتمد على البدائه والمسلمات الأولية وهذا معنى تلبيس القضايا بالحجج أى القضايا

الأولية بالحجج الفعلية ولذلك قال الشيخ والأحكام بالعلل أى إيضاح الأحكام الطبيعية بعللها كذلك تعليق الانتقام بالجنايات والمثوبة بالطاعات إلخ . أى جعل سبب انتقام الحق وعقوبته بالجنايات والمثوبة بالطاعات مع أن حكمة الله وتدبيره كانا وراء ذلك وأخفى وراء العقوبة والمثوبة الرضى والسخط الإلهيين اللذين يوجبان أصلا الوصل والفصل أى التقريب والإبعاد ويظهران السعادة والشقاوة أى وجعلهما مظهران للسعادة والشقاوة .

ثم قال الشيخ والتلبيس الثانى : (تلبيس أهل الغيرة على الأوقات باخفائها وعلى الكرامات بكتمانها) ومعنى هذا إخفاء السالكين المجدين فى طريق الحق أوقاتهم مع الله أى منع الله لهم فى أوقاتهم من التجليات بأخفائها على عامة الناس لأنها أسرار بينهم وبين الحق يسترونها غيرة عليها وذلك كما يقول الشيخ تلبيس أى اخفاء الكرامات التى يكرمهم بها ربهم بواسطة كتمانها عن الخلق وعدم البوح بها أو أظهارها لهم . ثم قال الشيخ والتلبيس بالمكاسب والأسباب أى ويلبسون بمعنى يخفون . بالمكاسب والأسباب أفعال وأفضال المسبب وهو الله وكذلك يفعلون فى تعلقهم الظاهر بالشواهد والمكاسب العلمية والوهبية تلبيسا على العيون الكليلة كما يقول الشيخ والعقول العليلة مع تصحيح التحقق عقدا وسلوكا أى يفعلون ذلك مع صحة تحقيقهم عقدا أى معتقدا وأيضاً تحقيقهم فى السلوك معاينة وشهودا ثم قال الشيخ وهذه الطائفة رحمة من الله تعالى على أهل التفرقة ويريد بالطائفة أهل طريق الله من الواصلين الكمل وأوليائه من حيث أن ملابساتهم الأسباب وظهورهم باتخاذها رحمة بأهل التفرقة الذين لا يرون إلا مظاهر الأشياء مع أنهم هم حقائقها دون — مظاهرها لانهم أهل تحقيق فاصطباغهم بمظاهر أهل الظواهر فى أعمالهم وملابساتهم رحمة بالناس الذين لا يفهمونهم فى مواجيدهم الآلهية المستترة بلباس التلبيس لما وراء تلك المظاهر .

ثم قال الشيخ والتلبيس الثالث : تلبيس أهل التمكين على العالم ترحما — عليهم أى تلبيسهم على الناس ما هم فيه من التمكن رحمة بهم لأنهم إذا خاطبوهم أو عبروا لهم عن مواجيدهم الحقيقية سخروا بهم ولم يصدقوهم لتطبعهم وانطباع رأيهم بالعادة على جهل الحقيقة وتحققهم بالمظاهر الكونية من حيث أنهم لا يرون حقيقة غيبة أخرى وراءها فالتلبيس من أهل الله فى أحوالهم عليهم توسعة للناس لا لأنفسهم فإنهم من دأبهم الأخذ بالحقائق دون المظاهر وإن حد منهم التلبيس والاخفاء وإنما يظهرون باعتقاد المظاهر تلبيسا وقد أشار إلى مثل هذا الأدب فى التعامل سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه بقوله لأبى العباس المرسى (ليكن الفرق فى لسانك منطوقا والجمع فى جنانك مشهودا) ومعنى هذا أن تتكلم مع الناس بالفرق أى برؤية الأسباب والرسوم الظاهرة دون الحقائق وأن تجعل مع هذا شهود الحقيقة فى قلبك ملحوظا أى موجودا وهذا أيضاً يكون تورية أو تلبيسا من أهل المعرفة على غيرهم رحمة بهم سترا لأحوال أنفسهم يفعلون ذلك لأنهم من أهل التمكين ثم قال الشيخ وهكذا كانت تلك الدرجة درجة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ثم درجة الأئمة الربانيين الصادرين كما يقول الشيخ عن وادى الجمع لأنهم يصدرون فى معارفهم عن شهود الجمع أى شهود حقيقة واحدة فعالة فى الوجود هى الحق سبحانه وتعالى بسائر أسمائه وصفاته وأفعاله والكل من أفعاله ولذا قال الشيخ المشيرين عن عينه أى أولئك الذين يصدرون عن الحقيقة نفسها فإنهم أيضا يشيرون عن عين الحق ولما كانت مواجيدهم ومعارفهم فى علوها وسموها خافية عن عامة الخلق ورووا عنها ولبسوها فى عبارات تمت إلى الظواهر بصلة لكى تكون مفهومة ولا يقع عليها اعتراض المعترضين من العامة .

وأنشدوا فى الدرجة الأولى أى التلبيس الأول قولهم :

زجرت فؤادى فلم يتزجر ويطلب شيئا ومنه يفر

يســــير إلى الحق مستظهرا وإنى عليه شفيق حــــذر
فقال رويدا فمن لم يكن مع الحق فان فلا يستقر

وأنشدوا فى التلبيس الثانى أى الدرجة الثانية البيتين الآتيين :

لست من جملة المحبين إن لم اجعل القلب بيته والمقـاما
وطوافى أخاله السير فيـــه وهو ركنى إذا أردت استلاما

وأنشدوا فى التلبيس الثالث أى الدرجة الثالثة وهى درجة أهل الجمع .

لقد تاه فى تيه التوحد وحده وغاب[1] بقربه منك حين طلبته
ظهرت لمن أثبته بعد بينـة فكان بلا كون كأنك كنته

باب الوجود

وفيه يقول الشيخ رضى الله عنه : قد أطلق الله عز وجل فى القرآن الـكريم اسم الوجود على نفسه فى مواضع فقال (يجد الله غفورا رحيما) (ووجد الله عنده) (لوجدوا الله توابا رحيما) ثم قال الشيخ الوجود اسم للظفر بحقيقة الشىء وهو اسم لثلاثة معان .

الأول : وجود علم لدنى يقطع علوم الشواهد فى صحة مكاشـفة الحق إياك .

الثانى : وجود الحق وجود عين منقطعا عن مصاغ الإشارة .

والثالث : وجود مقام اضمحلال رسم الوجود فيه بالاستغراق فى الأزلية .

وفسر الشيخ شواهده من كلام الله بتعريفه ذلك التعريف الجليل الذى

---

(١) غاب : هنا بمعنى فنى عن نفسه وغاب عنها بالحقيقة .

يقول فيه لوجود اسم للظفر بحقيقة الشيء يعنى الوجود الحقيقى العلى(١) لوجود الشيء لاظواهره التى يبدو الشيء عليها فإن وراء كل مظاهر الطبيعة من أعيان الأشياء وهيئاتها وأوضاعها عللا قانوية خفية تنتهى من نهايتها إلى علة واحدة أزلية وهى وجود الحق عز وجل ذلك الوجود المتمتع بوجود طاقة فعالة تفعل فى الكائنات خلقا وابداعا وإيجادا ثم تحويلا وتلاشيا لأن له الوجود الحق المطلق وكل وجود عدا وجوده فوجود معار لأنه وجود اعتبارى ظاهرى متحول وأما وجود الحق فهو الوجود الحقيقى الثابت الأزلى قديماً وحالا وأبدا وكل هذا يفسر معنى قول الشيخ الوجود اسم للظفر بحقيقة الشيء وهو اسم لثلاثة معان :

المعنى الأول : وجود علم لدنى يقطع علوم الشواهد بصحة مكاشفة الحق إياك) .

وفى الواقع أن كل العلوم حسية أو عقلية أو حدسية كلها فى الأصل كامنة فى الفطرة (فطرة الكون فى وضعه) وفطرة الناظر لحقائق الكون بالعقل أوبالحس أو بالالهام فى ذاته منذ خلقته وإنما تظهر العلوم والمعارف من عالم الإمكان إلى عالم الفعل بوسائل ثلاث وأما من طريق الإلهام والحدس وهذا الطريق هو الأعم والأوسع . وأما من طريق التفكير العقلى ويؤثل هذا التفكير أيضاً البديهات الأولية التى هى ضرب من الإلهام أو الحدث ثم يبنى عليها سائر ضروب الشواهد والأقيسة والمقارنات والنتائج المنطقية التى يتم بها إدراك العقل الفاكر للشيء الكائن المدرك وثالثة الوسائل الشهود بالحس فترى الحواس الأشياء واسطه إشعاعات نورية تنبعث من الشمس المحس إلى العضو الحاس وهو البصر وكذلك

---

(١) أى أن الوجود الحقيقى هو الوجود السببى العلى الذى عن وجوده الوجوبى لزم وجود الأشياء الامكانية فلا يقال لأى وجود أنه حقيقى سوى هذا الوجود .

الشم تصل إليه ذريرات دقيقة منبعثة من الشيء المشم إلى أنف الشخص الشام والسمع كذلك ذبذبات تتزاحم فتصدم الهواء وتسلك فيه متطوره حتى تصدم طبلة الأذن ومن ثم إلى الحس المشترك ثم إلى التعقل صدمات مختلفة ضعفا وشدة وكذلك الذوق فإنه إحساس من العصب اللسانى باختلاف ذوق ذرات الشيء — المذاق فيتأثر به العصب الذوقى تأثرا مخصوصا وكذلك اللمس هو إحساس متفاوت الدرجات واقع على العصب اللمسى فيتأثر به تأثرا ذبذبيا حتى يصل إلى المخ ويجمع معطيات كل الحواس الخمس شيء فى المخ اسمه الحس المشترك الذى يحلل كل رسائل الحواس ومحساتها ويوصل نتائجها إلى الفكر كظواهر معقولة فيعمل فيها الفكر بحثا عن نتائجها المعقولة لتلك الرسائل أى النتائج المحسة . تلك المؤثرات الآتية للذهن من الخارج عن طريق الحواس فتصرف العقل بها تصرفا عقليا لفهم نتائجها المعقولة والعقل المتفكر نفسه عبارة عن ظاهرة بكائن أعمق منه وأعلى وذلك الكائن هو (الذات) الذات الإنسانى المعبر عنه حينا بالروح وحينا بالقلب وحينا بالنفس والمعبر عن معلوماته حينا بالإلهام وحينا آخر بالحدس أو بالذوق الذاتى وبالحاسة السادسة الخ . ومع هذا الشرح كله تفهم معنى قول الشيخ وجود علم لدنى يقطع علوم الشواهد ومعنى العلم اللدنى هو العلم الملهم من الذات الإلهى ينصب فى روع الذات الإنسانى تلقائيا من لدن الحق سبحانه وتعالى وهو أعلى العلم بل أسمى المعارف إطلاقا وهو معرفة يأتى دليلها قاطعا مانعا فى صحة الشواهد ثم يقول الشيخ وذلك بسبب مكاشفة الحق إياك وهذا الباب باب عميق أتينا فيه بما يوجه القارىء ظاهراً وباطنا إلى طريق شهود الحقائق الكونية الإلهية بقدر الإمكان والباب باب الوجود فهو أوسع أبواب المعرفة وقد عرفه الشيخ بعبارته البليغة التى يقول فيها الوجود اسم للظفر بحقيقة الشيء أى على ما هو عليه فى الواقع ثم ترقى الشيخ من ذلك كله إلى المعنى الثانى وهو يشير إلى وجود الحق وجود عين وجودا ذاتيا منقطعا عن مساغ الإشارة أى أن الوجود الإلهى الذاتى

ينقطع عنه كل دليل يسوغ الإشارة إليه فلا تصل إليه الإشارات ولا تدرك مداه السامى سائر العبارات وهذا الموضوع موضع حيرة الخلق من علماء وفلاسفة وطلاب للحقيقة .

وكل يدعى وصـــلا بليلى وليلى لا تقـــر لهم بذاك

ولا تبدو إلا لقوم وجه الله ذواتهم وأرواحهم وقلوبهم للطريق الحقيقى الذى به يستدلون وبه يشاهدون فيعرفون ذلك الوجود الإلهى الحق عرفان — معاينة يتخلل بالروح والقلب لا بالإشارة ولا بالعبارة ولا بالعلم ولا بالتعبير والرسم والتفكير المنطقى والعلمى وهذا معنى قول الشيخ وجود الحق وجود عين منقطعا عن مساغ الإشارة .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه فى المعنى الثالث إنه وجود مقام اضمحلال رسم[1] الوجود فيه بالاستغراق فى الأزلية .

وبعد أن حقق الشيخ وجود الحق الذى لا تصل إليه العبارة ولا تسوغ فيه الإشارة عدل إلى معنى فيه شرط لتلك المعرفة وهذا الشرط اضمحلال رسم الوجود الاعتبارى كله أى كل وجود عدا وجود الحق سبحانه وتعالى واضمحلاله وجوداً ورسما لاستغراق وجوده الظاهرى فى وجود الأزلية الالهية الغيبية وهذا هو الوجود الحقيقى وصدق الله العظيم حيث يقول (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وسبحان من له ملك عالمى الغيب والشهادة وهو العلى العظيم .

وأنشدوا فى هذا المعنى للشاذلى رضى الله عنه :

أتينـاك بالفقر ياذا الغنى فأنت الذى لم تزل محسنـــا

---

(١) أى الوجود الامكانى المحدث ثم الفانى والذى مآله فى الحالين إلى مبدعه وهو الله عز وجل .

وعودتنا كل فضـــل عسى ... يعود الذى منـك عودتنـا
مساكينك الشعث قـد ولهوا ... بحبـــك إذ هو أقصى المنى
فما فى الغنى واحـــد مثلـكم ... وفى الفقر لا عصبـة مثلنـا
رأيناك فى كل أمر بدا ... وليس من الأمر شىء لنا
سـترت اسمـك غيرة ها أنا ... أمـــوه بالشعب والمنحى
إذا كنت فى كل حال معى ... فعن كل شىء أنا فى غنى
فأنتم هم الحق لا غـــيركم ... فياليت شـعرى أنا من أنا

باب التجريد

قال الله تعالى (فاخلع نعليك)

ثم قال الشيخ رضى الله عنه التجريد انخلاع شهود الشواهد وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : تجريد عين الـكشف عن كسب اليقين .

والدرجة الثانية : تجريد عين الجمع عن درك العلم .

والدرجة الثالثة : تجريد الخلاص عن شهود التجريد .

وخلع النعلين فى اصطلاح أهل طريق الله معناه خلع الـكونين عن عين القلب والـكونين هما : الـكون الدنيوى والـكون الأخروى وهذا يعنى انخلاع القلب عن شهود الشواهد الآتية من الـكون بشهود الحقيقة ثم قال وهو على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى : (تجريد عين الـكشف عن كسب اليقين) وذلك التجريد يكون بالاستغناء عن اليقين المـكسوب بالعلم وبالشواهد المسمى علم اليقين وهو اليقين المـكسوب بالتعلم سماعا أو اطلاعا لأن هذا إن نفع فى

البدايات فلايصلح للنهايات والمراد استبداله باليقين الحق المشهود مشاهدة وعيانا وهو عين اليقين .

ثم قال والدرجة الثانية (تجريد عين الجمع عن درك العلم) وذلك أن صح للسالك فى طريق الله لا يصلح للواصل إلا بالشهود الخالص لعين اليقين أو لحقه حيث جرد عرفانه الناشىء عن الكشف والعيان لعين الجمع عن درك العلم فى الدرك معنيان : أما عن درك العلم له بالنسبة لدرجة العيان وهو المعنى الثانى لعله يريد أن السالك إذا تحقق بعين اليقين نزه ذلك الشهود العيانى عن أن يدرك العلم المعروف وهو شأن الدرجة الأولى أى درك العلم بعين اليقين المكسوب كسبا لا شهودا .

ثم قال والدرجة الثالثة : تجريد الخلاص أى تجريد هذا الخلاص بالارتفاع والتسامى الحاصلين عن شهود عين لليقين أو حق اليقين فيريد الشيخ ويطلب من السالك لطريق الحق تجريد هذا الخلاص عن شهود التجريد أى حتى تجريد ، عن شهود أنه يشهد ذلك التجريد وذلك لكى لا يكون شاهد ومشهود ثم فناء هذا الشهود فى الحقيقة المشاهدة وذلك يسمى عند القوم تجريد الشهود .

وأنشدوا فى هذا الباب :

برزت سليمى من أثناء الخيم　　فأرتنا البدر من تحت اللمم
وحدا الحادون لما أبصروا　　وجهها فى الليل صبحا قد ألم
فعذرناهم وليس عجبــا　　أن يرى وجه لسلمى فى الظلم
كضياء الصبح أو بدر الدجى　　وجههـا أكمل نورا وأتم
لو رآها البدر انثنى راجعا　　خجلا من وجهها واحتشم

ولو رأتها الشمس لم تطلع ضحى ثم صارت حدين هم وندم
عـــذبت قلبي بهجران به عذبت العشاق قبلى فى القدم

* * *

باب التفريد

قال الله تعالى (ويعلمون أن الله هو الحق المبين) .

قال الشيخ رضى الله عنه التفريد اسم لتخليص الإشارة إلى الحق ثم بالحق ثم عن الحق .

وقال أما تفريد الإشارة إلى الحق فعلى ثلاث درجات :

تفريد الإشارة بالافتخار بوحا وتفريد الإشارة بالسلوك مطالعة وتفريد الإشارة بالقبض غيرة .

وأما تفريد الإشارة عن الحق : فانبساط ظاهر يتضمن قبضا خالصا للهداية إلى الحق والدعوة إليه .

أما شاهد الشيخ فى الآية فهو أن الله هو الحق الأعلى المبين الواجب له التفريد ثم قال الشيخ التفريد اسم لتخليص الإشارة إلى الحق أى تخليص كل ما يشير إلى الحق بالإشارة أو بالعبارة من جوب الرسوم (المجاز) ومحدودية الإشارات وضيق العبارات وذلك يكون بالحق نفسه وهو المعرف والموصل والهادى إلى طريق الصواب فإذا ارتفعت الهمة إلى التعريف للحق بهذا المعنى كان ذلك التعريف عن الحق الهاما أو ارشادا أو هداية ثم قال الشيخ . أما تفريد الإشارة إلى الحق فعلى ثلاث درجات : وقد قسم الشيخ ذلك التفريد إلى ثلاثة ضروب : تفريد القصد من السالك شوقا واهتماما وذلك ما عبر عنه الشيخ بالعطش وقال ثم تفريد المحبة قلقا أى أن السالك لا يصل إلى مثل هذا المقام إلا بتفريد المحبة قلقا أى شوقا

ونزوعا عن الأغيار والرسوم إلى الحقيقة فإذا وصل إلى مقام الشهود وجب عليه تفريد ذلك الشهود اتصالا يقينيا بالحق عز وجل وهذا الاتصال باليقين أى بحق اليقين لا يترك للسالك سبيلا للتعريج على الأغيار والرسوم التى هى حجب عن ذلك التحقيق والكشف ثم قال الشيخ وإما تفريد الإشارة بالحق فعلى ثلاث درجات : تفريد الإشارة بالافتخار بوحا أى يعتز ويفتخر فى نفسه بفضل ربه بوحا وسرورا وهذا فخر ذاتى فى الشخص بحاله وليس فخرا على غيره من الناس بما هيأه له الله من التقريب ثم قال وتفريد الإجارة بالسلوك أى تفريد الإشارة إلى الحق بواقع السلوك مطالعة لا علما ولا وصفا ولا فخرا .

ثم قال وتفريد الإشارة بالقبض غيره أى تفريد إشارته إلى الحق بالتقصى عما سوى الله شهودا فيخفى مامن الله عليه به عن البوح به غيرة .

ثم قال وأما تفريد الإشارة إلى الحق فانبساط ببسط ظاهر أى انبساط فى حضرة الحق لوجود الشهود على أن يكون هذا البسط متضمنا قبضا فى الظاهر قبضا خالصا من البسط خاص أهل الهداية إلى الحق وذلك القبض يعبر عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر اللذان هما أقرب إلى القبض منهما إلى البسط ولذلك جعله الشيخ قبضا للهداية إلى الحق (أى لأجل الدعوى إليه دعوة خالصة لوجهه تعالى .

وأنشدوا :

تجلت لوحدانية الحق أنوار … فدلت على أن الجحود هو العار
وأغرت بداعى الحق كل موحد … بمقعد صدق ولحبذا الجار والدار
وأبدت معانى ذاته بصفاته … فلم يحتمل قلب المحبين انكار
تراءى لهم فى الغيب جل جلاله … عينا فلم يدركه سمع وأبصار
معان تعقل العقل والعقل ذاهل … فاقباله فى برزخ هذا البحث أدبار

وكيف يحيط الكيف مقدار حده ... وليس له فى الكيف حد ومقدار
وأين محل الأين منه ولم يكن ... مع الله غير الله عين وآثار
فسبحان من تعنو الوجوه لوجهه ... ويلقاه رهن الذل من هو جبار
ومن كل شيء خاضع تحت قهره ... تصرفه بالطوع والقهر أقدار
أضاء قلوب العارفين بنوره ... فباحت بأحوال المحبين أسرار
فذاك الذى نضرع إليه توكلا ... ويعصى وهو بالحلم ستار
فايدى الرجاء يقرعن أبواب جوده ... فتمحى أساءات وتغفر أوزار
تسبح ذرات الوجود بحمده ... ويسجد بالتعظيم نجم وأقمار
ويبكى غمام الغيث طوعا لأمره ... فتضحك مما يفعل الغيث أزهار
إلهى أذقنى برد عفوك واهدنى ... إليك بما يرضيك فالدهر غدار

* * *

باب الجمع

قال الله تعالى (ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى) ثم قال الشيخ الجمع ما أسقط التفرقة وقطع الإشارة وشخص عن الماء والطين بعد صحة التمكين والبراءة من التلوين والخلاص من شهود الاثنينية والتفانى عن الإحساس بالاعتلال والتفانى عن شهود شهودها وهو على ثلاث درجات .

جمع علم ثم جمع وجود ثم جمع عين فأما جمع العلم فهو تلاشى علوم الشواهد فى العلم اللدنى صرفا وأما جمع الوجود فهو تلاشى نهاية الاتصال فى عين الوجود محقا وأما جمع الجمعين فهو تلاشى كل ما نقلته الإشارة فى ذات الحق حقا والجمع غاية مقامات السالكين وهو طرف بحر التوحيد .

أما شاهد الشيخ فى الآية فمراده أى مراد الله والفعل كله عائد إلى الله فى الحقيقة حيث لا فعال فى حقيقة الأمر سواه .

وأما قول الشيخ الجمع ما أسقط التفرقة وقطع الإشارة وشخص عن الماء والطين فمعناه أن الجمع نقيض التفرقة ضرورة وإذا حصل شهود الجمع سقط تلوين التفرقة وبهذا يقطع الجمع كل إشارة إليه لأن الإشارات متفرقات متفاوتات والاشارة إلى عين واحدة والجمع يسقط التفرقة ويقطع الاشارة متى ؟ إذا شخص المشاهد لهذا الجمع عن الماء والطين أى فارقه أعراضا وترفعا عنه والتورية بالماء والطين هنا إشارة إلى الجسد ومنه إلى سائر الأجسام والأشياء المكونة من ماء وطين ومتى يشخص الإنسان فى معرفته وشهوده عن الماء والطين أعراضا — إذا صح التمكن وأصبح السالك فى مقام التمكين وبذلك تحصل له البراءة التامة من التلوين كما يقول الشيخ رضى الله عنه ، وبهذا وذاك يحصل للسالك الخلاص من شهود الاثنينية وهى نقيض التوحيد وفيها مباينة الحقيقة وخطأ المعرفة واستحكام الحجاب والمراد بالاثنينية هنا أن يرى العبد التأثير للأسباب فى الوقت الذى يشهد المسبب فترى فعلا لله وفعلا لخلقه وفعلا لنفسه فتأثيرا لغيره وهكذا والمراد فى الإسلام والإيمان والإحسان أى فى الشريعة والطريقة والحقيقة هو التوحيد الخالص الذى جاء به محمد بن عبد الله رسول الله من عند الله فالتوحيد الخالص يخلص من التنافى والاعتلال واستحكام الحجاب ويجمع التفرق ولا يحدث هذا إلا بتخليص الإحساس والشعور واليقين القلبى للسالك من ذلك التنازل والتنافى خلوصا إلى شهود التوحيد .

ثم قال الشيخ وهو أى الجمع على ثلاث درجات .

جمع علم ثم جمع وجود ثم جمع عين وعرف الشيخ ما وضعه تحت تلك الدرجات من ألفاظ فعرف الجمع الأول بأنه جمع علم أى العلم بمقام الجمع

وليس شهوده بعين اليقين أو بحقه وهذا وأن أحدث العلم بالطريق فهو لا يحدث وجود الشهود اليقيني الحق . وقال الشيخ ثم جمع الوجود وهو الجمع الموصل للحقيقة لما فيه من قوة الشهود وعرفه بأنه تلاشى نهاية الاتصال بالخلق فى عين الوجود لأن السالك إذا وصل لمقام شهود الوجود الحق تلاشت فى منهج عرفانه معانى الاتصال والانفصال والقرب والبعد محقا كليا لتصحيح اليقين بشهود عين الوجود ثم قال وأما جمع العين فهو (تلاشى كل ما تقله الإشارة فى ذات الحق حقا) وذلك لأن شهود اليقين مباين للاشارة ويفنى فيه المشاهد فى المشهودوهذا إن أضيفت إليه الإشارة لا يخلو من معانى الاثنينية ولو على صورة رمزية وذلك بسبب وجود الرسم رسم المشاهد مع وجود المشهود ولهذا السبب وصف الشيخ جمع العين بأنه التلاشى أى الملاشاة لكل ما تقله أى ما تحمله الإشارة الناشئة عن وجود الرسم فتلاشى ذلك فى ذات الحق حقا هو الكمال أى كمال المعرفة ولذلك قال الشيخ والجمع أى وهذا الجمع المنشود هو غاية مقامات السالكين وهو طرف بحر التوحيد أى ساحله الذى يرده من يخوض بحر التوحيد حتى يصل إلى الغرق إلى أن يحصل الصحووهو فيه الكمال وهومقام الجمع الحقيقى فيصبح السالك المعاين لكل هذا بعين الصحو والتمكين عارفا حقا — ومشاهدا للحق صدقا .

وأنصدوا فى أول هذا المقام من قول أبى الحسن الصباغ :

بقائى فنـاء فى بقائى مع الهوى — فياويح قلب فى فنـاء بقاؤه
وجودى فنـاء فى بقاء فانى — مع الأنس يأتينى هنيئا بلاؤه
فيا من دعا المحبوب سراً لسره — أتاك المنى يوم اللقاء بقاؤه

وأنشدوا فى منتهى هذا المقـام

الله ربى لا أريد سـوـاه — هل فى الوجود الحق إلا الله

ذات الإلهى الحق فيها قوام ذواتنا ‏ هل كان يوجد غيره لولاه
لا غرو فى أنا رأيناه به ‏ فالنور يظهر ذاته فتراه
فالسالكون مشاهدون لصنعه ‏ مستغرقون بفكرهم فى ضياه
والعارفون مشاهدون لذاته ‏ حتى كأن قلوبهم مثواه
يا غائبا والحق فيه حاضر ‏ أتغيب عنه وما شهدت سواه
من لم يشاهد بالبصيرة ذاته ‏ فلقد أحاط به حجاب عماه

* * *

باب التوحيد

قال الله عز وجل (شهد الله أنه لا إله إلا هو) .

وقال الشيخ رضى الله عنه التوحيد تنزيه الله تعالى عن الحدث وإنما نطق العلماء بما نطقوا به وأشار المحققون بما أشاروا إليه فى هذا الطريق لقصد تصحيح التوحيد .

ثم قال التوحيد على ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : توحيد العامة . وهو الذى يصح بالشواهد .

الوجه الثانى : توحيد الخاصة . وهو الذى يثبت بالحقائق .

الوجه الثالث : توحيد قائم بالقدم وهو توحيد خاصة الخاصة .

فأما التوحيد الأولى : فهو شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وهذا هو التوحيد الظاهر الجلى الذى نفى الشرك الأعظم وعليه نصبت القبلة وبه وجبت الذمة وحقنت الدماء والأموال وانفصلت دار الإسلام عن دار الكفر وصحت به الملة من

العامة وإن لم يقوموا بحق الاستدلال بعد أن سلموا من الشبهة والحيرة والريبة بصدق شهادة صححها قبول القلب (لا إله إلا الله محمد رسول الله . وهـــذا توحيد العامة الذى يصح بالشواهد والشواهد هى الرسالة والصنائع الالهية التى تجب بالسمع وتوجد بتبصير الحق تعالى وتنمو على مشاهدة الشواهد .

وأما التوحيد الثانى التى يثبت بالحقائق فهو توحيد الخاصة وهو إسقاط الأسباب الظاهرة والصعود عن منازعات العقول وعن التعلق بالشواهد وهو ألا يشهد فى التوحيد دليلا ولا فى التوكل سببا ولا فى النجاة وسيلة فيكون مشاهدا لسبق الحق تعالى للعقل بحكمه وعلمه ووضعه الأشياء مواضعها وتعلقه إياها بأحايينها وإخفائه إياها فى رسومها ويحقق الموحد معرفةالعلل ويسقط سبيل إسقاط الحدث وهذا توحيد الخاصة الذى يصح بعلم الفناء ويصفو فى علم الجمع ويجذب إلى توحيد أهل الجمع .

وأما التوحيد الثالث فهو توحيد من اختصه الحق تعالى لنفسه واستحقه لقدره وألاح منه لائحا إلى أسرار طائفة من صفوته وأخرسهم من نعته وأعجزهم عن بثه والذى يشار به إليه على ألسن المشيرين أنه إسقاط الحدث وإثبات القدم على أن هذا الرمز فى ذلك التوحيد عليه لا يصلح التوحيد إلا بإسقاطها وهذا قطب الإشارة على ألسن علماء هذا الطريق وأن زخرفوا له نعوتا وفصلوا فيه فصولا فإن ذلك التوحيد تزيده العبارة خفاء والصفة نفورا والبسط صعوبة وإلى هذا التوحيد شخص أهل الرياضات وأرباب الأحوال والمقامات وإليه قصد أهل التعظيم وإياه عنى المتكلمون فى عين الجمع وعليه تصطلم الإشارات ثم لم ينطق عنه لسان ولم تشر إليه عبارة فإن التوحيد وراء ما يشير إليه مكون أو يتعاطاه حين أو يقله سبب وقد وأجبت فى سالف الزمان سائلا سألنى عن توحيد الصوفية بهذا القوافى الثلاث نظما .

ماوحد الواحـــد من واحد إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نعتـــه عبارة أبطلها الواحـــد
توحيـده إياه توحيـــده ونعت من ينعته لاحـــد

ثم قال الشيخ رضى الله عنه والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم استشهد الشيخ فى أول هذا الباب : باب التوحيد بقوله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو) ووجه استشهاده واضح ظاهر بل أظهر من الظهور وأبين من كل شىء وضوحا لأنه الحق ثم عرف الشيخ التوحيد بتنزيه الله تعالى عن الحدث أى أفراده سبحانه وتعالى بالوجود الحق وشهادة أن كل ماسواه فى مجموعه إنما هو حادث مخلوق بإرادته وفعله وبخصائص أسمائه وأفعاله ولذلك فلا يصح الوجود الحق إلا له سبحانه وتعالى ولهذا نفسه قال الشيخ وإنما نطق العلماء بما نطقوا به وأشار المحققون بما أشاروا إليه فى هذا الطريق بقصد تصحيح التوحيد أى التوحيد الصحيح الخالص من كل ضروب الشك والشرك ثم قال والتوحيد على ثلاثة أوجه .

الوجه الأول : توحيد العامة ويريد بالعامة سواد الناس وغالبيتهم وهو الذى أى ذلك التوحيد يصح بالشواهد وهذا هو الوجه الأول .

ثم قال والوجه الثانى : توحيد الخاصة وهو الذى يثبت بالحقائق أى الحقائق المشهودة فى الكائنات للقلوب والعقول لا بمجرد الشواهد والأفكار القائلة بثبوتها بل بالحقيقة مع اليقين بها .

ثم قال والوجه الثالث : توحيد قائم بالقدم وهو توحيد خاصة الخاصة وذلك التوحيد قائم فى القلوب بموجبات الفطرة السليمة والبصر القلبى الموجب لاستكشاف الحق الخالص المتحجب بأستار المظاهر الوجودية ولذلك كان هذا التوحيد أى التوحيد فى الوجه الثالث قائما بالقدم أى مستمدا

بواسطة نور الله القديم المنشع فى الفطر السليمة والقلوب المستقيمة وذلك فى سائر ضروب الفطر وكل على قدر استعداده واستمداد صحة المعتقد من ساطع نور الحق .

ثم قال الشيخ فأما التوحيد الأول : فهو شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ثم قال هذا هو التوحيد الظاهر الجلى الذى نفى الشرك الأعظم وعليه نصبت القبلة وبه وجبت الذمة وحقنت الدماء والأموال وانفصلت دار الإسلام عن دار الكفر وبه صحت الملة من العامة وإن لم يقوموا بحق الاستدلال بعد أن سلموا من الشبهة والحيرة والريبة بصدق شهادة صححها قبول القلب ثم قال هذا توحيد العامة الذى يصح بالشواهد والشواهد هى الرسالة والحقائق الوجودية وقد وجدت بالسمع وتبصير الحق تعالى وتنمو على مشاهدة الشواهد .

هذا أما قول الشيخ : هذا هو التوحيد الظاهر الجلى الذى نفى الشرك الأعظم وعليه نصبت القبلة وبه وجبت الذمة إلى قوله وصحت به الملة من العامة فهو قول ظاهر جاء به الدين الحنيف ونطقت به أصوله كتابا وسنة .

ثم قال (وأن لم يقوموا بحق الاستدلال بعد أن سلموا من الشبهة والحيرة والريبة بصدق شهادة صححها قبول القلب) إنما سلموا من الشبهة والحيرة والريبة لأنهم سلموا مع الإسلام بشهادة أن لا إله إلا الله الواحد الأحد الذى لاشريك له ولا نظير وهى الشهادة الصحيحة التى عبر عنها الشيخ بصدق الشهادة تلك الشهادة التى صححها قبول القلب لها فلا تحتاج إلى الشواهد وذلك لأنها شهادة جبلت عليها القلوب وسقيت بها الفطر منذ مغرسها وهذا القول السليم يتضمنه قول الرسول الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فى سنته المطهرة حيث قال (كل مولود يولد على دين الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه) وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال الشيخ وهذا توحيد العامة أى توحيد العموم

المغروس فى الفطرة والذى يصح بالشواهد . ثم عرف الشيخ تلك الشواهد بأنها الرسالة والصنائع أما الرسالة فهى رساله الإسلام كما هو معلوم وأما الصنائع فيريد بها الشيخ صنع الحق فى إبداع الخلق : تلك الشواهد والدلائل التى وجبت بالسمع أى بما جاء مسموعا عن الله ورسوله فى الملة الإسلامية ثم قال الشيخ وتوجد بتبصير الحق تعالى وذلك لموافقة بصيرة القلب لما جاء من عند الله من الحق وهى الشهادة الخالصة المخلصة : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) ولذا كان الاعتقاد بتلك الشهادة ينمو كما يقول الشيخ على مشاهدة الشواهد والدلائل (وهى القرائن) التى تدل عليها وتشهد بصحتها .

ثم قال الشيخ رضى الله عنه وأما التوحيد الثانى الذى يثبت بالحقائق أى بالحقائق الغيبية الملهمة الملزمة لأنها تهبط من الله على القلوب السليمة فتوقن بها ولسلامة القلب بالنسبة للمعتقد السليم أهمية كبرى وحسبك أن وصفها الله تعالى فى كتابه بقوله (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) أى سليم من سوء المعتقد وسوء الظن وسوء الخلق وسوء السلوك نحو الحق وذلك التوحيد قد وصفه الشيخ بأنه توحيد الخاصة وهو بالضرورة أشد خلوصا وبيانا من التوحيد الأول الذى قام بالشواهد والأدلة وأما هذا فإنه قام على السلامة والتسليم سلامة القلوب كما يقول الشيخ من رؤية للأسباب الظاهرة أى إسقاط رؤيتها مع واقعيتها والأسباب الظاهرة كزرع الزارع وعلاج المعالج وهبة الواهب وما إلى ذلك على أن الزارع فى الحقيقة والشافى هو الله والواهب هو الله وما بقى فأسباب هو مسببها وخالقها وهذا معنى إسقاط الأسباب الظاهرة فى قول الشيخ وهو إسقاط رؤيتها واقعا بجانب الحق لأنها أسباب بإيجاد الحق موجوده فالله موجدها ومسببها . وبهذا التوحيد كما يقول الشيخ يحصل الصعود فى منازعات العقول وعن التعلق بالشواهد لأن الشاهد هنا لا يشهد فى التوحيد دليلا كما يقول

الشيخ ولا فى التوكل سببا ولا فى النجاة وسيلة وذلك لأن الدليل هنا خاص بإخبار الله تعالى والتوكل هنا توكل على الله لا على السبب والنجاة هنا تدعو إلى خالق الوسيلة لا إلى الوسيلة المخلوقة وبهذا التوحيد وذلك يكون المشاهد والموحد ناظرا فى سائر الأسباب بسبق الحق تعالى بحكمه وعلمه وبالنظر إلى وضعه الأشياء فى مواضعها وتعليقه إياها بأحايينها وإخفائه كما يقول الشيخ إياها فى رسومها أى الرسوم القائمة بها وبهذا يحقق المشاهد المستدل معرفة العلل والمعلولات فيسلك بذلك سبيل إسقاط الحدث وهو توحيد الخاصة الذى يصح كما يقول الشيخ بعلم الفناء أى فناء ما يزول فى ظل بقاء من لم يزل وليس هذا فقط وإنما يصفو به أيضا مقام الجمع ولنوضح هنا للقارىء ولو بألفاظ قليلة بحسب المقام معنى الفناء والبقاء والجمع فنقول :

أما الفناء : فهو فناء ما سوى الله فى بقاء الله لأنه أوجد بالله حين أوجد ويفنى فى أفعال الله حين يشاء الله له أن يفنى وبذا يتضح لنا أن البقاء الحق هو لله عز وجل .

وأما البقاء : فيوضحه معنى الفناء . لأنه نقيضه وأن كل فان لا بد له فى إيجاده من طرف باق هو علته وذلك الطرف هو فعل الله وإبداعه وبهذا يعود بقاؤه إلى بقاء الله ووجوده إلى وجود الله وما عدا ذلك فيضاف الى الفناء لأنه سيفنى وهذا الذى قلناه يوضح معنى الفناء والبقاء .

وأما الفرق والجمع ، فالجمع كل ماينسب إلى الحقيقة الجامعة وهو وجود الحق عز وجل والفرق هو كل ما تفرق من الأسباب أو العلل والمعلومات كفلان نفعنى وآخر ضرنى وطبيب عالجنى ومريض عدانى فأمرضنى وزيد أنعم على وعمر وسلبنى نعمتى .. الخ وهذا كله فرق وهو بحث عن الأعراض والرسوم وجعل المعلولات عللا والوسائل أصولا وذلك تشتت وتفريق فى الحقيقة فهو بالضرورة نقيض الجمع .

ومن معانى الجمع جمعية القلب على الله بإسقاط رؤيةالنفس وما تقتضيه تلك النفس من رســـوم فانية ومن تعلق بها يتفرق عن الله ومن حاربها وتخلص منها يجمع عليه بقلبه وهذا معنى سلوك طريق الله ومحتواه إرادة السلوك والسير حتى ينخلع السالك عن رؤية الفرق إلى التحقق بشهود الجمع فيتخطى بذلك المقامات التى أولها التوبة وآخرها الرضى ثم الأحوال التى أولها الشوق وأوسطها الحب وآخرها الجمع بعد الفرق وهذا هو التوحيد الثانى فى رأى الشيخ وهو ممهد إلى التوحيد الثالث الذى هو أرقى ذاتاً وموضوعا من توحيد العامة ومن توحيد الخاصة وقد قال فيه الشيخ أما التوحيدالثالث فهو من توحيدمن اختصهم الحق تعالى لنفسه واستحقاقهم لقدره أى توحيد لا يعلمه إلا هو قد استحقه بكماله وجلاله وذلك ما يجعله له قدراً ولهم مستمدا من عظمته المتوحدة بحيث لا يصل إليه علم أو معرفة لاختصاص الحق به لنفسه وفقط يلوح منه لائح إلى أسرار طائفة من صفوته اى أحبابه . الذين تقدم ذكرهم اختارهم لمعرفته فهم أولياؤه وأصفياؤه أزلا ومن قبل خلقهم . وقال الشيخ وأخرسهم عن نعته وكيف ينعتون شيئاً اختص الله به ذاته وأعجزهم ضرورة عن بثه لغيرهم إلا بالإيماء والإشارة والرمز ثمقال الشيخوالذى يشاربه إليهعن ألسن المشيرينأى وكل ما يشار به من كلام تلك الطائفة إنما هو منحصر فى إسقاط الحدث وثبات القدم رمزاً أو تورية لأنه أمر لا تصل إلى حقيقته العبارة ولا تشير إلى تحقيقه الإشارة لما تقدم من أن الله اختصه بواسع علمه . ولذا قال الشيخ على أن هذا الرمز فى ذلك التوحيد علة لأنه استعارة يراد بها أمراً غير ما تشير إليه فى ذاتها فلا يصح ذلك التوحيد كما يقول الشيخ أى التوحيد الخالص إلا بإسقاطها أى الإشارة والتورية وهى علل ثم قال الشيخ وهذا قطب الإشارة إليه أى التجريد على ألسن علماء هذا الطريق أى أنهم حينما يشيرون إليه بعبارة أو بإشارة يعلمون أنهم يستعملون التورية والمجاز فى ذلك لأن الإشارة وهى دالة على الحس والعبارة وهى تضيق عن التعبير عن

ذلك المعنى الإلهى المتسامى هم يعلمون حق اليقين أنها لا تصل إلى هذا المقام بالذات وإنما هى تعبير مجازى عن حقيقة أسمى من جميع الحقائق وجامعة لها ثم قال الشيخ وإلى هذا التوحيد أى وإلى مثل هذا التوحيد الخالص شخص أهل الرياضات والأحوال والمقامات ومعنى شخصوا أى توجهوا أو يقصدوا ثم قال وأرباب الأحوال والمقامات أى قصد إليه أيضاً أهل التعظيم .وإياه عنى المتكلمون فى عين الجمع وعليه تصطلم الإشارات ومعنى الإصطلام هنا التصادم والتنازع ثم لم ينطق عنـــه لسان أى عن حقيقته الذاتية لعدم تمكنه وأنها حقيقة الجمع والتوحيد الحق ولم تشر إليه عبارة ولن تصل إليه الإشارة ثم يقول الشيخ فإن التوحيد الحق وراء مايشيرون إليه وهذا ما وضحناه سابقاً من قولنا إن الإشارة إلى هذا المقام لا تتأتى لمشير إلا من طريق المجاز أوالتورية ولذا قال الشيخ إن هذا وراء ما يشير إليه مكون أى مخلوق صاحب حيز أو يقبله سبب لأن هذه الأمور كلها تسقط عند تفريد الجمع وجلال التوحيد ولا يبقى من ذلك كله سوى نور البصيرة وهداية الحق .

وهذا ويعزون إلى الشيخ رضى الله عنه وهو الفقيه المفسر الصوفى الداعى إلى الله على بصيرة : يعزون إليه ثلاثة أبيات لا نظن إلا أنها مدسوسة عليه لأن — القارىء فضلا عن مقام الشيخ فى العلم بالشريعة والحقيقة قد صاحبنا أى القارىء فى رحلة شرح كتابه (منازل السائرين إلى الحق) وقد أحس القارىء معنا بعلو كعبه فى العلم الدينى والمنهج الصوفى ثم يعزون إليه أبياتاً لا تأتى إلا من حلولى قائل بوحدة الوجود فى توحيده أى جمع الخالق والمخلوق فى كيان واحد أو حلول الخالق فيما خلق وإلى القارىء الأبيات التى زعموا أن الشيخ جعلها رداً على سائل سأله وهى : —

ما وحد الواحد من واحد إذ كل من وحـــده جاحد

توحيد من ينطق عن نعته عبـــارة أبطلها الواحد

توحيده إياه توحيده ونعت من ينعته لاحد

هذا وكنا نجد للأبيات مصوغا لو اعتبرنا أن قائلها يريد بها تنزيه الحقيقة الإلهية عن كل عبارة نعت على أن الكتاب (القرآن) بل الكتب السماوية كلها يكون توحيد من ينطق عن نعته عبارة أبطلها الواحد . وقد علمنا تلك الصفات والخصائص من نعت الكتب الإلهية لها ولا سيما القرآن الكريم وكيف يكون كل من وحد الواحد جاحداً والدين الإسلامى والشيخ إمام فيه قد قام على هذا التوحيد فكيف يكون ذلك حالة أن الشيخ من أئمة المفسرين وكان يوما شيخاً للإسلام وأنه من أهل السنة أيضاً وحنفى المذهب. فاذا صح فى الأبيات الثلاثة شطرا واحدا وهو (توحيده إياه توحيده فانه يعكسه عن تلك الصحة شطره الآخر وهو قوله (ونعت من ينعته لاحد) والنتيجة أن شيخ الإسلام ابن إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى الهروى المفسر الفقيه الحنبلى الصوفى برىء من مثل هذه الأبيات وأمثالها براءة الذئب من دم ابن يعقوب ويكون قد وضع الأبيات ودسها على الشيخ أحد الشواذ من حلولى الصوفية — أو القائلين بوحدة الوجود أى وحدة الخالق من الحق . وهذا خطأ اقتبسه المتأخرون عن الفلاسفة اليونانيين وعن الأفلاطونية الحديثة أو البوذية الهندوكية أو المجوسية الفارسية بالذات وهى نحلة من شواذ المتصوفة أو عقيدة يبرأ منها أهل طريق الله وننزه عنها ولكى يرى القارىء فى الختام الفرق بين التوحيد الصوفى الإسلامى الحق والتوحيد الحلولى الوجودى فيقول : إن توحيد الكمل من أئمة الصوفية والواصلين إلى الحق إنما هو توحيد للشهود لا للوجود (ومعنى توحيد الشهود إفراد الحادث من القدم وتنزيه الذات عن الملابسة والالتباس) وتجريد لذات الحق من النماذج المشوبة بالخلق عدا الصلة الخالصة : صلة العبد بالرب والمخلوق بالخالق والمحب بالمحبوب ثم شكر معتنق النعم للمنعم عليه وعبادته وحبه تقديراً لمنته وفضله ونعمه وأفضلها جميعاً التوحيد الخالص الذى جاء

به الإسلام (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحي ويميت وهو على كل شيء قدير) والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين) .

هذا وقد أنشد العارفين بالله الكمل قائلا:

هوت المشاعر والمدا ... رك عن معارج كبر يائك
يا حى يا قيوم قد ... بهر العقول سنا بهائك
أنى عليك بما علمـ ... ـت وأين علمى من ثنائك
متحجب فى غيبك الأ ... سمى منيع فى علائك
وظهرت بالآثار والأ ... فعال باد فى جلائك
عجبا خفاؤك أو ظهو ... ر من خفائك
ما الكون إلا ظلمة ... قبس الأشعة من ضيائك
وجميع ما فى الكو ... نين مستمد من بقائك
وكل ما فيه فقـ ... ـير مستميح من عطائك
ما فى العوالم ذرة ... فى جنب أرضك أو سمائك
إلا ووجهتها إلـيـ ... ـك بالافتقار إلى غنائك
إنى سألتك بالذى ... جمع القلوب على ولائك
نور الوجود خلاصة الكو ... نين صفوة أنبيائك
ألا نظرت لمستغيث ... عائذ بك من بلائك

ونختتم هذا البحث أخيراً بما أنشده أحمد بن عطاء الله السكندرى بين يدى أبى العباس المرسى رضى الله عنهما فى حقيقة المعرفة بمعرفة الواصلين إلى حضرة رب العالمين يوصى بها السالكين :

خذ من كلامى ما يلذ جناه ❊ وينم كالمسك العبيق شذاه
ذكر الإله الزم هديت لذكره ❊ فيه القلوب تطيب والأفواه
واجعل حلاك تقاه إن أخا الحجى ❊ ياصاح من كانت حلاه تقاه
ولتعمل الأفكار فى ملكوته ❊ مستغرقا فى الكشف عن معناه
ولتخلع النعلين خلع محقق ❊ خلواً من الكونين فى مسراه
وإذا بدأ فاعلم بأنك لسته ❊ كلا ولا أيضا تكون سواه
سيان ما اتحدا ولكن ها هنا ❊ سر يضيق نطاقنا عما هو
أنى يغيب وليس يوجد غيره ❊ لكن شديد ظهوره أخفاه

تم بعون الله وتوفيقه

نسب سيدنا ومولانا السيد محمود ابو الفيض

المنوفى رضى الله عنه

الحمد لله الذى شرف آل بيت نبينا وجعل لهم نوراً ساطعاً وبرهاناً منيرا وألبسهم خلع البهاء والكمال وحلاهم بالتقى وحسن الخصال ومدحهم فى كتابه العزيز الذى أنزله على جدهم صلى الله عليه وسلم فكان للناس بشيراً ونذيرا وتعظيما لشأنهم وتوقيرا قال تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) نحمده سبحانه الذى شرفنا بهم وجعل شيخنا رضى الله عنه من أصلابهم ومن أسباط النبى وذريته وجعلهم وارثين لنوره الذى خصص بعترته الطيبة الطاهرة وهدانا إلى العمل بكتاب الله وسنته وأتم نعمته علينا ورضى لنا الإسلام دينا وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبد مقصر فى شكره ضعيف عن حمل أمانته إلا أن يعينه ويؤيده ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ذلك النبى الكريم الذى كان لحنانه وتعاطفه وتودده وتواضعه يحمل أحياناً الحسن والحسين على ظهره أو يجلسهما على حجره وعلى آله الذين صدقوا ما عاهدوا عليه الله ولم يغيروا تغييرا .

وبعد فهذه نسبة علوية وشجرة قرشية أصلها ثابت فى الأرض وفرعها فى السماء .

وقد جعل الله شيخنا بفضله وعنايته وبرحمته منه فرعا من تلك الشجرة الزاهرة وهذا نسبه رضى الله عنه مستخرجا من بحر الأنساب المودع بنقابة الأشراف . فهو السيد محمود أبو الفيض وأخوه ابراهيم وحسن أبناء السيد على بن السيد عمر بن السيد ابراهيم أو ماضى بن السيد ماضى بن السيد موسى ابن السيد جعفر بن السيد الأمير حمد بن السيد أبو الجعافر بن السيد يوسف المغربى بن السيد ابراهيم بن السيد عبد المحسن الفاسى بن السيد حسن بن السيد

محمد بن السيد موسى بن السيد يحي بن السيد عيسى بن السيد على التقى بن السيد الإمام محمد المهدى بن الإمام حسن العسكرى بن السيد على الهادى بن السيد الإمام على الرضا بن السيد الإمام موسى الكاظم بن السيد الإمام جعفر الصادق بن السيد الإمام محمد الباقر بن السيد الإمام على زين العابدين بن السيد الإمام الحسين على بن أبى طالب وابن السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مولده رضى الله عنه

ولد أستاذنا ومولانا السيد محمود أبو الفيض المنوفى بمدينة منوف من مديريات مصر ومن عائلة تنتمى إلى السادة الأشراف عن طريق سيدنا الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه وابن السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنها . ولد فى ٢٣ ذو القعدة عام ١٣٢١ هـ الموافق ٣١مايو ١٨٩٢ م ونشأ فى بيت علمى وكان والده من كبار رجال الأزهر والقضاء وعمه كان من كبار رجال الله الصالحين ومن صلاح الأسرة وهبوا المولود وهو سيدنا ومولانا السيد أبو الفيض المنوفى « لله » ولما وجد فيه من مخايل الخير والميل للحق ولذلك بحث عن أحد كبار مشايخ الطرق إلى الله فى كل مكان ليبايعه لأن الله أمره وأخبره باسمه ومكانه فى المنام بواسطة النبى صلى الله عليه وسلم فجاءه واستأذن والده فى مبايعة نجله الكريم على عهد الله وميثاقه فرحب الوالد وأذن له بكل سرور وكان يومئذ سيدنا ومولانا صغيرا فبايعه الشيخ وباركه وأوصى والده خيرا بولده المبارك ومن هنا وجهته العناية الإلهية إليها . فأحب الحقيقة فتى وتعرف إليها شابا . وأتاه الله الحكمة كهلا وتراءت له أعتاب الألوهية شيخا ولا مطلب له من الله فى الدارين إلا تمام العفو والعافية والرضى الإلهى فى الحياتين وذلك حسبه وكفى . فهذا هو المنى والحمى والسعادة العظمى

فاللهم اعطه ما سأل فهو أكرم الخلق علينا فى هذا العصر وأكرمنا بكرامته وبارك لنا فيه كما باركت على سيدنا محمد وعلى آل محمد يارب العالمين .

فالسيد محمود أبو الفيض المنوفى أول داع فى الديار المصرية بعد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده للاصلاحين الدينى والاجتماعى وأول مؤسس مجلة إسلامية فى ذلك العهد حيث لا مجلات ولا جماعات إسلامية وهى مجلة لواء الإسلام عام ١٩٢٢ وأن الأزهر بعد صدور لواء الإسلام بمدة أصدر نور الإسلام ثم مجلة الأزهر ثم أصدر الأستاذ أمين عبدالرحمن مجلة الإسلام بعد ذلك وقد عين سماحة مؤسس الفيضيين شيخا لعموم السادة الفيضية سيخا لعموم السادة الفيضية الشاذلية بالبلاد المصرية حين ذاك وكان يعقد المحاضرات بدار الفيضيين بشبرا بشارع الترعة البولاقية ويحضرها صفوة الفضلاء من أولى التصوف والعلم والأدب وذلك من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٢٦م وفى عام ١٩٢٧ م أسس الكلية الصوفية والفلسفية بعمارة زغيب بميدان الأوبرا بالقاهرة إلى عام ١٩٣٣ م وأهداها السيد الأستاذ إلى أحمد حمزة ثم أصدر بعدها « مجلة البهلول » وهى مجلة فى ظاهرها التنكيت وفى باطنها الحكمة والتبكيت ثم أصدر بعدها « العالم الإسلامى » وتصدر إلى الآن . وهى مجلة دينية علمية فلسفية تجمع بين هدى الإيمان ونور العرفان، والتوصل بقرائها الدائمين إلى المعرفة الحقة فضلا عن أنها لسان حال الطرق الصوفية قبل إصدار مجلهم المعروفة وبعد إصدارها صارت معاونة لمجلتنا فى مضمار الخير . والآن نذكر لكم أيها السادة طرفا من أخلاقه وبعض سجاياه بقدر ما نستطيع وكذلك بعضا من آدابه وحكمه وأقواله النفسية والأخلاقية والدينية والعلمية والصوفية وكذلك عن تعبيره عن الحقيقة الكبرى فى (كتاب الوجود) وكتاب (وحدة الدين والفلسفة والعلم) على هامش كتاب الوجود وله غير ذلك مؤلفات عديدة ، وأما عن حياته فليست كحياة العلماء والمفكرين وإنما هى حياة عبد خصه الله بشىء لم يختص به كثيرين من عباده من فتوح وإلهام وفيوضات إلهية لأنه خلق

ليعرف الحقيقة ويدعو الناس في كل الميادين من ميدان الصحافة وميدان الفن ومن ميدان الدين وميدان الفلسفة والعلم وذروة هذا كله ميدان التصوف الذي بز فيه أهل عصره لأنه علم من أعلام رجال التصوف فجزاه الله عنا وعن الأمة الإسلامية والعالم أجمع خير الجزاء . وقصدي من ذلك كله أن نعرف شيخنا في علمه وجهاده وإذا أردنا أن نعرفه حق المعرفة فنتوجه إلى الله تعالى عن طريق التصوف نجده هناك علما وهذا حسبي وكفى .

أما الكلام عن أخلاقه فعلمنا بها كما يأتي:

يا كاسي الأخلاق في زمن عن الأخلاق عاري
يا عاشق الحق الصريح وشانىء الخلق المواري
لم يجر في ناديك هجـ ـر القول أوخلق المداري
جم التواضع والتوا ضع آية القوم الكبار

وأما عن الحلم والعدل والكمال . فمثله مثل قول القائل :

لقد عاشرتنا فلبثت فينا مثالا للنزاهة والكمال
بحلم كان محمود المزايا وعدل كان ممدود الظلال

أما عن زهده فمثل قول القائل :

يامن صدفت عن الدنيا وزينتها فلم يغرك من دنياك مغريها
ماذا رأيت بأهل مصر حين رأوا أن يلبسوك من الأثواب زاهيها
فصحت ياقوم كاد الزهو يقتلني وداخلتني فيه حال ليس أدريها
وكاد يصبو إلى دنياكم (أملي) ويرتضي بيع باقيها بفانيها

اما عن الإفادة والاستفادة والتعليم وعن أهمية كتاب الوجود نقول :

بالأمس قد علمتنـــا أدب الكتابة والحوار
واليوم قد ألطفتنـــا بالطيبات من الثمار

بكتابك في الوجود صنو الحقيقة والمنـــار
جاهدت في تفصـــيله وواصـلت ليلك بالنهار

أما عما فيه من عطف ورحمة فمثل قول القائل :

في طي شدته أسرار مرحمة للعاملين ولـكن ليس يغشـيها
وبين جنبيه في أوفى صرامتـــه فؤاد والدة ترعى ذراريها

هذا ويحدثنا أستاذنا عن السعادة فيقول :

إن كـنت من الباحثين عن السعادة ، الراغبين في الحـكمة ، الطامعين في رضاء الحق فاصغ لأسألك هل أنت عالى الهمة وثاب العزيمة ؟ هل أنت صادق القول والعمل هل أنت مستقيم الطبع وسـليم الفطرة ؟ هل تحب الله فوق كل شيء ؟ فان لم تـكن هكذا فـكن ، وبغير ذلك لن توفق إلى معرفة نفسك وحياتك ولا حقيقة إنسـانيتك ولا تشتم ريح السعادة والحريةوالحـكمة ولا تبصر نور الحق ولا يمكنك أن تحيا حياة الصديقين وعباد الله المخلصين مالم تتصف بهذه الصفات .

ثم يتـكلم سيادته عن الغاية والمبدأ فيقول :

كن أنت وجميع أعمالك لله ومن الله وإلى الله وليـكن دمك وقفا عـلى مقاصدك وأغراضك وليـكن أبدا مبدؤك إما الغاية وإما المنية في النهاية .

ثم يتحدث عن محبة الإخوان لبعضهم فيقول :

عش في إخوانك لإخوانك . معتقدا أن الجميع لك باذلا في معونتهم نفيسك ونفسك فما أنتم إلا روح واحدة في أجساد متعددة .

ويقول:الإخلاص روح الأعمال وهو سر الله في خلقه . يمن به على من يشاء من عباده ، ولست مخلصا ما اشتغلت عن الأعمال بالأقوال ، وعن الآخرة بمصائد الآمال ، او انفعلت لغير الله بغير حال .

ثم يتحدث عن الصلاة والصيام والزكاة فيقول .

اعلم أن أفضل عمل ما أدته جوارحك ، لأنها صلة بين العبد ومولاه والخشوع مع الحضور فيها كمالها . وخير طهور للنفس الصيام ، وصيانة الجوارح ملاكه ، وأعود أنواع البر على فاعله الزكاة ثم الصدقة سياجها ورأس الجميع خلوص النية وأفضلها ما صدر عن علم ، وخير العلم ما أيده العمل وأفضل العمل ما كان لله وحده.

ثم يتحدث عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيقول :

أيها الأخ أأمر بالمعروف وأحبب أهله ، وانه عن المنكر بيدك ولسانك وقلبك ولا تكن من أهله وكن صديقاً للحق وانصره حيث وجدته ولا تخش فيه لوما ولا ذما ولا ترج على صنيعك من غير الله أجراً وقل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرا وكن مع الصادقين لتكون منهم يوم ينفع الصادقين صدقهم . ثم يتحدث عن الثقة بالله فيقول .

ثق دائماً بربك، وتفقه بالدين،واطلب من العلم ما يثبت اليقين ، والجأ فى المعونة لمولاك ، فانك تلجأ إلى ركن متين وحصن حصين .

ثم يتحدث عن الابتعاد عن المهالك فيقول :

لا تكن عبد شهوتك وقد خلقت حرا ولا تسلم قلبك لأهوائك فتبدل نعمة الله عليك كفرا ولا تذل للدنيا فتسلك بك مسالك الردى ويا خيبة السعى . ولا تخضع للهوى فان الهوى عدو الهدى وشريك العمى. ثم يقول: كن دائماً يقظاً متحفظا وإن نازعتك نفسك فى أمر فاعصها وأغلبها على أمرها وسر فى عكس طريقها واطلب غير مرادها يسلس لك قيادها ويكبح جماحها ويذل سلطانها .

ثم يرشد إلى الحقيقة فيقول :

اعلم أنك خلقت للموت لا للحياة ، وللجهاد لا للراحة ، وللابتلاء لا للعافية واعلم أنك عرضة للآفات وغرض للمصائب والنائبات ولا سعادة لقلبك إلا فى صحبة ربك . واعلم أن الذى وهبك الحياة هو المالك لموتك فاعمل على خلاص نفسك ، ومهد فى حياتك لموتك ، واستخدم يومك لغدك ولا تكن عبدا إلا لربك . ويتكلم عن المجد الحقيق فيقول : يا له من مجد خالد وعمل مجيد أن تطلب العلم للعلم وأن تخدم الإنسانية لذاتها وتعرف الله لله .

ثم ينهانا عن حب الدنيا فيقول :

لا تفتح لحب الدنيا نوافذ قلبك ولا تنجس برخيص ملذاتها حظيرة نفسك فيتفرق لبك ويكثر همك وتكون كمن اشترى لإحراق نفسه حملا من حطب ، أو وضع رجليه فى قيد من ذهب . ثم يوجهنا إلى أعظم الأعمال فيقول :

عليك بذكر الله فى جميع حالاتك وفى سائر أوقاتك وحذار من الغفلة عنه فى كل لحظاتك ويكفيك فى وجوبه القول المصون « واذكروا الله كثيرا أيها المؤمنين لعلكم تفلحون » .

ثم يحثنا على مراقبة النفس فيقول :

ولتكن لك ساعة فى يومك وليلتك ترجع فيها إلى ربك مفكرا فى مبتدئك ومصيرك محاسبا نفسك على ما أسلفت من أيام عمرك . فان وجدت خيرا فاشكر وإن وجدت نقصا فجاهد واصطبر .

ثم يحثنا على الصدق فى القول والعمل والحال فيقول :

كن صادقا فى قولك وعملك محبا الخير لجميع الناس كما تحبه لنفسك واعلم أن جميع أفكارك أوهام باطلة ما لم تكن إلى الله موجهة وبالصدق والإخلاص مكللة .

ثم يحثنا على التمسك بالكمال دائما فيقول :

تمسك بأذيال الكمال طول حياتك واهرب من النقص بكل طاقتك . وعليك بالصمت والتفكر فى غالب أحيانك. وليكن كلامك نذرا قليلا إلا فى حق تؤيده أو خير تنشره وليكن دائما عملك أكثر من قولك وقولك أقل مما تسمع فإن مع الصمت والسكون الوقار والسكينة فإذا حدثت فاتئد فى حديثك وتكلم بإرادة ثابتة مشمولة بالإقناع الذى يحدوه الإخلاص فى جميع عباراتك وحركاتك ونبرات صوتك .

ثم يأمرنا بالعلم والعمل فيقول .

أعط للعلم باكورة أيام عمرك وأصفى ساعات دهرك ، فإن العلم غذاء النفس وصقال العقل ونور القلب وأحيه دائما بالعمل فتكمل إنسانيتك ويرتفع عند الله والناس شأنك ، وهل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ويقول فى بيت له :

إن حياة المرء أعماله فاقبل على الأعمال قبل التراب

فيا أيها الأخ الكريم هذه لمعة وضيئة أزفها إليك للتعرف بعميد الفيضيين وتلاميذه الذين كانوا وما زالوا يعملون على نشر دعوته منذ أكثر من أربعين عاما فى جميع أنحاء العالم (مسلم وغير مسلم) يحملون مشعل النور فيضىء للجميع ويهدى إلى الإيمان الحق ونور العرفان وإلى الطريق المستقيم .

ونختم نصائحه وآدابه العلمية والدينية والأخلاقية والصوفية وهى الجم الكثير بمختارات من قصيدته الوجدانية التائية التى هى جوهرة فى السلوك ويخاطب بها الحقيقة الربانية فيقول فى مناجات الحقيقة :

وجدت هوا كم قائدى منذ نشأتى فغبت عن الأكوان إذ كنت وجهتى
وهمت بكم والحب فيكم مصاحبى مدى العمر والأشواق كانت مطيتى

منى القلب لم يخطر سواكم بخاطرى ومذ كنت طفلا كان حبك قدرتى

إلى أن قال :

فيذكركم قلبى وما بحت باسمكم لغير فؤادى أو لغير سريرتى
وما طمحت فى الحب نفسى لغيركم وما غير ذاتى قرب ذاتى أحبت
وإنى من القوم الذين تتيموا غراما وعهدى فى الهوى قبل خلقتى
وفى القلب نيران وفى العين وحشة من الخلق والأسقام دوما قرينتى

إلى أن قال :

فحينا بحكم الروح أطمح للعلا وتهبط بى حينا كثافة طينتى
وطورا أرانى حاضرا غير غائب وطورا أرانى فى غياهب غفلتى
فما يصنع العانى أسير جمالكم وشرط الهوى فيكم فناء الإرادة

إلى أن قال :

فخلصنى من أسر الطبيعة واهدنى بنورك يا ألله وأوصل قطيعتى
وأنعم بتطهير الفؤاد من الهوى وجد لى بتوفيق ومن بأوبة
ففى القرب روح الروح حقا وفى اللقا حياة لنفس فى الغرام اطمأنت
وفى البعد لوعات وفى القرب رحمة وفى الوصل راحات إذ الحب ملتى

ثم تكلم عن بحثه عن الحقيقة وتحمله المشاق فى سبيلها فقال :

وإنى بليلى قد منيت وساقنى غرامى لذلى بين أهلى وعترتى
وكم من طريق للحمى قد سلكتها وحملت فيها غصة بعد غصة
وقاسيت ما قاسيت من ألم الجوى وكرعت من كأس الهوى كل مرة
فلما قرعت الباب قصد لقائها خلعت لها جاهى وعلمى ودعوتى
وحققت وصمى وهو ذلى لعزها وعاديت فيها حظ نفسى وعادتى
وجئت إليها خاضعا متضرعا منيبا لها كيما تكون مجيبتى

وعفرت خدى فى التراب تذللا   فكان فلاحى فى افتقارى وفاقى
فألغيت عزى فى امتثالى لأمرها   وترك مرادى فى مراد الأحبة
ولما رأت ذلى وعجزى ولوعتى   تجلت إلى قلبي بمكنون حكمة
وقربنى الساقى لحان شرابها   فكان بها صحوى وسكرى ونشوتى
وصارت تناجينى بحلو خطابها   فشاهدتها لكن بعين بصيرتى
وعاينت أسراراً تسامت بذاتها   وإنى أرى شرحى لها فوق طاقتى

ثم ينصح تلاميذه وإخوانه بقوله إذا أرادوا أن يسلكوا مسلكه :

وأنت كذا إن رمت قرب ديارها   تجرد لها عن وصف نفس خئونة
وسر فى هواها هائما بجمالها   وطلق سواها واعتصم بالشريعة
وهاجر إليها من حظوظك قاطعا   علائق طبع مؤثرا فضل عفة
وواظب وثابر واعتكف لمرادها   وراع آداب الحب واخضع لخدمة
وقابل جفا المحبوب بالصبر واتئد   لعل الرضا منك قريب فتثبت
فقلبك طهر وامتثل لأوامر   وعمر لأوقات بذكر ويقظة
وصبر وتسليم وورد ملازما   وأمر بمعروف وحفظ لحرمة
وصحبة شيخ وهى أصل طريقهم   فما نبتت أرض بغير فلاحة
وما سلمت فى الحى شاة شريدة   ومن غير راع ماستقامت رعية
ونفسك فاعرفها ولا تك جاهلا   بها فهى كنز بين جنبيك ضمت
ألم تر ضرب الله أمثال نوره   لدى القلب بالمصباح ضمن زجاجة
فقلبك كالمصباح والنفس زيته   وجسمك مشكاة وفيك الإضاءة
وذاتك مرآة وفكرك ضوؤها   وسرك عين والحقيقة صورة
فجاهد ترى تفصيل ما قلت واضحا   فما ضاع عند الله مثقال ذرة
وكن كاتما للسر عن غير أهله   ولا تفشه إلا لأهل البصيرة

إلى أن قال :

صلاة من الرحمن ربى وخالقى   على مظهر الأسرار خير الخليقة

مع الآل والأصحاب ما قال قائل ... وجدت هواكم قائدى منذ نشأتى

فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل أستاذنا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، أقول قولى هذا — واستغفر الله لى ولكم

طريقته رضى الله عنه

هذا وقد من الله علينا من فضله وعنايته بأن تتصل الطريقة الفيضية بأفضل مصادر الشاذلية ومواردها الهنية وسلاسلها الذهبية المتينة الوثائق والعرا حتى تلتقى بخير البرية وصفوة الأرومة العلوية والعترة النبوية المطهرة فقد أخذ شيخنا أبو الفيض المنوفى رضى الله عنه العهد بالطريقة الشاذلية الفاسية والمدنية الظافرية والشاذلية الخلوتية من طريق مرشد المريدين ومربى السالكين السيد محمد العقاد دفين طنطا وجدد الميثاق على يد العارف المجاهد لله أخيه فى الطريق سيدى نسيم الدين الدرملى وهما أخذا الطريق عن سيدى محمود الوفائى وأخذ عن السيد حسنين الحصافى للتبرك والحصافى والوفائى يجتمعان فى الأخذ عن سيدى محمد الفاسى وهو أخذ عن سيدى الشيخ القطب محمد ظافر المدنى وهو أخذ عن السيد الشريف مولانا العربى الدرقاوى الفاسى وهو أخذ عن القطب الشريف سيدى على الجمل العمرانى الفاسى وهو عن سيدى العربى بن أحمد بن عبد الله الفاسى وهو عن والده سيدى أحمد الفاسى وهو عن سيدى قاسم الاخصاصى عن سيدى عبد الرحمن الفاسى عن سيدى عبد الله والد سيدى أحمد الفاسى عن سيدى يوسف عن سيدى عبد الرحمن المجذوب عن سيدى على الصنهاجى عن سيدى ابراهيم الفحام عن البحر الدفوق سيدى الشيخ أحمد زروق عن سيدى أحمد بن عقبة الحضرمى عن سيدى الشريف

يحيى القادرى عن السيد على وفا عن والده بحر الصفا سيدى محمد وفا عن سيدى داود الباخلى عن سيدى أحمد بن عطاء الله السكندرى صاحب الحكم عن سيدى أحمد بن عطاء الله السكندرى صاحب الحكم عن سيدى أحمد أبو العباس المرسى عن سيدى على أبى الحسن الشاذلى عن سيدى عبد السلام ابن مشيش عن سيدى عبد الرحمن المدنى العطار عن تقى الدين الفقير (الفقير بالتصغير) عن سيدى فخر الدين عن سيدى نور الدين أبى الحسن عن سيدى تاج الدين عن سيدى شمس الدين بأرض الترك عن سيدى زين الدين القزوينى عن سيدى ابراهيم البشرى عن أبى القاسم بن مروان عن أبى محمد سعيد عن أبى فتح السعود عن أبى سعيد الغزوانى عن سيد أبى محمد جابر عن السبط سيدنا الحسن بن الإمام على بن أبى طالب وأخذ الإمام على عن صفوة خلق الله سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله أول خلق الله وخاتم أنبياء الله وأشفع الشافعين عند الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن والاه آمين .

حياة ونسب سيدى أبى الحسن الشاذلى

شيخنا رضى الله عنه

هو أبو الحسن الشاذلى شيخنا وقدوتنا فى سبيل الله وفى طريق رسول الله الشيخ الكامل والولى الصديق الحسيب النسيب السيد أبو الحسن الشاذلى الحسن بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصى بن يوسف ابن يوشع بن ورد بن أبى بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن المثنى بن سيد شباب أهل الجنة أبى محمد الحسن بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه وابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد رضى الله لثلاث وتسعين وخمسمائة من الهجرة النبوية سنة ٥٩٣ هـ بقرية من قرى غمارة من إفريقية قريبة من سبتة وهى بالمغرب الأقصى وتوفى سنة ٦٥٦ هـ ودفن بصحراء عيذاب من صحارى صعيد مصر واشتغل

بالعلوم الشرعية حتى أتقنها فقها وسنة وتفسيرا . وكان رضى الله عنه فصيح اللسان عذب الكلام أدم اللون نحيف الجسم طويل القامة خفيف العارضين طويل أصابع اليدين شثن الكفين ، وقد حكى عن نفسه رضى الله عنه فقال :

كنت فى مبدأ أمرى أطلب العلم حتى حصلت منه على ما يكفينى وأردت أن أسلك إلى الله طريقه فترددت فى هل أجوب البرارى والقفار أم أتفرغ للطاعة والأذكار؟ أم ألزم المدن والأمصار للهداية والاقتداء بالأخيار؟ فوصف لى ولى برأس الجبل الأخضر وهو سيدى عبد السلام بن مشيش فصعدت إليه فسمعته يقول : اللهم إن قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك فسخرتهم لهم فرضوا عنك بذلك . اللهم إنى أسألك اعوجاج الخلق على حتى لا يكون لى ملجأ إلا إليك . ولما دخلت عليه هبته وقلت له يا سيدى كيف حالك فقال أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار . فقلت يا سيدى أما شكواك من حر الاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه وأما شكواك من برد الرضا والتسليم فلماذا ؟ قال أخاف أن تشغلنى حلاوتهما عن الله تعالى قلت ياسيدى سمعتك البارحة تقول اللهم إن قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك فسخرت لهم خلقك فرضوا منك بذلك اللهم إنى أسألك اعوجاج الخلق على حتى لا يكون لى ملجأ إلا إليك فتبسم ثم قال يابنى عوض ما تقول سخر لى قل يارب كن لى .

أترى إذا كان الله لك هل يفوتك شىء

فطريقة سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه تنسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش والشيخ عبد السلام بن مشيش ينسب إلى الشيخ عبد الرحمن المدنى ثم واحدا عن واحد إلى الحسن بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه . انتهى والله أعلم .

حسن الراعى يوسف
بالأزهر الشريف

فهرس

الموضوع | الصفحة

مطبعة نهضة مصر
الفجالة - القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٦٩/٢٩٥٦